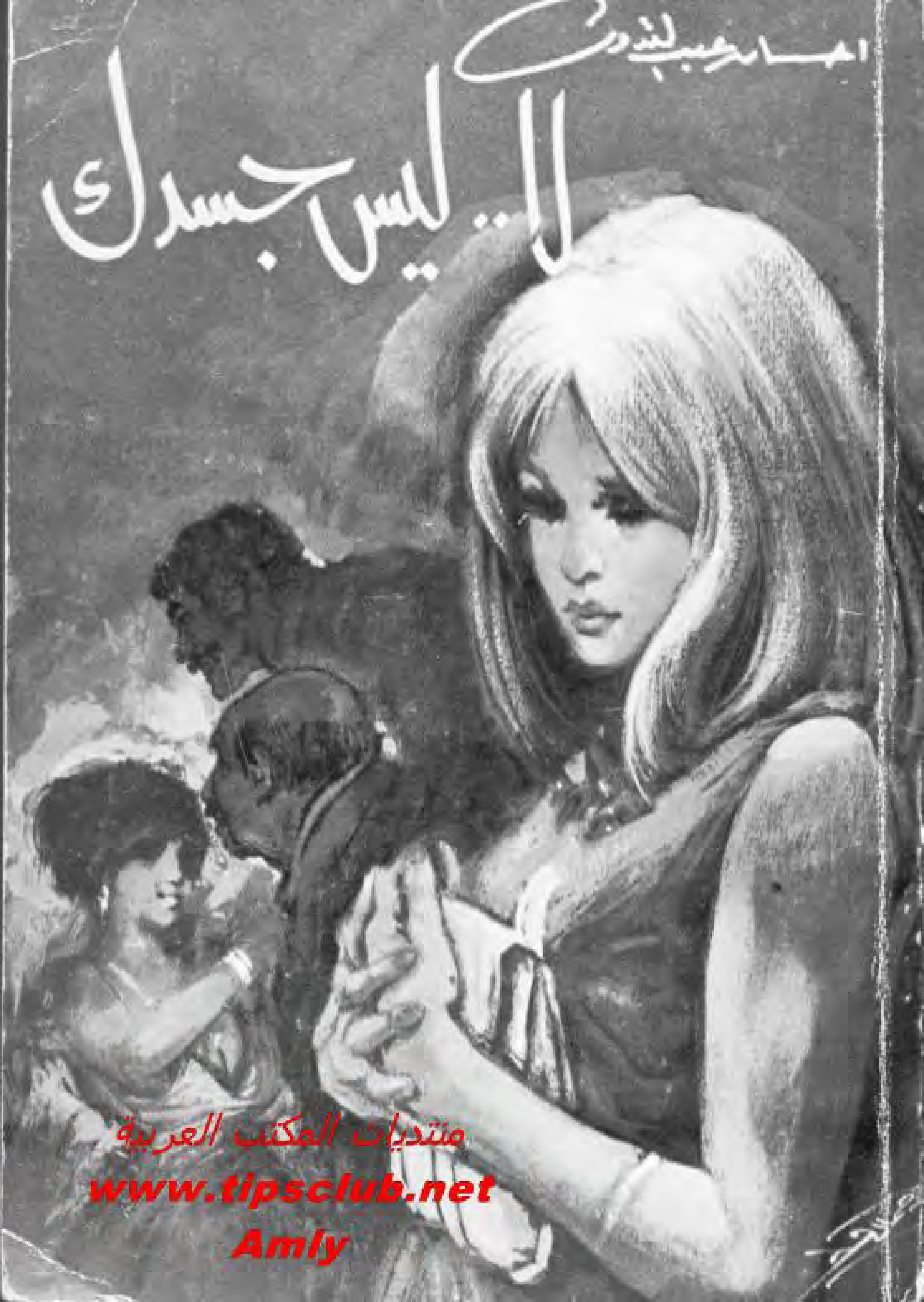

احسان عبد القدوس
لا... ليس جسدك

إحسان عبد القدوس

لا.. ليس جسدك

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

كانت طالبة معى فى الجامعة .. كانت جميلة .. جمالها هادىء مريح .. يريح القلب والعقل .. وكانت رغم جمالها ، جادة .. ليس فيها مرقعة بقية البنات .. ولا اندفاع بقية البنات .. كانت تبدو دائما كأنها تفكر .. وكنت اتمنى لحظة لا تفكر فيها .. ولكنها تبدو وكأن لها عقلين .. العقل الثانى فى صدرها ..

وكانت دائما تبدو كأن ارادتها فى يديها .. وكنت اتمنى ان اسرق ارادتها منها .. حاولت كثيرا ان اسرق ارادتها .. ولكن مستحيل .. انها تقبض على ارادتها بيد من حديد ..

وكانت دائما محتفظة بكرامتها .. كرامة حساسة الى حد متعب .. ومعنى كرامتها هو شخصيتها الكاملة .. شخصية تضعها بجانب شخصية اى رجل .. وقد حاولت كثيرا ان اضع لكرامتها معنى آخر .. ان اقنعها بأن ليس بين المحبين كرامة .. وان كرامة الحب هى الاستسلام للحب .. ولكن ، لا .. ان مقاييس كرامتها ، لا تتغير .

وكنت خلال سنوات الجامعة ، اعرف كثيرا من البنات .. آخذ منهن ما اريد ، حتى ولو لم يردنه .. كانت لى وسائل اكيدة المفعول اصل بها الى اى بنت .. ولكنى كنت دائما اعود اليها .. ولا اكاد التقى بها حتى انسى كل وسائلى الاكيدة المفعول ، واجد نفسى اشترك معها فى نقاش هادىء حول نظرية ادبية ، او حول المبادىء السياسية ، او حول الأخلاق الاجتماعية .. وتمر ساعة أو ساعتان ثم تتركنى فى هدوء وابتسامتها الحلوة فوق شفتيها .. ولا تكاد تتركنى .. حتى احس بأنى ضيعت من عمرى ساعتين فى هباء .. فى كلام فاضى .. واغتاظ .. واجرى الى البنات الأخريات كأنى انتقم منها .. واحيانا يشتد غيظى حتى افكر فى تحطيم راسها الذى تفكر به .. فى تحطيم ارادتها . فى تحطيم كبريائها .. ولكننى

لا البث ان اجد نفسى اعود اليها لنتناقش فى النظريات الأدبية والسياسية ، والاجتماعية .. دون ان احطم شيئا !!

وفى يوم استطعت ان اجمع ارادتى ، وامسكت بيدها ، ونحن نسير ، نخوض فى مناقشاتنا .. وتركت لى يدها .. ولم اعد اسمع شيئا مما تقوله .. انحصر كل تفكيرى فى الخطوة التالية .. واقدمت على الخطوة التالية بعد لحظات .. فجذبتها الىّ فجأة . وقبلتها فوق خدها قبلة سريعة ..

وابتعدت عنى بلا عنف ..

وسحبت يدها من يدى ، فى هدوء ..

ثم نظرت الىّ .. نظرة كبيرة .. وابتسامتها الحلوة لا تزال بين شفتيها ..

ثم تركتنى ..

— ولا أدرى لماذا ندمت .. هذه النظرة الكبيرة شقت صدرى واستقرت بين ضلوعى .. وجعلتنى احس بأنى سافل .. لأول مرة احسست بأنى سافل !!

ولم اعد احاول مرة ثانية ..

اكتفيت منها بلهفتى التى تدفعنى اليها .. والى مناقشاتنا الطويلة ..

واستمرت صداقتنا الى ما بعد تخرجنا .. وانا اكذب عندما اسميها « صداقة » .. لقد كنت اعرف أن ما بيننا اكثر من صداقة .. ولكنى لم اكن اريد ان اعترف بذلك .. حتى لا اتعذب ..

وحاجتى اليها تزداد على مر الأيام .. كل البنات اللاتى يعطيننى ما أريد ، لا يملأن مكانها ، ولا يجعلننى استغنى عنها ..

— انى اذهب اليها فى بيت اهلها .. واذهب معها احيانا الى السينما .. واحيانا ارقص معها .. ولا شىء يتغير من عقليتها . او ارادتها او كرامتها ..

واخيرا قلت لها :

ـــ ليلى .. احنا حانفضل كده لغاية امتى ؟

وقالت كأنها تناقشنى فى السياسة :

ـــ قصدك ايه ؟

فقلت وانا انظر اليها فى تردد :

ـــ قصدى نتجوز !!

ولأول مرة ارى وجنتيها تحتقنان خفرا .. وأرى جفنيها ينسدلان فوق عينيها .. ورعشة خفيفة ، ترتعش بها اصابع يديها ..

وقالت فى صوت مرتعش :

ـــ انت فكرت كويس يا محمد !!

ولم اكن قد « فكرت-كويس » ولكنى شعرت ساعتها باننى لن استطيع ان اعيش الا اذا تزوجتها .. سأموت لو رفضتنى !

ولم ترفضنى ..

ظلت ساكتة ودماء الخفر تملأ وجهها .. بريئة .. طاهرة ..

واقتربت منها ..

والتقت شفاهنا ..

لأول مرة ..

وآه من هذه المرة .. انى لا استطيع ابدا ان انساها .. لقد حوت حبا محروماً دام ست سنوات .. حوت انهيار كل ارادتها .. وحوت حلاوة كل كبريائها .. وكل عقلها ..

انها تحبنى ..

كل هذه السنين كانت تحبنى ..

ان لها عقلا واحدا .. لا عقلين كما كنت اعتقد .. قلبها فى مكانه من صدرها .. قلب كبير .. وربما كان لها قلبان .. الثانى فى راسها !

وملأنى حبها بالغرور .. غرور لم تستطع كل البنات اللاتى عرفتهن ، ان يثرنه فىّ ..

ولكن غرورى لم يفسد حبى ..

انى احبها ..

لم اعد احاول ان انكر حبى ..

وتزوجنا ..

ايام كالعسل جمعتنا .. ومن خلال هذه الأيام .. ايام العسل اخذت احدثها عن مغامراتى السابقة .. عن عشرات البنات اللاتى اخذت منهن ما اريد .. وهى تستمع وابتسامتها الحلوة فوق شفتيها ، وراسها مرفوع تشده كرامتها .. ثم قالت لى فى هدوء :

ـــ تعرف لو خنتنى يا محمد ، حاعمل ايه ؟

قلت وانا اضحك ضحكة مغرورة :

ـــ ايه ؟ .

قالت فى بساطة :

ـــ حا اخونك ! ..

وضحكت ضحكة عالية ..

وقطعت ضحكتى ، وقالت فى صوتها الهادىء :

ـــ اتفقنا ..

قلت وانا اهز كتفى ، واطلق ضحكة اخرى :

ـــ اتفقنا !! .

ثم القيت نفسى فوقها .. اقبلها !!

ولم اشعر فى هذه اللحظة بأنها كانت جادة فى هذا الاتفاق السريع الذى عقدناه .. ربما لأن غرورى كان اقوى من ان اتصور ان زوجتى يمكن ان تخوننى .. وربما لأنى فى تلك اللحظة لم اكن اتصور انى سأخونها يوما ما .. لم اكن فى حاجة الى خيانتها ..

فقبلت الاتفاق كنوع من المداعبة ..

ومر عامان .. ونسيت خلالهما هذا الاتفاق ..

و ..

وجاءت الى مكتبى سيدة صغيرة .. مطلقة تعرض احدى قضاياها .. انها جميلة .. نوع آخر من الجمال غير الجمال الذى تتميز به زوجتى .. جمال قد لا يجذب قلبك . ولا عقلك .. ولكنه يجذب اعصابك ..

ووجدت نفسى ابحلق فيها ..

ثم وجدت نفسى افكر فى الوسائل القديمة التى كنت اصل بها الى ما اريد من البنات ..

وقاومت ..

— صدقونى .. لقد قاومت .. ولكنها كانت مقاومة ضعيفة .. تغلبت عليها شقاوتى .. ورايت نفسى اندفع اليها كانى احاول ان اجرب نفسى .. واجرب مواهبى .. بعد هذا العمر الطويل .. عمر سنتين ، قضيتهما فى حالة اخلاص تام .. جمد حياتى ..

وكانت السيدة الصغيرة المطلقة .. سهلة !

لم البث — بعد اول خطوة — ان وجدت شفتى فوق شفتيها !

وعدت الى البيت مرحا . يكاد زهوى يرفعنى من على الأرض .. واقبلت على زوجتى ادللها اكثر مما تعودت .. وأملأ اذنيها بضحكاتى وكلامى الحلو .. وكنت مخلصا فى كل ذلك .. لقد اكتشفت أن الزوج عندما ينجح فى خيانة زوجته ، يحبها اكثر .. ويسعدها أكثر !!

وفى الصباح ..

فتحت عينى لأجد منديلى مفرودا بجانب راسى .. وبقعة كبيرة حمراء من احمر شفاه ، تقف فوقه ، كأنها الجرح العميق ..

وزوجتى جالسة بجانبى على الفراش ، تبتسم فى هدوء ابتسامتها الحلوة .

وارتبكت ..

ولكنى سيطرت على ارتباكى بسرعة ، وقلت كانى فوجئت :

— ايه ده ؟

وقالت ليلى فى هدوء :

— انا عارفه .. اسأل نفسك !

— وسكت قليلا كانى افكر ، ثم صحت وانا أزين صيحتى بابتسامة كبيرة :

— آه .. اصل امبارح وانا جاى فت على أمى .. وكانت اختى هناك .. وزى ما انتى عارفه اختى أول ما تشوفنى تنزل فى بوس .. ومسحت بوستها فى منديلى .. افتكرت دلوقت !

وظلت زوجتى ساكتة تبتسم ..

وعدت اقول :

— مش مصدقانى ؟

قالت فى هدوء :

— مصدقاك !

واخذتها بين ذراعى وقبلتها .. وقبلتنى .. ثم عدت اقول كانى لم اكن واثقا انها صدقتنى :

— اذا كنت مش مصدقانى .. اسألى اختى !!

وكنت متأكدا ان زوجتى لن تسأل اختى .. ان كبرياءها سيحول بينها وبين أن تسألها .

ولم تسألها فعلا ..

وازددت ثقة بنفسى ..

ما اسهل خيانة الزوجات !

وعدت الى المطلقة الصغيرة .. السهلة !!

مرت اسابيع وانا .. اخون زوجتى !

ثم . . .

طلبت منى المطلقة الصغيرة ان اوصلها الى بيتها بسيارتى بعد لقائنا فى شقة احد أصدقائى . .

وركبت بجانبى . . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى أوصلها . . وتركب بجانبى وتلتصق بى . .

وفجأة . . لمحت زوجتى تسير على رصيف الشارع . .

وارتبكت . . صرخت :

— مراتى . .

واحنيت راسى فوق عجلة القيادة كأنى احاول ان اخفى نفسى عنها . . ثم بدأ عقلى يغلى . . ماذا سأقول لها . . اى كذبة اختارها . . اتعرف . . ان الزوج عادة لا يستطيع ان يختار الكذبة التى سيرويها لزوجته . . ولكنه يظل يفكر فيها . . ثم تنطلق رغم ارادته ، وبلا تفكير ، بمجرد أن يواجه زوجته . . يارب الهمنى كذبة جيدة عندما اواجه ليلى . .

ولكن . . لعلها لم ترنى . . انى لم أر عينيها تلتقيان بوجهى . . يارب . . لعلك قد أعميتها حتى لا ترانى . .

وعدت الى البيت . . اتعثر فى ارتباكى . .

ان ليلى هادئة . .

ابتسامتها مستقرة فوق شفتيها . . ابتسامتها الحلوة ! . .

انها لم ترنى . .

وقبلتها . . قبلة اودعتها كل حبى . . واكثر من حبى . . ارتباكى ! . .

***

ومر يومان . .

ورفعت سماعة التليفون وانا فى مكتبى ، لأحادث زوجتى فى البيت . . و . . النمرة مشغولة . . وانتظرت خمس دقائق ، وأدرت

القرص مرة ثانية . . مشغولة . . و . . مشغولة . . وبعد ثلث ساعة استطعت ان أتصل بها .

— كنت بتكلمى مين ؟

واجابت فى هدوء :

— بكلم ماما . .

وصدقتها . . صدقتها فعلا ، وبدون ادنى ارتياب . .

وفى اليوم التالى . .

اتصلت بها بالتليفون . . مشغولة . . و . . مشغولة . . وبعد نصف ساعة استطعت أن اتصل بها . .

— كنت بتكلمى مين ! ؟

— اختى . . سهير . .

وصدقتها . . صدقتها فعلا . .

وفى اليوم الثالث . . والرابع . . والخامس . .

والتليفون مشغول لمدة نصف ساعة . . ثم ثلاثة أرباع الساعة . . ثم ساعة . .

وبدأت ارتاب . .

وبددت بسرعة ارتيابى . . لا . . مستحيل !

وليلى تستأذننى فى الخروج . . نازلة البلد . . ولم تكن من عادة ليلى أن تستأذننى عندما تنزل البلد . .

ثم تستأذننى لزيارة احدى صديقاتها . . وحاتأخر شوية !!

وتستأذننى فى زيارة اختها . .

انها تخرج كل يوم . . ولم تكن هذه عادتها . . والتليفون مشغول دائما . . ولم تكن هذه عادتها ايضا . .

واشتدت ريبتى . .

واشتدت اكثر . .

***

ثم فجأة تذكرت الاتفاق الذى كان قد تم بيننا فى يوم من أيام العسل .. ان تخوننى ، اذا خنتها !!

هل تأكدت ليلى من خيانتى ، وبدأت تخوننى ؟

مستحيل ..

واذا حدث ، فلن اقبل .. ولن اسكت .. اتفاق او لا اتفاق .. انه اتفاق لا يقره شرع ولا قانون ..

ولكن ليلى لا تخوننى ..

مستحيل ..

مستحيل يا عالم ..

وبدأت اعصابى تتلف .. اصبحت اصرخ فى وجهها بمناسبة ، وبلا مناسبة .. واصبحت تقبلنى فأحس انها تقبلنى بافتعال .. صحيح ان قبلتها حارة طويلة .. ولكن انا ايضا كنت اقبلها قبلات حارة طويلة عندما اخونها مع المطلقة الصغيرة .. وصحيح انها تدللنى وتعطينى من نفسها فى سخاء وتفاعل .. ولكن أنا ايضا كنت اعطيها واتفاعل معها اكثر كلما خنتها اكثر ..

واعصابى تزداد قلقا ..

ولكنى لا أستطيع ان افهمها .. ولا استطيع ان اصارحها بشكوكى . كبريائى وغرورى يمنعانى ..

واستأذنت منى ذات صباح لتخرج ..

ورفضت ..

صرخت فى وجهها :

ــ لا ما تخرجيش .. مش كل يوم خروج .

وهزت كتفيها فى هدوء .. ولم ترد !

ولكنها خرجت فى اليوم التالى ، بلا اذن .. دون استئذانى ! وكدت أجن ..

ولكنى لا استطيع ان اصارحها بجنونى ، ولا بشكوكى ..

وذات يوم اتصلت بها بالتليفون ..

مشغول ..

وبسرعة اتصلت بنمرة تليفون امها .. الجــرس يرن .. واتصلت بنمرة تليفون اختها .. الجرس يرن .. ونمرة تليفون صديقتها .. الجرس يرن .. واتصلت بكل تليفــونات اقاربها وصديقاتها .. والجرس دائما يرن .. ومعنى هذا انها لا تحادث احدا من كل هؤلاء .. انها تحادث غريبا عنى .. رجلا غريبا .. تحادث عشيقها ..

انها تخوننى ..

تخوننى ..

والدماء تغلى فى عروقى .. وبدون أن ادرى .. خرجت من مكتبى اجرى كالمجنون .. وجريت بسيارتى الى اول مأذون .. وطلقتها ..

طلقت ليلى دون ان تدرى ..

وحاولت بعد ان وقعت وثيقة الطلاق ان اهدأ ..

لقد انتقمت ..

ولكنى لم اهدأ ..

ورفعت سماعة التليفون لألقى فى وجهها بالقنبلة .. لقد اصبحت طالقا ..

ولكن ..

التليفون مشغول ..

وجريت بسيارتى الى البيت ...

ودخلت على اطراف اصابعى لأضبطها وهى تحادث الرجل

الغريب .. لعلها راقدة فى الفراش .. بقميص النوم .. وسماعة التليفون فوق اذنها .. هائمة فى حديثها مع عشيقها ..

وعلى باب حجرتها وقفت مشدوها ..

تسمرت كانى استحلت الى تمثال من رخام ..

ان ليلى جالسة تقرا فى كتاب ..

والتليفون بجانبها .. والسماعة مرفوعة !!

***

ويومها بكيت .. بكيت وانا واقف عند بابها ..

لقد اكتشفت فى لحظة انها لم تكن تخوننى .. ولكنها كانت تلعب لعبة خطرة ، لتنتقم منى على خيانتى لها ..

و .. وبكت ليلى ايضا ..

بكت عندما علمت انى طلقتها .. فى لعبة !!

ولكنها جففت دموعها بسرعة .. ورفعت راسها .. وجمعت ارادتها بين يديها .. وخرجت من البيت ..

ومضت ستة شهور احاول ان اقنعها انها السبب فى جنونى .. انها السبب فى كل ما حدث ..

ولكنها لا تقتنع .

كرامتها الحساسة تقف بينى وبينها .. وارادتها تخنقنى ..

ولكنى لم ايأس .. اننى احبها ..

وكل ما بقى لى من امل .. انها تحبنى ! .

زوجـــة وخادمـــة

عندما تزوج مصطفى عبد العال ، العامل بمصنع المنتجات الحديثة ، كان فى التاسعة عشرة من عمره ، وكانت يوميته عشرين قرشا ، فاذا خصمنا ايام العطلات ، فان مجموع دخله فى الشهر لم يكن يتجاوز خمسة الجنيهات ونصف الجنيه ..

ولكن الأسطى مصطفى ــ واقب اسطى لم يكن يتمتع به الا بين اولاد الحارة ــ لم يحسب حساب اجره عندما فكر فى الزواج .. لقد تزوج لأنه يجب ان يتزوج .. ولأن كل الناس يتزوجون .. والرزق على الله !

تزوج الأسطى مصطفى بدافع الاستطراد الى الحياة .. نفس الدافع الذى دفعه ليبحث لنفسه عن عمل ..

وكما بحث عن عمل لنفسه يحبه ..

فقد بحث عن زوجة يحبها ..

وكان يحب عزيزة ، ابنة الحاج متولى البقال ، الذى يقع دكانه على ناصية الحارة .. ولم يكن حبه لها حبا عنيفا صارخا .. لم يكن حبه لها يؤرقه او يدفعه اليها .. كان حبه هادئا ، فيه حنان وشهامة اكثر مما فيه من اثرة واندفاع .. حبا يعيش معه كما يعيش حبه لامه واخته .. بل انه لم يفكر فى الزواج بها ، الا عندما بدأ يفكر فى الزواج .. لقد اكتشف فجأة ان عزيزة ليست اخته ، وانه يستطيع ان يتزوجها ..

وكانت عزيزة جميلة .. تمتاز عن كل بنات الحارة بشعرها الأصفر ، وبياض بشرتها ، وعينيها الملونتين .. ان امها من المنصورة .. ولكنها كانت ضعيفة .. هزيلة .. وجهها نحيل .. وقوامها رفيع .. وصفرة تطوف فوق وجنتيها .. وشفتاها باهتتان .. وعيناها دائما مجهدتان .. وربما كان هذا الضعف هو الذى دفع مصطفى اليها .. كان يعتبر نفسه مسئولا عنها منذ كان صبيا .. كان يتولى حمايتها من مشاكسات اولاد الحارة .. وكان يأخذ من امه نصف الرغيف وقطعة الجبن ، ويجلس معها على عتبة البيت ليأكلاها سويا .. وكانت عينه دائما عليها ، كلما نزلت الحارة .. لا يتركها وحدها ، ولا يتركها لاحد ..

وقد تم زواجه ببساطة ..

قابل عزيزة وهى خارجة من بيتها ملتفة بملاءتها السوداء ، وقال لها وهو يصافحها ، دون ان يختلج صوته :

— تتجوزينى يا عزيزه ؟

ونظرت اليه عزيزة بعينين مبهورتين .. وارتفعت قطرات حمراء فوق وجنتيها .. ثم لاول مرة — ترفع طرف ملاءتها لتغطى وجهها عنه .. وربما لتخفى فرحتها .. وجرت من امامه .. عادت تدخل بيتها دون ان تجيبه !

وعارضت ام مصطفى فى زواجه من عزيزة ، وصاحت وهى تخبط يدها على صدرها :

— يا بنى دى ضعفانه وعيانه .. دى ما تستحملش جواز .. والا عاجبك الشعر الأصفر ! ؟

ورد عليها مصطفى فى ثبات وثقة :

— دى متربيه معايا يا امه .. ما حدش يستحملنى ويفهمنى زيهـــا !! .

وام مصطفى امراة طيبة .. وكانت تعلم ان عزيزة طيبة ايضا .. ستريحها وتريح ابنها .. فسحبت معارضتها بسرعة ، ورحبت بالعروس فى بيتها ..

ولم يتغير شىء .. انتقلت عزيزة الى بيت مصطفى .. هذا هو كل شىء !

ولكن مصطفى اكتشف ان زوجته اكثر ضعفا مما كان يعتقد .. انها مريضة .. مريضة بالربو .. وكان اكثر ما تحرص عليه عزيزة هو ان تخفى عن زوجها ضعفها ، ومرضها ..

كانت تصر على ان تقوم بكل اعمال البيت وحدها .. هى التى تكنس ، وهى التى تمسح ، وهى التى تغسل ، وهى التى تطبخ .. تخدمه وتخدم امه .. فاذا احست بنوبة من نوبات الربو على وشك ان تلم بها جرت الى الحمام ، واغلقت الباب عليها ، وعانت النوبة وحدها ..

ولاحظ مصطفى كل ما تبذله عزيزة من جهد ، وكل ما تخفيه عنه ..

وتمزق قلبه .. وقرر ان يصطحبها الى طبيب .. ولكنها ترفض ..

انها ليست مريضة .. فقط نوبة من البرد لا تلبث ان تزول ..

ومصطفى يعلم انها مريضة .. ويعلم انه يجب ان يصحبها الى طبيب ..

وعندما بدا مصطفى يفكر فى اصطحاب زوجته الى طبيب .. بدا يفكر فى اجره .. ان اجره لا يكفى ليدفع اتعاب الطبيب ويشترى الدواء .. لا يتبقى منه شىء !

وكان مصطفى عاملا ماهرا .. وكان يعلم انه عامل ماهر .. امهر عمال المصنع .. ويعلم انه يستحق زيادة اجره ..

ولكن الطريقة التى يطالب بها بزيادة أجره ، كانت تنتهى دائما برفض طلبه . انه لا يجيد النفاق للأسطى الكبير .. ولا يجيد النفاق للموظف المسئول .. انه عصبى .. وقد زاده مرض زوجته حدة وعصبية .. وكلما ناقش رئيسه فى زيادة اجره ، وجد نفسه بعد بضعة كلمات يصرخ ، ويثور ، ويسب ، ويلعن ..

ولم يزد اجره ..

وأخذ زوجته الى مستشفى مجانى ، ليكشف عليها الطبيب فى العيادة الخارجية ..

اضطر أن يضربها لتعترف بمرضها ، وتذهب معه الى المستشفى ..

واقترض ليشترى لها الدواء الذى كتبه الطبيب ..

ولكن الدواء لا يفيد .. وهو غير مقتنع بهذا الطبيب ..

وحالة زوجته تسوء .. ورغم ذلك لا تزال تصر على ان تقوم بكل اعمال البيت وحدها ..

ثم زادت الحالة سوءا ..

ماتت أمه .. وكانت تتقاضى ثلاثة جنيهات فى الشهر معاش زوجها .. ضاعت !

وحملت زوجته .. وزاد الحمل من مرضها ، واصبحت نوبات الربو تلاحقها الى حد لم تعد تستطيع ان تخفيها فى الحمام !

وخرج مصطفى من المصنع الذى يعمل فيه .. والتحق بمصنع آخر ..

ترك العمل الذى يحبه ، الى عمل لا يحبه فى سبيل زيادة اجره .. وزيادة الأجر لم تتجاوز خمسة قروش .. اصبحت يوميته خمسة وعشرين قرشا ..

واستهلك الزيادة فى علاج زوجته ..

ولكنها لا تشفى .. لا تزال ضعيفة .. كل ما فعله العلاج أن خفف من اثر النوبات عليها ..

واقسى ما يتعب مصطفى أنها لا تزال تصر على ان تقوم بكل اعمال البيت وحدها .. انها ترفض ان يساعدها احد من نساء الجيران .. وتغضب ان قام مصطفى من مكانه ليشرب .. يجب ان تأتى بقلة الماء بنفسها .. وقد بكت يوم وجدته يغسل بذلته الزرقاء بنفسه .. بكت الى حد الصراخ .. ثم شدت البذلة من يده ، وبدأت تغسلها من جديد ..

ويتوسل اليها :

— ما تتعبيش نفسك يا عزيزه .. عياكى يلزمه الراحه !

وتصرخ فيه :

— ما لكش دعوه .. انا مش عيانه .. قلت لك الف مره مش عيانه .. انا اشتكيت لك يا أخى .. !

ويسكت الأسطى مصطفى .. وقلبه يتمزق .. وأحيانا يقول لها :

— بلاش تطبخى يا عزيزه .. انا نفسى فى طعميه سوقى من عند الحاج عضيم ، حاشتريها معايا وانا راجع ..

وتصرخ :

— ابدا .. ما تكلش من السوق ابدا وانا معاك .. والا طبيخى مش عاجبك يا مصطفى ..

ويسكت مصطفى .. وقلبه يتمزق ..

انه لا يستطيع ان يخفى جزعه عليها .. وهى لا تقبل منه ان يعتبرها مريضة .. انها ليست مريضة .. انها زوجة كاملة .. تستطيع ان تخدم بيتها ، وتخدم زوجها ..

وبطنها ينتفخ .. ولا تزال تكنس .. وتمسح .. وتطبخ .. وتغسل البدلة الزرقاء ..

و . . وحدث شيء جديد . .

أمم المصنع الذى يعمل فيه مصطفى . . ووضعت سياسة جديدة للأجور . . ارتفع اجر مصطفى مرة واحدة الى اربعين قرشا فى اليوم ، واصبح يتقاضى اجره حتى عن ايام العطلات الرسمية . .

وفرح مصطفى . . وبدأ يفكر فيما يفعله بهذه الثروة الجديدة التى هبطت عليه . .

فكر فى ان ينتقل الى سكن جديد . فى حى اقل رطوبة . . فى العباسية ، مثلا . . لقد قال له الطبيب ان الجو الجاف يريح زوجته . .

وفكر أن يشترى لنفسه بسكليت يذهب بها الى عمله . . ان البسكليت توفر عليه متاعب الأوتوبيس . .

و . . فكر ان يتزوج . . زوجة ثانية . . ومر براسه هذا الخاطر مرورا سريعا . . وطرده بسرعة وغضب . . لا . . لن تكون له زوجة الا عزيزة . . سيقتلها لو تزوج غيرها . .

وابتسم . . ربما كان أول ما يجب أن يفعله هو ان يستأجر خادمة ترفع عن كاهل عزيزة عبء أعمال البيت . . تريحها . . واتسعت ابتسامته . . ستكون لعزيزة خادمة . . لم تكن لأمه خادمة ، ولا لأم عزيزة . . هذه أول مرة تدخل بيتهم خادمة . .

واحس بالفرحة تكاد تطير به . . لن تتعب عزيزة بعد اليوم . . ولن يجرع عليها . .

وفى نهاية الأسبوع ، خرج من المصنع بعد ان قبض أجره . .

وذهب الى شارع الموسكى . . واشترى لزوجته ثوبا جديدا . . لونه احمر مزين بورد أبيض . . ثم مر على أم فطومة التى تبيع الفجل والكرات على باب الحارة . . واتفق معها على ان تعمل فطومة عنده . . خادمة . . نظير جنيه فى الشهر . . وصمم على ان يصحب فطومة معه الى البيت . .

ودخل على عزيزة . . واستقبلته وابتسامتها تلمع فى عينيها اكثر مما تبدو بين شفتيها الباهتتين . .

ثم جمدت ابتسامتها عندما التقت عيناها بوجه فطومة . . وهمست فى صوت لا يسمع :

— ازيك يا فطومة . .

وجلجل صوت فطومة ، كأنها تزغرد . . صوت ملىء بالصحة والعافية :

— الله يسلمك يا ست عزيزة . .

وفتح مصطفى اللفافة التى يحملها ، وصاح فى فرح :

— جبت لك فستان جديد يا عزيزة . . ربنا فتحها على وعليكى . .

وأمسكت عزيزة القماش بأطراف اصابعها واغتصبت ابتسامة وضعتها بين الشفتين الضعيفتين ، وهمست :

— ليه بس يا مصطفى . . ده الفستان اللى عندى لسه جديد . .

وعادت تنظر الى فطومة . . فى حيرة . . ثم ترفع عينيها الى مصطفى فى حيرة . .

وقال مصطفى كأنه يعلن انتصاره :

— البت فطومه حتشتغل عندنا . . تخدمك ، وتريحك . . اتفقت مع امها خلاص . .

واتسعت عينا عزيزة كأنها ذعرت . . وعادت تنظر فى وجه زوجها ، وفى وجه فطومة . . ثم همست :

— انت كان ناقصك حاجه يا مصطفى ؟

وقال مصطفى :

— ناقصنى راحتك . . من هنا ورايح تقعدى زى الهوانم . . والبت فطومه تخدمك !

وسكتت عزيزة . . وقفت بجانب زوجها وهو يخلع ثيابه ،

تحمل له جلبابه ثم ناولته المنشفة وسارت وراءه الى الحمام .. واصطدمت عيناها بوجه فطومة ، فانطلقت من فمها صرخة كبيرة .. صرخة اكبر منها :

ـ امشى يا بت اقعدى وراء الباب ، لغاية ما اندهلك !

ثم بدات تعد طعام زوجها ..

وقال مصطفى وهو يبتسم :

ـ ما تخلى فطومه تسخن الأكل ، واستريحى انتى !

واجابت عزيزة فى حزم ، كأنها ـ ولأول مرة ـ تتحدى زوجها :

ـ لا .. ودى ايه عرفها البت المفعوصه دى !

ورفضت عزيزة ان تشاركها فطومة فى اعمال البيت ، او فى خدمة زوجها .. انه بيتها . وهو زوجها .. وليس لأحد حق فيهما الا هى .. هى التى تستطيع ان تفعل كل شىء .. هى وحدها .. ان مصطفى لن يجد البيت نظيفا الا اذا كنسته هى .. ولن يستريح فى ثيابه الا اذا غسلتها له بيديها .. ولن تنفتح شهيته لطعام الا اذا وضعت فيه أنفاسها .. ان مصطفى لا يستطيع ان يستغنى عنها ولو استأجر عشر خادمات ..

ومصطفى يصيح وهو متربع على الكنبة :

ـ هاتى قلة الميه يا بت يا فطومه ..

وتقفز عزيزة من جانبه ، وتجرى رغم ضعفها وتحمل قلة الماء ، وهى تصبح فى فطومة :

ـ خليكى انت يا بت ..

وفطومة لا تفهم شيئا .. انها فى العاشرة من عمرها ، لا تستطيع أن تفهم شيئا .. ويرتفع صوتها .. صـوتها المليء بالصحة والعافية .. لتغنى « يا امه القمر ع الباب » وتأكل رغيفا كاملا فى الوجبة .

وبدا مصطفى يتدخل فى عنف .. بدا يجبر زوجته على أن تتخلى عن اعمال البيت لفطومة .. ويجبرها ان تستريح .. تهدأ .. تراعى صحتها ..

وعزيزة لا تهدأ .. انها تبذل مجهودا .. مجهودا فى تحدى فطومة ..

ومجهودا فى ضبط اعصابها ، كلما سمعت فطومة تغنى ، وكلما رأتها تبتلع رغيفا فى كل وجبة ..

ومجهودا فى خدمة زوجها ، وفى اللحاق بطلباته قبل ان تلحقها فطومة ..

وساءت صحتها .. بدات نوبات الربو تتتابع .. وتزداد ضعفا .. وتزداد هزالا .. وتزداد اصفرارا .. ثم رقدت .. لم تعد تستطيع أن تقوم من الفراش .

ثم مات الجنين فى بطنها ..

ومصطفى كالمجنون .. يجرى الى الأطباء .. ويجرى ليشترى الدواء ..

وقلبه يتمزق فى لهفة على زوجته .. ويجلس بجانبها ويحتضن راسها ، ويهمس كأنه يبكى :

ـ شدى حيلك يا عزيزة ..

وعزيزة صامتة ، لا تنظر الى زوجها .. عيناها تتبعان فطومة .. وتئن وهى تراها تعطى زوجها المنشفة .. وتئن وهى تراها تطهو الطعام .. وتئن وهى تراها تكنس .. وتئن وهى تسمعها تغنى « يا امه القمر ع الباب » .. وتئن عندما تتخيلها تبتلع رغيفا كاملا فى الوجبة الواحدة ..

وتجمع انينها فى همسة ضعيفة ، كأنها تلفظ آخر انفاسها :

ـ مصطفى .. انت عايزنى اخف يا مصطفى ؟

ورد مصطفى بلهفة صادقة :

— ده انا ابيع عمرى علشانك يا عزيزة . .

واستطردت عزيزة فى همسها الضعيف :

— يسلم لى عمرك يا مصطفى . . انا عايزه حاجه واحده بس .

وانطلق مصطفى يقول :

— أامرى يا عزيزه . .

وهمست عزيزة وراسها يميل فوق الوسادة :

— اطرد فطومه !

وارتفعت الدهشة من عينى مصطفى ، ولكنه كتمها ، وقال فى استسلام :

— حاضر . .

ثم قام وصرخ فى فطومة :

— امشى يا بت ارجعى لأمك . . خلاص مش عايزينك . .

وابتسمت عزيزة . .

وبدات تسترد صحتها . .

صـــــــورة

كان الاسطى حنفى العجلاتى ، مخلوقا عجيبا . . ضخم الجثة . . بارز العضلات . . مستدير الراس . . منفوخ الخدين . . يحلق شعره بالموسى . . ويبتسم عن اسنان قوية ، يخيل اليك انه يستطيع ان ينهش بها لحم خروف حى . .

وكان عاوى خناق . . لم يكن يمر يوم الا ويتجمع سكان شارع بين الجنابن ، حول دكان الأسطى حنفى ليشاهدوه وهو يخوض خناقة . .

ولم يكن لخناقات الأسطى حنفى سبب معروف . . كان يكفى الا يعجبه وجه اى انسان ، حتى يركز عليه عينيه . . ويجمع انفاسه فى صدره ، ثم يبادله بعض كلمات تنتهى حتما بأن يرفع قبضته الضخمة ويسددها الى وجه خصمه . . وتقوم الخناقة . .

ولم يكن الأسطى حنفى يخرج من هذه الخناقات سالما . . كان دائما يبدو وهالة سوداء تحت أحدى عينيه . . ودمه ينزف من انفه . . اما ضحاياه فغالبا تحملهم عربات الاسعاف . .

ورغم ذلك لم يكن الأسطى حنفى شريرا . . ولا ساخطا . . كان دائما مبتسما ، مرحا ، طيب القلب . . كل ما هنالك انه كان يعتقد أن « الخناق صحة » . . وانه يتناول الخناقات كما يتناول الناس اقراص الفيتامينات . . شىء لتقوية العضلات ، وتنشيط شرايين القلب ، وتهدئة الاعصاب . .

وكانت له ميزة يعرفها كل أبناء الحى ، وهو انه لم يكن يستغل قوته ابدا ضد ضعيف .. كان ينتقى ضحاياه من الاقوياء او من مدعى القوة .. وكان يكفى ان تنظر الى وجه ضحيته ، وآثار الضرب فيه ، حتى لو لم تكن تعرفه ، او تعرف شيئا عنه ..

كان الأسطى حنفى محبوبا من سكان الحى .. الكبار يعرفون فيه طيبته .. والنساء يرهبنه ، فلا تستطيع واحدة منهن ان تمر امام دكانه ، وثوبها يكشف عن كتفها ، او وهى تتقصع فى مشيتها .. اذ لا تلبث صرخة الأسطى حنفى ان تلاحقها :

— ما تمشى كويس يا بت .. والا ايه ؟ !

وتعتدل البنت فى مشيتها ، وتغطى كتفها .. والأولاد يعبدونه ..

دكانه محاط دائما بكل الأولاد .. يستأجرون منه الدراجات ، والذى لا يستطيع دفع ايجار دراجة ، ينتظر حتى يمنحه الأسطى حنفى « دور » مجانا ..

كانوا يحتمون به حتى من آبائهم .. ويحملون له هدايا صغيرة يسرقونها من بيوتهم .. كعكة .. او شقة بطيخ .. وهو يعتبر نفسه حاميا لهم .. كل أولاد الحى فى رعايته ..

وحدث أن عيّن جندى جديد فى نقطة البوليس .. وحدث ان صدمه احد الأولاد صدمة عنيفة بالدراجة .. فأمسك الجندى بتلابيب الولد ، وصفعه على قفاه .. وصرخ الأسطى حنفى :

— سيبه يا شاويش .. ده مش ادك !

ورد الشاويش :

— اسكت انت مالكش دخل !

وارتفعت الدماء الى راس الأسطى حنفى المحلوق بالموسى . وتجمعت انفاسه فى صدره .. وهجم على الجندى وسدد قبضته القوية الى وجهه .. فطرحه ارضا ..

وقامت خناقة .. وسمع جنود البوليس المتجمعون فى « القسم » بأن زميلا لهم قد أهين .. فأسرعوا الى شارع بين الجنائن .. وتجمعوا حول الأسطى حنفى ، وجروه الى « القسم » وهناك اغلقوا عليه غرفة الحجز ، وانهالوا عليه ضربا بالشوم .. ووقع الاسطى حنفى على الارض .. والشوم ينهال عليه .. والجنود يصيحون فيه قائلين : قول انا « مرة » ..

ولم يقل الاسطى حنفى انه « مرة » .. ظل يحتمل الضربات وهو يعض بأسنانه على كف يده .. والدم يسيل من راسه المحلوق بالموسى .. وضلوعه تتحطم .. ولا يقول « آى » .. الى تدخل ضابط البوليس ، وفض الجنود عنه ، وسمح له بالانصراف ..

وقضى الأسطى حنفى يوما واحدا فى بيته ، ثم عاد الى دكانه وراسه ملفوف فى الشاش .. مبتسما ، فرحا طيب القلب .. وصاح اهل الحى :

— جرى ايه يا اسطى حنفى ؟ !

ورد حنفى وهو يضحك :

— طلعوا رجالة ولاد الايه .. ضربونى علقه انما تمام ..

ثم صاح فى جندى الداورية :

— اتفضل شاى يا شاويش .. وهات عشره معاك !!

وكان للأسطى حنفى دور غريب فى مظاهرات الطلبة عام ١٩٤٨ كان لا يكاد يلمح طلبة مدرسة العباسية الثانوية يسيرون فى مظاهرة حتى يغلق دكانه ، ويصحب المتظاهرين .. يسير بجانبهم .. على الرصيف .. لم يكن يهتف معهم .. ولا يشترك معهم فى تحطيم الفوانيس .. وربما كان لا يعلم شيئا عن سر تظاهرهم ، ولا يفهم معانى هتافهم .. كان كل ما يحسه ان الأولاد يصرخون ويحطمون الفوانيس .. ربما كانوا يلعبون .. وهو يعلم ان

البوليس لا يسمح بهذا اللعب وانه يضرب الاولاد .. وهو لا يسمح للبوليس بأن يضرب الاولاد ..

ويظل يسير بجانب المظاهرة صامتا ، الى ان يتصدى لها البوليس المسلح بالعصى .. وهنا يتحرك الأسطى حنفى .. يقذف بنفسه داخل الصفوف .. فاذا استطاع احد الجنود ان يلحق بطالب ، كان اسرع اليه منه ، وانهال على الجندى ضربا .. ثم جندى آخر .. وثالث .. ورابع ..

وكان الأسطى حنفى يخرج من هذه المظاهرات مضروبا اكثر من اى طالب .. ولكنه كان يعود سعيدا .. ويفتـح دكانه .. ويجلس على بابه ، وهو يمسح الدم الذى يسيل من انفه ، بمنديله الأحمر الملوث ببقع الزيت .. فيصيح كأنه يضحك :

ــ هم الأولاد دول مش حايطلوا لعب .. والا ايه ؟ !

ثم يرد على نفسه وضحكته تملأ وجهه : ايه !!

شىء غريب كان يحدث فى دكان الاسطى حنفى بين الحين والحين ..

كان يزوره فى فترات متباعدة ، رجل نحيل ، قصير اصفر الوجه تبرز عروقه من تحت جلده ، ويلبس جلبابا بلديا ، ويمسك فى يده خيزرانة .. شكله منفر .. يجعلك تبتعد عنه كأنه مريض بمرض معد .. وعيناه منتفختان كأنه مستيقظ لتوه بعد سهرة حشيش ، وشفتاه رفيعتان يعلوهما سواد كأنهما ملوثتان بالطين .. ولا يكاد الأسطى حنفى يرى هذا الشخص قادما ، حتى تختفى ابتسامته وتنطفىء لمعة عينيه .. وينكمش على نفسه .. ثم يقوم يستقبله ورأسه منكس .. ويقدم له مقعدا ، يجلس عليه الرجل فى كبرياء منفر ، وهو يقول :

ــ ازيك يا حنفى .. ازى الاحوال !!

ويرد عليه حنفى فى صوت خفيض :

ــ الله يسلمك يا معلم ..

ولا يرفع رأسه .. ولا يبتسم .. ولا يتكلم ..

حتى عندما يدخل الأولاد ليستأجروا الدراجات لا يبتسم كعادته .. ولا يقوم لهم .. ولا يحادثهم .. يتركهم يأخذون العجلات ، ثم يمد يده فى صمت يتناول قيمة الايجار ..

والرجل الاصفر جالس .. ساق فوق ساق .. ينظر بعينيه المنتفختين حوله ، ويبصق على الأرض كأنه يبصق على الحى كله .. وعلى من فيه .. وينقر على باب الدكان بطرف الخيزرانة التى يحملها فى يده .. ثم يطلب شيشة .. ويطلب قهوة .. ويطلب سجاير جولد فلاك ..

وحنفى جالس امامه ذليلا ، يلبى طلبات المعلم فى صمت ..

ثم يقول المعلم :

ــ قوم بينا يا حنفى ..

ويقوم حنفى منكسرا ، يغلق باب الدكان ، ثم يسير خلف المعلم .. بينه وبينه خطوات .. الرجل النحيل المريض المنفر .. يسير فى المقدمة مرفوع الرأس فى زهو ثقيل .. وحنفى بجثته الضخمة ، ورأسه المستدير يسير خلفه فى ذل ، كأنه غوريلا مقيدة بالسلاسل ، يقودها صاحبها ..

ولم يكن احد يعلم اين يذهب الأسطى حنفى كل ليلة .. انه لا يسكن فى الحى .. ولا احد يعلم اين يسكن .. كان البعض يقول انه يسكن فى حى الباطنية .. والبعض يقول انه يسكن فى الحمدى . ولكن لا احد يعرف على وجه التـأكيد .. ولم يكن الأسطى حنفى يصرح بعنوان سكنه ، وعندما سأله الأسطى فهمى المكوجى اين يسكن ، اجابه ولمعة التهديد فى عينيه :

ــ مش عاجبك الدكان والا أيه يا اسطى ؟ !

بل لم يكن احد يعلم شيئا عن حياة حنفى الخاصة .. لم نكن نعلم هل هو متزوج ام اعزب .. وهل عنده اولاد ام لا .. وسأله مرة عبد العزيز شكرى الطالب بمدرسة العباسية :

ــ انت ما عندكش اولاد يا أسطى حنفى ؟

وأجاب حنفى ضاحكا :

ــ شايف الاولاد دول كلهم ، يبقوا اولادى .. وانت كمان تبقى من اولادى .. خد العجله واتوكل !

ولم يكن احد يهتم كثيرا بحياة الأسطى حنفى الخاصة ، ولا بعنوان بيته .. كانت هذه الأسئلة تمر سريعا على السنة اهالى الحى ثم تختفى دون أن تعقب شيئا من الاهتمام .. فحنفى كان قطعة من الحى .. واخذه اهاله كما هو .. وعاشروه سنوات طويلة .. حتى اكتفوا بما يبدو منه أمامهم ..

كان كل ما يثير الاهتمام ، هو هذا الرجل المنفر الذى لا يعرفه احد ، والذى يتردد على حنفى فى فترات متباعدة .. وكنا نتساءل كيف يطيق الأسطى حنفى هذا الوجه المنفر ، وهو الذى لا يطيق اى خلقة منفرة ..

لماذا لا يضربه ؟ لماذا ينكس راسه امامه ؟ لماذا يسكت للبصقات التى يبصقها الرجل على ارض الشارع ، وكأنه يبصقها على الحى كله .. وعلى من فيه ..

ثم أين يذهبان عقب كل زيارة ؟ لم يكن احد يستطيع الجواب .

وكان الأسطى حنفى يعود فى اليوم التالى ، ويفتح دكانه .. مبتسما كعادته ، مرحا ، طيب القلب .. يبحث عن خناقة ..

وذات يوم .. كنا ــ ونحن اطفال الحى ــ متجمعين داخل دكان الاسطى حنفى .. وهو يمرح معنا كعادته .. يروى لنا قصص

خناقاته و « يتشعلق » ثلاثة منا فى ذراعه فيرفعنا دفعة واحدة .. فنضحك ..

وفجاة اطل علينا وجه الرجل النحيل الاصفر .. عيناه اكثر انتفاخا .. وشفتاه أكثر سوادا .. وعروقه اكثر بروزا من تحت جلده .. ويضرب بخيزرانته طرف جلبابه بعصبية .. وصاح فى صوت اجش :

ــ طلع العيال دول بره يا حنفى !!

وارتبك الاسطى حنفى .. وانطفأت اللمعة فى عينيه .. ونكس راسه .. وتفصد العرق من جبينه .. واندفعنا خارج الدكان هروبا من الوجه المنفر ..

ودفع الرجل ضلفة الدكان بطــرف خيزرانته فأغلقها .. والأسطى حنفى مسمر فى مكانه ..

ونظرنا من ثقب باب الدكان ..

ان الرجل النحيل يرفع خيزرانته وينهال بها على الأسطى حنفى على صدره .. على وجهه .. على راسه ..

والأسطى حنفى يهمس فى ذل وهو مسمر فى مكانه .

ــ عيب يا معلم .. ما يصحش يا معلم .. احنا فى الدكان يا معلم ..

والرجل لا يتكلم .. يجز على اسنانه .. وبريق مخيف ينطلق من عينيه .. ويرفع خيزرانته وينهال بها على الأسطى حنفى .. على صدره .. وعلى وجهه .. وعلى راسه ..

ثم تعب .. وقال وهو يلتقط انفاسه :

ــ ياللا بينا ..

وفتح باب الدكان .. وخرج الاثنان ..

وفى هذه المرة سار الأسطى حنفى فى المقدمة .. ذليلا ..

منكس الراس .. والرجل يسير خلفه مرفوع الراس فى كبرياء ثقيلة ، وهو يضرب طرف جلبابه بخيزرانته ..

واهالى الحى ينظرون اليهما فى صمت .. ودهشة ..

وما كادا يبتعدان حتى اذاع الأطفال قصة العلقة التى اخذها الاسطى حنفى من الرجل النحيل الاصفر .. وتجمع اهالى الحى فى حلقات يتكلمون .. كلاما كثيرا .. كلامهم تساؤل ، وتساؤلهم لا ينتهى الا الى تساؤل آخر ..

وفى الصباح التالى .. فوجئنا بدكان الاسطى حنفى مفتوحا على مصراعيه ، وهو خال من الدراجات ، ومن كل ما فيه .. وقال جندى البوليس ان حنفى جاء فى الليل ، وحمل كل ما فى دكانه ، وذهب ..

اختفى حنفى .. اختفى الى اليوم .. والى اليوم لا اعرف اين ذهب حنفى .. !

مغـــامرة

وصل الى باريس بعد ان قضى خمسة شهور يطوف دول اوروبا فى عمل شاق .. خمسة شهور كل يوم فيها كأنه مسمار يدق فى راسه .. لا يكاد ينتهى من مقابلة مدير مصنع ، حتى يدخل فى مناقشة مع لجنة من اللجان الاقتصادية ثم يخرج ليتناول الطعام على مائدة سفير .. ثم يطير الى بلد جديد ليقابل مديرا آخر ، ولجنة .. ويتناول الطعام على مائدة سفير !

وقرر ان يطير الى باريس .. ليستريح .. يستريح من المديرين واللجان ، والسفراء .. اربعة ايام فقط ، يستأنف بعدها جولته فى دول اوروبا ..

ولا يدرى لماذا اختار باريس .. ان جوها فى هذه الايام ، حار .. العن من جو القاهرة .. ثم انه يعلم ان الاضـــطرابات السياسية تسودها ..

ورغم ذلك اختار باريس .. ربما لان له فى باريس ذكريات قديمة .. ولأن اسم « باريس » لا يزال يثير فى خياله صورة للحياة المنطلقة .. وهو فى حاجة الى الانطلاق .. فى حاجة الى ان يعوض هذا الحرمان الطويل الذى عاش فيه .. وفى حاجة الى ان يروى عواطفه التى جفت واصبحت كعود من الخشب ينغز فى صدره .. يرويها ولو بجرعات من الوهم ..

وذهب الى فندق فى شارع سان جرمان بالحى اللاتينى ..

واختار هذا الفندق بالذات ، ليبتعد عن كل المظاهر الرسمية ، ليختفى عن اعين المديرين والسفراء الذين يلتقى بهم فى احياء باريس الفخمة .. و .. وليستعيد ذكريات الأيام القديمة .. عندما كان شابا .. وكانت حياته ضحكة عالية ، لا تكلفه شيئا الا شبابه ..

ووقف امام موظف الفندق .. اريد غرفة ..

ونظر اليه موظف الفندق بعينين ضيقتين ، ثم هز راسه وقال وبين شفتيه ابتسامة ماكرة : آسف .. ليس عندنا غرف خالية ..

ورد عليه فى توسل : ارجوك .. انى متعب .. ونحن فى آخر الليل .. ابحث لى عن اى غرفة عندكم .. اربعة ايام فقط ..

وهز الموظف راسه مرة ثانية : آسف ..

وعاد يقول وهو يضع يده فى جيبه : ارجوك ..

واخرج مائتى فرنك ودسها فى يد الموظف .. والتفت اصابع الموظف بسرعة حول الفرنكات ثم تظاهر بأنه يفكر ، وقال :

ـ عندى غرفة تقيم فيها آنسة ، ولكنها سافرت لقضاء اسبوع فى الريف .. تستطيع ان تقيم فيها .. ولكن اربعة ايام فقط .. وتستعد لتركها فى اى لحظة لو عادت الآنسة فجأة ..

ووافق .. ورافقه الموظف الى الغرفة .. ووقف يدير عينيه حوله ..

على المائدة مجموعة من الكتب والمجلات .. وعلى المشجب ثوب احمر معلق فى اهمال .. وامام المرآة بقايا من انبوبة معجون الأسنان .. ومشط .. وبعض مشابك الشعر .. و .. قميص نوم حريرى ملقى على الفراش .. وعطر هادىء ناعم يملأ انفه ..

وجلس على حافة الفراش وهو يبتسم .. وينظر حوله .. ثم قام وغير ثيابه .. ارتدى البيجاما .. وقبل ان يزيح غطاء السرير ..

سقطت عيناه مرة ثانية فوق قميص النوم .. فابتسم واحس انه يتعمد هذه الابتسامة كأنه يسخر بها مما يراه ، وازاح القميص .. واندس داخل الفراش .. وحاول ان ينام .. انه متعب .. وسينام .. ولكنه لم ينم .. رائحة العطر الهادىء الناعم تتسلل من فوق الوسادة وتملأ انفه .. وتدغدغ اعصابه وقام من الفراش .

خير له ان يفرغ حقيبته ، ويرتب ثيابه فى الدواليب .. لعله بعد ذلك ينام ..

ومد يده ليفتح الدولاب .. وتردد ..

احس ان ليس من حقه ان يفتح الدولاب .. احس كأنه يهم بأن يرتكب جريمة .. تجسس او سرقة .. وقاوم احساسه ، وفتح الدولاب ..

فى الدولاب ثوبان معلقان احدهما من الصوف الأبيض ، والآخر ثوب للمساء من الحرير منقوش بالورد .. وفى قاع الدولاب حذاء .. كعب عال .. عال جدا .. لابد ان صاحبته قصيرة .. وفوق الرف العلوى من الدولاب .. قبعة .. قبعة مضحكة ، دمها خفيف !

وازاح الثوبين ، وعلق بجانبهما البذلتين اللتين اخرجهما من حقيبته .. ووقف برهة يتطلع الى منظر البذلتين بجانب الثوبين وعاد يبتسم .. ان هذه هى المرة الأولى التى تتدلى فيها احدى بذلاته بجانب فستان .. انه يبدو كدولاب رجل متزوج .. لو كان متزوجا لكان هذا فستان زوجته ..

وسرح بخياله .. وحاول ان يفرغ باقى ما فى حقيبته من ثيابه .. ولكنه لم يفعل .. عاد واندس فى فراشه .. وخياله معه .. وخياله يجره الى بعيد .. ثم رفع رأسه والقى نظرة اخيرة على قميص النوم الذى القاه على حافة السرير .. واطفأ النور ..

ونام نوما هادئا .. نام مع خياله ..

وفتح عينيه فى اليوم التالى .. وما كاد يديرهما حوله .. حتى تذكر .. انه فى غرفة الآنسة .. ترى ما اسمها ؟ !

وقام يغتسل وهو يحس احساسا جارفا ، بأنه ليس وحده فى الغرفة .. معه انسان آخر .. صاحبة هذا القميص ، واحس بالارتباك .. احس كأن هذا القميص يراقبه ..

وبدا يغسل اسنانه .. انه يحرك الفرشاة فى رقة ورشاقة .. وعندما يقذف الماء من فيه ، يقذفه بهدوء وبلا صوت .. كأنها معه .. صاحبة القميص ..

وبدا يستعد للاستحمام .. وهم بأن يخلع ثيابه .. ولكنه شعر بنوع من الحياء .. ولم يخلع ثيابه فى الغرفة .. ليس امام القميص والثوب الأحمر المعلق .. دخل الحمام أولا ، واغلق الباب وراءه ، ثم خلع ثيابه ..

وخرج من الحمام ، ووقف وسط الغرفة لا يدرى ماذا يفعل أولا .. والقميص ملقى على حافة الفراش ، والثوب الأحمر معلق على المشجب ..

وبعد فترة بدأ يفرغ ما بقى فى حقيبته من ثياب .. وهم ان يفتح الدولاب .. وتردد .. تردد كثيرا .. خيل اليه انه لو فتحه فسيفاجأ بمنظر عجيب .. ربما وجد البذلتين .. تعانقان الثوبين .

وفتح الدولاب .. البذلتان والثوبان .. فى حالة هدوء !

وفتح الضلفة الأخرى .. ورأى مجموعة من الثياب الداخلية النسائية .. واحمر وجهه .. واغلق الضلفة بسرعة .

واخذ يرمى ثيابه الداخلية فى مكان آخر من الدولاب .. وهو تائه .. يعيش فى خياله .. ترى من هى ؟ صاحبة هذه الثياب ..

وقلب فى مجموعة المجلات الملقاة على المائدة .. انهـا كلها

مجلات ازياء .. طبعا .. فتاة فى باريس لا يهمها ان تقرأ الا مجلات الأزياء .. ولكن .. ما هذا .. نشرة البنك الأهلى الفرنسى .. وتعجب .. ماذا اتى بهذه النشرة الى هنا .. فى غرفة الآنسة !

وقلب فى مجموعة الكتب .. كتاب فى الاقتصاد .. وكتاب فى اعمال البنوك .. وكتاب لسيمون دى بوفوار .. وقصة لفرانسوار ساجان ..

ورفع حاجبيه فى دهشة .. ربما كانت موظفة فى احد البنوك .. وهى مثله تدرس الاقتصاد ، ولكن الاقتصاد لم يشغلها عن الأدب . والأزياء ، والجمال .. واحس أنه قريب منها .. قريب جدا ..

والقى بالكتب والمجلات .. وعاد ينظر حوله .. وفى المائدة درج .. هم ان يفتحه .. هذا تجسس .. انه ليس فى حاجة الى هذا الدرج .. فلماذا يفتحه .. انه لا يريد ان يتجسس .. انه يحس احساسا عميقا بأنه أمين على كل ما حوله .. كأن الآنسة تعرفه وعهدت اليه بغرفتها ، لثقتها فيه .. ثقتها فى امانته ..

وبدا يرتدى ثيابه .. وهو يفكر فى الدرج المغلق .. ويقاوم بكل أعصابه رغبته فى أن يفتحه .. وأكمل ارتداء ثيابه ..

ولكنه لا يستطيع ان يخرج من الغرفة .. شىء يبقيـه .. احساس أقوى منه .. وقاوم .. شد ساقيه ليخرج .. وفتح الباب .. ولكنه لم يخرج .. اندفع مرة واحدة ناحية الدرج ، وفتحه .. .. فى الدرج مجموعة من الخطابات ..

لا .. لن يقرأ الخطابات .. واقفل الدرج بسرعة ..

وخرج فى خطى سريعة .. خرج ليجلس على مقهى قريب من الفندق يتناول فيه افطاره .. ولكنه لا يستطيع ان يستريح على مقعده .. ولا يستطيع ان يتذوق ما يأكله .. واشترى جريدة ..

عيناه لا تستطيعان أن تتبعا السطور .. عيناه وراء خياله .. ومسح الجزمة .. وحاول أن يتشاغل بتتبع المارين .. ولكنه لا يستطيع ان يستقر .. لا يستطيع ان يهدأ .. وقام ..

سيذهب الى اللوفر .. ولكنه لم يذهب الى اللوفر .. وسار فى خطى سريعة عائدا الى الفندق .. وصعد الدرجات قفزا .. ودخل الغرفة كأنه يقتحمها .. وفتح الدرج فى عنف .. وأخرج مجموعة الخطابات وفتح الخطاب الأول وهو واقف ويده ترتعش .. وقراه « جانيت .. شيرى » .. وابتسم .

ان اسمها جانيت .. وجلس فى المقعد المريح يقرا الخطابات .. وعرف منها كل شىء .. عرف لون شعرها .. اصفر غامق .. ولون عينيها .. زرقاوان .. وعرف اين كانت الشهر الماضى .. واين هى الآن .. و .. و .. كل التفاصيل .. ادق التفاصيل .. والخطابات كلها خطابات حب .. حب كبير . وحبيبها اسمه ارمان .. ولكن هناك خطابات اخرى من حبيب سبق .. اسمه فيليب .. لقد كانت فى السابعة عشرة عندما احبت فيليب ، وهى الآن فى الخامسة والعشرين .. ولا تزال تحتفظ بخطاباته .. ترى هل احبت فيليب اكثر مما احبت ارمان ..

وتنبه .. الساعة وصلت الخامسة ، ولم يتناول غداءه بعد .. ولكنه لا يشعر بجوع .. لا يريد ان ياكل .. ومال برأسه الى الوراء ، واسندها على حافة المقعد .. واخذ يرسم صورة لأرمان ، وصورة لفيليب .. وصورة لها .. واحس انه مغتاظ من ارمان وفيليب .. لا يدرى لماذا .. ولكنه مغتاظ منهما ..

وفجأة قام من على مقعده ، واخذ يفتح كل الادراج فى الغرفة .. لابد ان لها صورة فى درج من هذه الادراج .. ووجد صورتها ..

وشهق .. انها جميلة .. اجمل من خياله .. ليس هذا الجمال الباريسى المائع .. ولكنه جمال هادىء .. ينبض بالحنان ، ويتدفق بالشخصية القوية .. الجمال الذى يبحث عنه طول عمره .. وامسك صورتها فى يده يحلق فيها .. لا يفعل شيئا الا أن يحلق فيها .. وهو هادىء .. والساعة التاسعة ..

لابد أن يأكل شيئا .. انه لم ياكل منذ الصباح .. واعاد الصورة داخل الدرج ، ولكنه عاد واخرجها ، واسندها على المرآة فوق مائدة الزينة .. ونظر اليها فى حنان ، وقال فى همس : سأعود حالا .. وخرج ليتناول عشاءه ..

وغسل هواء الليل راسه ورطب خياله .. فأفاق .. واخذ يضحك من نفسه .. هل جاء الى باريس ليجلس فى غرفة بفندق درجة ثانية يجرى بخياله وراء امراة لا يعرفها .. ما هذا الجنون .. لقد جاء الى باريس ليمرح ويضحك وينطلق .. اذن ، فليمرح ، ولينطلق .. وتناول عشاءه ، وشرب كأسا ..

ثم ذهب الى كباريه ، وشرب كأسا ، وكأسا اخرى .. وحاول ان يركز خياله فى الراقصات اللاتى يرقصن امامه .. حاول ان يختار منهن واحدة .. ولكن خياله عاد الى غرفته .. الى الصورة المسندة الى المرآة .. والخمر تلهب خياله اكثر ..

وجرى خارجا من الكباريه .. جرى الى غرفته .

وامسك بالصورة .. ونظر اليها كأنه يعتذر لها .. لأنه تأخر ثم اتجه الى السرير ، فرد عليه قميص النوم ، ووضع الصورة فى مكان فتحة الراس .. وابتسم .. ثم ضحك .. ثم ارتفعت ضحكاته .. كأنه جن .. ثم .. ارتمى فوق الصورة يقبلها .. ويقبلها اكثر .. والخمر تثقل راسه .. ونام .. والصورة تحت شفتيه ..

وقام فى الصباح التالى مصدعا .. ينظر الى الصورة الراقدة معه تحت شفتيه .. ويتعجب من نفسه .. لابد انه جن ..

خير له ان يترك هذه الغرفة .. وهذا الفندق .. انه لا يستطيع فيها ان يحس بحريته .. لا يستطيع ان يتحرر من خياله .. من جانيت ..

ولكنه لم يترك الغرفة .. عاد يقرأ الخطابات .. ثم فكر : لماذا لا يكتب لها خطابا هو الآخر .. سيكتب .. وامسك بورقة وقلم .. وكتب : « جانيت .. شيرى » .

« هل تتعجبين وأنا اناديك : شيرى .. لا تتعجبى .. انى أعرفك .. وأحبك كما احبك فيليب .. وكما احبك ارمان .. احبك بقدر حب الاثنين .. انى اعرف كل شىء عنك .. عشت فى كل لحظة من حياتك .. عشت معك فى عملك وفى فراشك .. واعرف كيف تتكلم عيناك .. واعرف طعم قبلاتك .. منذ بدات تتعودين القبل ان قبلتك وانت فى الخامسة والعشرين اطعم منها وانت فى السادسة عشرة .. اما انا فقد ذقت القبلتين .. عشت فيهما .. صدقينى .. لقد أحسست بكل قبلاتك فوق شفتى .. وقد كنت تغضبين من فيليب لأنه لا يفكر فى مستقبله .. انه يفكر فقط فى كتابة الشعر .. رغم انك تحبين الشعر .. وكنت تغضبين من أرمان لانه لا يتذوق كل الجمال انما يعطى كل نفسه لعمله فى البنك .. اما انا .. فلن تغضبى منى .. لانى مثلك .. احب البنوك واحب الشعر فى وقت واحد .. هل تعلمين كيف قضيت ليلتى السابقة .. معك .. و ..

وتوقف عن الكتابة .. القى القلم ..

ماذا يفعل هذا المجنون .. بأى حق يكتب لها .. وما هذا الهراء الذى يكتبه ؟ .

ورغم ذلك فهو لا يستطيع أن يصد جنونه .. وخرج من الغرفة .. واطل من فوق حاجز السلم وصاح فى الموظف :

ــ ارسل لى زجاجة نبيذ .. زجاجتين !

وشرب .. والخمر تطلق خياله اكثر .. انه يريدها .. يريد جانيت .. هاتوا لى جانيت ..

وقام يدور فى الغرفة كالمجنون .. ثم هجم على الدولاب وفتحه واخرج منه كل قطع الثياب الداخلية النسائية .. كل القطع الصغيرة الأنيقة .. واخذ يرصها على السرير .. ثم اخذ يطوحها فى الهواء .. ثم مزق قطعة منها بيديه .. وأفاق .. انه لن يقاوم مرة اخرى .. سينتظر جانيت الى ان تعود .

سينتظرها فى هدوء .. انه يحس أنها له .. يحس ان ما يحدث له هو تدبير من القدر ليجمعه بالمرأة التى يهبها حياته ..

ورتب قطع الثياب الداخلية فى الدولاب .. ثم نزل واشترى مجموعة اخرى من الثياب الداخلية النسائية .. مقاس جانيت بدلا من القطعة التى مزقها ..

وانتظر .. وفى اليوم الرابع لم يسافر .. بقى فى الغرفة .. انه لن يسافر الا بعد ان تعود جانيت .. وهو يخرج فى الصباح ، ويعود بعد الظهر .. ويخرج فى المساء ويعود هادئا .. لا يشرب .. ولا ينطلق .. كأى زوج مخلص وصورة جانيت مسندة الى المرآة .

وذهب فى اليوم السادس الى شارع الشانزليزيه ، وجلس فى مقهى الفوكيه .. وفجأة .. رآها تمر امامه .. جانيت .. وهب من فوق مقعده يجرى وراءها ، وهو يصيح : جانيت .. جانيت ..

وما كادت تلتفت اليه حتى اخذها بين ذراعيه .. وقبلها .. وقبلها .. وهى تصرخ .. وهو لا يسمع صراخها .. والناس يتجمعون ، وهو لا يرى الناس . ورفعت كفها وصفعته .. وانتبه .. ورفعت حقيبة يدها ، وضربته فوق رأسه .. وانتبه اكثر .. افاق .. ! ونظر اليها نظرة سريعة ، وقال بصوت خائف :

— بردون .

ثم اسرع وركب سيارة اجرة ، وعاد الى الفندق .. وجمع ثيابه بسرعة ، ودفع حسابه ، وخرج .. دون ان ينظر الى صورة جانيت ..

★★★

وفى المطار .. ارسل برقية الى مركز المؤسسة فى القاهرة ..

« انى متعب .. منحت نفسى اجازة عشرة ايام .. اجلت كل مواعيد العمل » .

وقضى العشرة الأيام فى سويسرا على شاطىء بحيرة لوزان .. ثم عاد يطير من بلد الى بلد ، ويقابل المديرين ، ويناقش اللجان ، ويتناول الطعام على موائد السفراء ..

بنت تبحث عن زوج

عزيزى احسان :

كنت دائما اعرف ما اريد .. وكانت لى الارادة لأحقق ما اريد .

وقد اردت ان احصل على شهادة جامعية .. وحصلت عليها واردت ان اعمل .. وعملت .. التحقت بوظيفة فى احدى الشركات .. ثم اردت ان اكبر وظيفتى .. وكبرت .. اصبح مرتبى اكثر من خمسين جنيها .. واصبح عمرى ثلاثين عاما .. وقد فعلت كل ذلك دون أن يعاوننى احد .. ابى مات وانا فى السادسة عشرة .. وأمى لم تكن تريد لى ان اتعلم او اشتغل .. كانت تريد أن تزوجنى كما زوجت أختى الأصغر منى .. ولكنى لم اكن كأختى .. اختى انسانة ضعيفة تتشبث بذيل امها .. وتحتاج دائما الي من يدللها ، ومن يرعاها ، ومن يفكر لها ويحدد لها طريق حياتها .. اما انا .. فلست من هذا الصنف الضعيف ، ولست فى حاجة الى من يدللنى او يرعانى .. انا انسانة قوية .. لا أؤمن بأنى لكى اكون امراة يجب أن اكون ضعيفة ..

ولم تكف أمى عن الالحاح علىّ بأن اتزوج .. وكنت اعلم انى فى حاجة الى الزواج .. على الأقل من الناحية الصحية ..

ولكنى لم اكن اريد ان اتزوج اى رجل .. كانت هناك صورة معينة فى راسى للرجل الذى أريده .. وكان علىّ ان انتظر الى ان اجده .. كما وجدت الشهادة الجامعية .. وكما وجدت الوظيفة

.. وليس معنى هذا انى لست عاطفية . بالعكس .. انا عاطفية جدا .. ولكنى لا اسمح ابدا لعاطفتى أن تغلب عقلى .. وعقلى يحدد لى ما اريده وعلى عاطفتى ان تنتظر .. وقد تعذبت كثيرا حتى اقنع عاطفتى بالانتظار .. ومرت علىّ ليالى كثيرة كنت اشعر فيها بوحدة قاتلة .. وحدة تكاد تدفعنى الى احضان اى شاب يصادفنى .. ليبدد وحدتى ولو لمدة ساعة .. ليهدىء من عواطفى المشتعلة ، وجسدى المحموم ... ولكن .. لا .. عقلى دائما اقوى من عاطفتى .. مهما تعذبت ومهما قاسيت عقلى دائما .. معى .

وعقلى يدير لى حياتى .. كل تفاصيل حياتى .. حتى الميزانية التى اصرف على اساسها مرتبى ، احسبها بالمليم ، وافكر فى كل مليم كأنى افكر فى عشرة جنيهات . وليس معنى هذا انى بخيلة .. ابدا انى احب الثياب الأنيقة ، واحب الذهاب الى السينما ، واحب ان ارقص .. احب ان اتمتع بالحياة .. وادفع ثمن متعتى .. ولكنى لست عبيطة .. لا ادفع فى شىء اكثر مما يستحقه .. ثم انى مقتنعة تماما بالتحويش منذ ان كان مرتبى خمسة عشر جنيها وانا احوش .. وارتفع رصيدى فى البنك . وكنت مقتنعة بأن هذا الرصيد هو ضمان حريتى .. فان الفقر يسلب الحرية .. اعدى اعداء الحرية هو الفقر .. فاذا اردت ان اعيش حرة — كما انا الآن فيجب أن يكون لى رصيد فى البنك .. ومن رصيدى اشتريت سيارة صغيرة .. ومن رصيدى استطعت ان اؤثث شقة صغيرة اسكن فيها .. وحدى ..

وكان لهذه الشقة قصة ..

فقد توفيت امى بعد ان تخرجت فى الجامعة بسنتين .. وانتقلت انا واخى الصغير لنعيش فى بيت خالتى .. وبدات خالتى تتدخل فى حياتى .. تسألنى عن كل كبيرة وصغيرة .. ثم بدات تلقى

الى اوامرها .. لا تتأخرى عن الساعة الثامنة مساء .. لا تتحدثى كثيرا فى التليفون .. و .. و .. وتحملتها سنتين ، لم يتسع عقلى خلالهما لاتصور انى استطيع أن اعيش وحيدة .. ولم استطع ان اقنع خالتى خلالهما بأن تعتبرنى كأنى اعيش معها فى بنسيون ، ما دمت اشاركها فى دفع الايجار وفى مصاريف البيت والطعام .. ثم بدات اتساءل : لماذا لا اقيم وحدى .. انا واخى الصغير .. انا حرة .. انا قوية .. انا اكسب عيشى .. انا لا اعتمد على احد .. واقتنع عقلى اخيرا .. اقتنع بسخافة التقاليد التى تحرم فتاة قادرة من ان تسكن فى شقة وحدها .. واقتنع بأن من حقى ان اسكن وحدى .. وسكنت وحدى .. انا واخى الصغير .. وفى بيتى راديو ، وبيك آب ، وتليفون .. بيتى مريح ، انيق ، دمه خفيف ..

ولم يؤثر سكناى وحدى فى حياتى .. انا كما انا .. وعقلى دائما معى ..

ولكنى لم ابدا قصتى بعد .. أن قصتى تبدأ عندما سافرت منذ عامين الى الاسكندرية لاقضى خمسة عشر يوما من اجازتى .. وازددت ، فى الاسكندرية احساسا بوحدتى .. هذا الاحساس الذى يعذبنى ، ويكوى عاطفتى المحرومة ..

وفى يوم لم اطق المكث فى البنسيون الذى اقيم فيه ، وخرجت فى الساعة الرابعة بعد الظهر الى الشاطىء وانا أزفر انفاسى .. والناس على الشاطىء يلعبون ، ويضحكون ، ويتبادلون الغزل .. وزفرات أنفاسى تشتد .. ثم تذكرت ان لى صديقة احتفظ برقم تليفونها .. لعلها تستطيع أن تبدد وحدتى .. وسرت على الشاطىء ابحث عن تليفون .. ورفعت راسى الى اول شاب صادفنى اسأله :

— من فضلك .. ما فيش تليفون هنا !

ورد فى هدوء :

ـ تعالى .

وسار بجانبى .. ونظرت اليه مرة اخرى .. ان وجهه نحيل وشفتاه رقيقتان .. وعيناه تملان وجهه .. وشعره اسود يطير مع الهواء .. انه جميل .. وقد كنت فى حالة تجعلنى اتعمد البحث عن الجمال فى وجوه الرجال ..

وقال لى وهو يسير بجانبى :

ـ دلوقت حتــلاقى طابور ، واقف قــدام التليفون .. انها ولا يهمك ..

وسار بى الى كشك الاسعاف .. ووجدت الطابور الطويل فعلا .. ولكنه اخذ منى نمرة التليفون .. ثم وجدته يدخل الى الكشك ويحادث رجل الاسعاف وأخذ رجل الاسعاف السماعة من يد آخر المتحدثين ، وطلب لى نمرتى ..

النمرة لا ترد ..

وعاد الىّ محمود .. عاد يسير بجانبى .. ولم اعترض .. سرت معه على الشاطىء وبدانا نتحدث .. وانا اسائل عقلى الى اى حد استطيع ان استمر فى الحديث .. وعقلى لا يجيب .. عقلى مجهد ، تعب .. عقلى فى اجازة ..

ودعانى محمود لتناول الشاى ..

صرخ كالطفل :

ـ نروح ناخد الشاى فى المنتزه ..

ووافقت .. وتركنا الشاطىء الى حيث تقف سيارتى .. ورايت عينى محمود تزدادان اتساعا وهو ينظر الى السيارة وقال كأنه يشهق :

ـ انتى عندك عربيه ؟

وجلس بجانبى وهــو يتحسس اجزاء الســيارة ، ويعبث

بمفاتيحها ، ويسألنى عنها .. بكام ؟ ومنين ؟ وبتاخد كام جالون ؟ و .. و .. وانا سعيدة بفرحته بسيارتى .. خيل الىّ انى لم افرح بهذه السيارة الا عندما فرح بها محمود ..

وتركنى محمود بعد ان تناولنا الشاى .. وبعد ان تواعدنا على اللقاء فى اليوم التالى .. تركنى وانا نادمة ..

لماذا لم ادعه يأخذنى لنتناول العشاء سويا ..

لماذا لم ادعه يقبلنى .. لماذا افرض على نفسى هذه الوحدة .. هذا العذاب .. هذا الحرمان .. على الأقل يجب ان اراعى صحتى ..

وقد عرفت فيما بعد أن محمود لم يدعنى يومها الى العشاء لأنه لم يكن يملك ثمن العشاء .. انه فقير .. موظف فى بنك ..

وفقره لم يمنعنى من ان استمر معه .. وان اتمادى .. ولم يكن محمود اول شاب يقبلنى .. لقد جربت شفتاى القبلات من قبل .. فى حدود معقولة .. وفقط لأحافظ على حالتى الصحية ولكنى لم اكن اسمح بأن تنتهى بى هذه القبلات الى الارتباط بعلاقة مستديمة منظمة .. لم اكن اسمح لنفسى ابدا بالارتباط الا بالرجل الذى اريد ان اتزوجه .. والذين مروا فى حياتى لم يكن بينهم رجل اريده زوجا .. ما عدا محمود ..

لقد ارتبطت به .. تطورت علاقتنا بسرعة عجيبة .. ورأيت فى نفسى فتاة لم اكن اعرفها .. واذكر فى هذه الفترة حادثة صغيرة تدل على مدى التغير الذى اصابنى .

كنا ما زلنا فى الاسكندرية .. فى الأسابيع الأولى من علاقاتنا .. ووقفنا بسيارتى ذات مساء فى شارع قريب من حديقة النزهة وتبادلنا القبلات .. ثم اتفقنا ان نذهب لنتناول العشاء فى مطعم « باسترودس » .. وكل منا يدفع حسابه ..

وعندما خرجنا الى الشوارع المضيئة .. رايت وجه محمود « ملغمط » بأحمر شفتى .. ولم اتكلم .. لم الفت نظره .. احسست بزهو عجيب وانا ارى بصمات شفتى فوق هذا الوجه الجميل ..

ودخلنا المطعم .. واحسست بزهو اكبر وانا ارى الناس كلها تتطلع فى وجه محمود .. ثم تتطلع الىّ .. وتبتسم .. كنت كأنى اصرخ فى الناس فخورة .. هذه بصمات شفتى .. وهذا الوجه كنت اقبله ، وكان يقبلنى ..!

وهمس محمود :

ـ الناس بتبص كده ليه ؟

وأجبته وانا اخفى ضحكتى :

ـ وشك كله روج !

واخرج منديله ومسح آثار شفتى بسرعة وارتباك ..

الى هذا الحد فقدت عقلى .. ولكن .. هل اتزوجه .. هل اتزوج محمود ؟ لا ...

عقلى يقول لى : لا ، ويصر .. لا .. لا .. انه ليس الرجل الذى اريده .. ليس الرجل الذى وضعته فى ميزانية حياتى التى حددتها من صغرى .. انه فقير .. ولا يحمل الا شهادة متوسطة .. وهو اصغر منى بسنه .. ولا يطيق حمل المسئولية .. انه حتى لا يحمل مسئولية نفسه .. لا يفكر فى مستقبله ، ولا يريد ان يكبر .. انه فقط شاب جميل .. مسل .. حبوب !

ومضى عامان وعلاقتنا مستمرة .. ولم أعترف بينى وبين نفسى خلال هذين العامين ان ما بينى وبين محمود هو حب .. ابدا .. انها مجرد علاقة مريحة .. صحية !

اثنان .. يرتاح احدهما الى الآخر .. ويحتاج كل منهما الى الآخر ..

وقد تحدثنا فى الزواج عدة مرات خلال هذين العامين ..

وكنت أحس ان محمود يريد أن يصل بالحديث الى ان يعرض علىّ الزواج .. ولكنى كنت أفوت عليه هدفه .. وكنت استطيع دائما ان اقنعه بأن طريقنا هو ان يكبر كل منا فى عمله .. وان نحتفظ بعلاقتنا كما هى .. مريحة ، وصحية ! .. وكنت اشعر بنوع من القسوة وانا اصد امله .. ولكن ماذا افعل ؟ انه ليس الرجل الذى اريده زوجا .

ثم ... سافرت مع بعض موظفى الشركة فى بعثة تدريبية الى المانيا ، مدتها ثلاثة شهور ... كنت فرحة .. فرحة لانى مسافرة ... وفرحة لأن هذا السفر سيعطينى فرصة لأجدد علاقتى بمحمود .. اعود اليه بتفكير جديد ، واحساس جديد .

وعدت .. عدت وشوقى الى محمود يكاد يقذفنى من الطائرة ..

ولكن محمود تغير .. وقال لى ان امه ماتت ..

ولكن .. كان فيه شىء آخر اكثر من حزنه على امه .. انه اصبح فاترا .. واصبحت مواعيد لقائه متباعدة .. بل اصبح يتأخر فى موعده .. ثم .. لم يعد فرحا بسيارتى .. حرت فيه ..

وذات يوم حدثنى عن ابنة خالته .. حديثا عابرا مبتورا .. ولم يكن قد حدثنى عنها من قبل .. ثم تكرر حديثه عن ابنة خالته ، دون أن القى بالا الى حديثه عنها .. وحيرتى فيه تشتد .. وحاجتى اليه تزداد ..

انه لم يعد مريحا .. ولا صحيا .. انه يتركنى اتعذب .. انى انام نوما قلقا .. وأذهب الى عملى شاردة .. هل احبه ؟ .. انى ارفض أن اعترف بهذا الحب .. انه ليس الرجل الذى يجب أن احبه .. ان الرجل الذى يجب ان احبه ، هو الرجل الذى يجب ان اتزوجه وانا لا اريد ان اتزوج محمود .. عقلى لا يرضى ان اتزوجه ..

ولكنى فقدت عقلى .. وقلت ، وأنا احس لأول مرة بضعفى .. ضعف ارادتى :

— محمود .. تعال نتجوز ! .

وكنت أعتقد ان هذا هو آخر المطاف .. انى سلمت بكل شىء .. وستعود حياتى بعد ذلك مريحة .. وصحية ! ..

ولكن محمود نكس راسه ، وقال فى صوت خافت :

— انا خطبت يا منى ! ؟

وشهقت .. وشهقتى تخرج من عينى :

— خطبت مين ؟

وقال فى همس :

— بنت خالتى !!

— مش ممكن .. مستحيل .. ما تقدرش .. انت خاين .. لازم تتجوزنى انا .. انا ..

وبترت صرختى .. ولم انتظر جوابه .. جريت من امامه .. وركبت سيارتى التى اشتريتها من رصيدى .. وذهبت الى بيتى الأنيق الذى اثثته من رصيدى ..

وجلست أبكى ! .. هل تدرى كيف أصبحت ؟ ! كما كنت ..

افكر بعقلى .. وأرسم حياتى بارادتى .. ورصيدى يرتفع فى البنك .. وأبحث عن الزوج الذى اريده .. وسأجده .. لقد حققت كل ما أردته .. فلماذا لا احقق هذا الزواج الذى اريده .. كل ما هنالك انى اصبحت فى الثلاثين من عمرى .. وشىء جاف كعود الخشب ينغز فى صدرى .. ولا ابتسم كثيرا ..

لا أدرى لماذا لا أبتسم كثيرا .. لا يهم .. عقلى لا يزال معى !!

زوجـــة تبحث عن عمـــل

لم يكن صديقى راسماليا ، ولا اشتراكيا ..

انه لم يشغل نفسه ابدا بتفسير المجتمع الذى يعيش فيه .. ولا بتفسير نوع العمل الذى يقوم به .. بل انه لم يكن يقرا المقالات والبحوث السياسية والاجتماعية التى تنشرها الصحف .. كان لا يطيق المقالات الطويلة الجادة .. ويكتفى عندما يقرأ بالموضوعات الخفيفة .. انه يقرأ ليستريح .. ليتسلى .. لا ليدرس ..

وكان الشىء الوحيد الذى يؤمن به ، هو .. العمل .. العمل .. الشريف ..

وكان مطمئنا دائما الى المستقبل ، لأنه يستطيع دائما ان يعمل .. ولأنه يؤمن بكفاءته فى عمله .. والرجل الكفء لا يعجز عن العمل مهما تغيرت صورة المجتمع من حوله .. وقد بدأ صغيرا ..

دخله لا يزيد عن خمسة عشر جنيها .. ثم بدأ يكبر .. بعمله .. ارتفع دخله الى خمسين جنيها .. الى مائة .. الى مائتين .. الى ثلاثمائة ..

ولم يتوقف لحظة ليتساءل : لماذا ارتفع دخله ؟ هل ارتفع لأنه يعمل فى مجتمع رأسمالى ؟ .. وهل لو تغيرت صورة المجتمع تستمر زيادة دخله ؟

لم تكن هذه الأسئلة تخطر على باله ..

لقد ارتفع دخله لانه يعمل .. هذا هو كل شىء ..

و .. وفوجىء بالقوانين الاشتراكية الجديدة ..

واكتشف ان دخله قد نقص .. وصل الى مائة وعشرين جنيها .. خالص الضريبة .

وتنبه .. تنبه الى ان صورة المجتمع قد تغيرت .. وتنبه الى ان دخله كان يرتفع لا لمجرد انه يعمل ، بل لانه كان يعمل فى مجتمع له صورة معينة .. مجتمع راسمالى .. وبما ان الصورة قد تغيرت ، فان عمله لن يؤدى الى نفس الزيادة فى الدخل ..

★★★

ورغم هذا فان هناك شيئا لم يتغير فى الصورتين ، وهو العمل ..

مبدأ العمل .. العمل الشريف .. ولم يخف ..

ظل مطمئنا كما كان ، يستمد اطمئنانه من ثقته فى كفاءته ، ومن قدرته على العمل .. ولكنه كان يعلم ان شيئا يجب ان يتغير فى حياته .. يجب أن ينظم حياته فى حدود دخله الجديد ..

وابتسم عندما تذكر أنه بدأ حياته ودخله لا يزيد عن خمسة عشر جنيها .. لقد كان ايامها متزوجا . وانجب ابنته الكبيرة ، ثم انجب ابنته الثانية بعد ان ارتفع دخله الى ثلاثين جنيها ، وانجب ولده ودخله خمسون جنيها .. وكان ايامها سعيدا .. لم يكن ينقصه او ينقص زوجته واولاده شىء ..

ولم تزد مسؤولياته الخاصة او العائلية بعد ذلك شيئا ..

انه الى الآن زوج وأب لثلاثة أولاد .. ولكنه اصبح ينفق اكثر من ثلاثمائة جنيه فى الشهر .. على بيته وعائلته ..

أين تذهب هذه الزيادة الكبيرة فى النفقات ؟

لقد انتقل الى شقة كبيرة .. ايجارها مرتفع .. كان يسكن فى شقة بسبعة جنيهات ، والآن يسكن فى شقة ايجارها خمسة وثلاثون جنيها !

ولكن الزيادة فى ايجار الشقة لا تستغرق هذه الزيادة الكبيرة فى مصروفه الشهرى .. ربما كان الغلاء .. ان مستوى الأسعار ارتفع عما كان عليه منذ خمسة عشر عاما .. ولكن .. لا يمكن ان تصل نسبة زيادة الأسعار ، الى نسبة الزيادة فى مصروفه !

★★★

وبدأ يراجع كل قرش يصرفه .. واكتشف شيئا هاما ..

اكتشف أن معظم مصروفه يضيع فى اشياء صغيرة .. ان هذه الأشياء الصغيرة هى سر الزيادة الكبيرة من نفقاته الخاصة .. سيارة الأولاد مثلا ..

ما حاجته الى سيارتين .. سيارة له .. وسيارة لزوجته والأولاد .. ان هذه السيارة الثانية تكلفه حوالى اربعين جنيها فى الشهر .. مرتب السائق وايجار الجاراج ، وثمن البنزين .. انه يستطيع ان يوفر هذا المبلغ .. ومن صالح الاولاد ان يتعودوا على ركوب الاتوبيس والتروللى باص .. ان المجتمع الجديد لا يحتمل الأولاد المدللين .. ثم هو نفسه نشأ وكبر ونجح ، دون ان يكون له سيارة تنقله من البيت الى المدرسة ، وتذهب به الى السينما .. وربما كان هذا هو أحد دوافع نجاحه .. ولكن زوجته تخاف على الأولاد من الطريق ، رغم انهم كبروا .. اكبرهم فى الثانية عشرة من عمره .. لماذا الخوف .. هى نفسها لم يكن ابوها يخاف عليها من الطريق .. وهو نفسه كان يجرى فى الشوارع منذ ان كان فى السادسة من عمره .. فلماذا الخوف ؟ !

ونادى زوجته وأولاده ، واعلنهم أنه قرر الاستغناء عن السيارة الثانية .. السيارة الكبيرة .. وسيكتفى بالسيارة الصغيرة . يسوقها بنفسه .

وفرح الأولاد .. انهم سيتحررون .. وابتسمت الزوجة ..

ثم اخذ يراجع بقية المصروف .. عدد القمصان التى يشتريها .. وحساب الملابس التى تشتريها زوجته .. وقسط التأمين .. لقد أمن على حياته لصالح اولاده بمبلغ كبير .. انه يستطيع ان يختصر نصف هذا المبلغ ، دون ان يحدث شىء .. و .. و .. واعجب شىء اكتشفه انه يدفع فى الشهر ثلاثة جنيهات ونصف ثمنا للكلونيا التى يستعملها بعد حلاقة ذقنه .. انه يستعمل كولونيا فرنسية ، ثمن الزجاجة منها سبعة جنيهات ، والزجاجة تكفيه شهرين .. وابتسم .. ضحك من نفسه ، وقرر ان يستعمل كولونيا محلية ..

***

وتعجب وهو يكتشف كل هذه النفقات التى تضيع على اشياء صغيرة ..

تساءل : كيف انقاد الى هذا التبذير .. انها المظاهر ..

والمجتمع الذى كان يعيش فيه ، كان يؤمن بالمظاهر .. كان الرجل الذى يضع فوق صدره كرافتة « سولكا » له قيمة غير قيمة الرجل الذى يضع على صدره كرافتة « ماركة الشماعة » .. لا لشىء الا لأن الأول يضع كرافتة « سولكا » .. والرجل الذى يسهر فى سميراميس له قيمة غير قيمة الرجل الذى يسهر فى بيته .. والرجل الذى يركب سيارة كاديلاك قيمته اعلى من الرجل الذى يركب سيارة فيات .. وكانت هذه المظاهر هى بطاقات الوصول .. هى الطريق الى الجاه والمنصب والسلطان .

وقد انقاد لها دون أن يدرى . انقاد لها تحت تأثير المجتمع الذى يحيط به ..

ولكن .. لا شك أن المجتمع الجديد لن يتأثر بهذه المظاهر .. انه مجتمع يؤمن بالعمل .. ويقيس الرجل بعمله .. لا بنوع رباط

عنقه ، ولا بعدد الولائم التى يقيمها .. لن يكون الرجل الذى يركب سيارة « كاديلاك » اكثر نجاحا — فى نظر المجتمع الجديد — من الرجل الذى يركب سيارة « فيات » ..

وازداد اطمئنانا ، وثقة بنفسه ، وبمستقبله .

واستطاع فى الشهر الاول أن يوفر نصف نفقاته : دون أن يستغنى عن شىء أساسى فى حياته .. ودون ان يحرم الأولاد من الذهاب الى السينما كل أسبوع ..

ثم .. حدث شىء آخر .. قالت له زوجته وهى تبتسم :

— قررت أن اشتغل ..

ودهش ..

***

لقد مضى على زواجهما ثلاثة عشر عاما ، لم تحاول زوجته خلالها ان تبحث لنفسها عن عمل .. لم تفكر فى العمل .. لم يناقشا ابدا هذا الموضوع ..

والآن .. تريد ان تعمل ! وانتظر ان يحس بالثورة على اقتراح زوجته ..

ولكنه لم يحس بمهانة ، ولا بذل .. اكتشف أن اقتراح زوجته ليس له علاقة بكرامته ، ولا بشرفه ، ولا بمكانته .. واستقبله بهدوء ..

وناقش نفسه .. واكتشف حقيقة كانت غائبة عنه .

اكتشف ان زوجته كانت دائما تعمل ..

عند بدء زواجهما كانت تتولى بنفسها اعمال البيت .. كانت هى التى تطبخ .. وهى التى تكنس .. وهى التى تربى الأولاد .. وبعد أن نجح .. واغتنى .. واستطاع ان يستخدم طباخا و « سفرجى » ومربية اطفال .. أصبح لزوجته عمل آخر ..

واصبحت جزءا من المظهر الذى يتطلبه المجتمع الذى كان يعيش فيه .. كانت تصحبه الى المآدب التى يقيمها .. و .. و ..

والآن .. البيت ليس فى حاجة الى كل وقتها .. كبر الأولاد . ولا يزال يستطيع أن يدفع مرتب الطباخ والسفرجى .. كما ان المجتمع لم يعد فى حاجة الى هذه المظاهر التى تشـــترك فيها الزوجات .. انه يستطيع ان يعمل دون حاجة الى ان يصحب زوجته الى المآدب ، ودون حاجة الى ان تقيم له المآدب ..

ان من حقها ان تبحث عن عمل آخر .. ولكن .. هل كان يسمح لها بالعمل لو لم تتغير صورة المجتمع ؟

بل .. هل كانت زوجته تفكر فى أن تعمل ؟ .. لا يدرى ..

★★★

ولكنه يحس ان شيئا تغير فى منطقه .. وفى احاسيسه .. ربما لو ظل المجتمع كما كان لاعتبر خروج زوجته الى العمل اهانة تمس كرامته .. فضيحة .. جريمة خلقية .. ولكنه الآن لا يحس بشىء من هذا .. تغيرت تقاليده .. تغير منطقه .. اتخذت الكرامة والعزة والشرف معانى جديدة .. ربما كان السبب اقتصاديا ..

فقد كان من قبل يكسب ما يكفى لكل ما تريده زوجته . اما الآن فليس كل ما تريده زوجته يستطيع أن يشتريه لها .. لقد اتفق معها على ان تشترى ثوبين فقط فى الصيف .. لو ارادت ثوبا ثالثا لما استطاع أن يشتريه لها ..

ــ لا .. ليس السبب الاقتصادى هو كل شىء .. انه تأثير المجتمع الجديد ..

انها التقاليد الجديدة ، تنطلق مع القوانين الجديد ..

انه يحس من حديث زوجته انها تريد ان تتباهى بأنها امرأة عاملة .. تماما كما كانت تتباهى من قبل بأنها بنت ذوات ..

وابتسم راضيا .. وسألها فى حنان :

ــ حا تشتغلى ايه ؟

قالت فى مرح :

ــ أى حاجه .. سكرتيره .. بياعه .. فى مصنع .. فى شركه .. اى حاجه .. ما تنساش انى واخده التوجيهيه ..

قال وابتسامته تتسع :

ــ مش حاتخدى اكتر من خمستاشر جنيه ..

قالت كأنها عادت طفلة ، كأنها تبدأ الحياة من جديد :

ــ وماله .. بينفعوا .

قال :

ــ ينفعوا فى ايه ؟

قالت :

ــ اشترى بيهم شوية حاجات صغيره ..

وضحك ..

ان المرأة لا تستطيع ابدا أن تستغنى عن الأشياء الصغيرة ..

★★★

وجاءتنى الزوجة فى الأسبوع الماضى .. لأساعدها فى البحث عن عمل ..

رجـــل يبحث عن ســـيارة

كان يضع كل قرش فى الشركة الصناعية الكبرى التى يملكها فى الاسكندرية حتى سياراته .. المخصصة له .. والسيارة المخصصة لأولاده .. والسيارة المخصصة لزوجته .. والسيارة المخصصة لأمه .. كل هذه السيارات كانت مسجلة باسم الشركة .

وصدر قانون التأميم .. أممت الشركة .. وأمم المصنع ..

وعندما بلغه الخبر ، شعر بخوف مفاجىء .. خوف كبير .. لم يفكر فى أمواله .. ولم يفكر فى مستقبله .. لم يفكر ابدا .. الخوف اشعل تفكيره .. ورعدة خفيفة تسرى فى أعصابه ، وتهز قلبه .

مم يخاف .. انه لا يدرى .. لعله يخاف من العمال .. عمال مصنعه .. لقد كان دائما عنيفا مع عماله .. كان يأخذ منهم ما يريد .. ويعطيهم ما يريد .. كان هو الارادة المسيطرة على حياتهم .. ولم يستطع واحدمنهم أن يفلت من ارادته .. لم يستطع واحد منهم ان يأخذ حقا يطالب به ، او حقا يكفله له القانون .. لقد كان هو الحق الوحيد داخل المصنع .. وكان دائما أقوى من القانون .. وفى خلال السنوات الطويلة ثار العمال ضده عدة مرات ، ولكنه كان دائما يستطيع أن يخضع ثورتهم ويشرد زعماءهم ، ويعيدهم كالنعاج ليصطفوا امام الآلة .

لعل عمال المصنع ينتقمون منه اليوم .. لعلهم الآن — بعد أن

قرأوا خبر التأميم — فى طريقهم الى بيته ليضربوه بالطوب .. لينهبوا تحفه .. ليقتلوه ..

وجرى كالمجنون فى اتجاه البيت ، يغلق النوافذ والأبواب . ثم ارتمى على مقعد كبير يلهث .. ورأسه الضخم الأشيب بين يديه .. وكرشه العريض ملقى فوق ساقيه .. ورعدة الخوف تسرى فى عروقه وتشل تفكيره ..

ومضى اليوم ..

ويوم آخر ..

العمال لم يأتوا .. لم يضربوا البيت بالطوب .. حتى هتافاتهم التى يسمعها فى الراديو لا تطالب براسه ، ولا تنادى بالانتقام منه .. وهدأ قليلا ..

طبعا .. ماذا يهم العمال منه اليوم .. ماذا يصنعون براسه ليطالبوا بها .. لقد اخذوا ما هو أهم من رأسه .. اخذوا كل شىء ! ونسيه ..

انه لا يملك شيئا .. كل مليم وضعه فى المصنع استولت عليه الدولة .. أخذوا كل شىء .. ولم يفكر لأول وهلة فى طريقه لاستعادة ملاليمه .. ملايينه .. ولكنه فكر فى كيف يعيش .. من اين يصرف .. من اين يدفع اجر الطباخ والسفرجى ، ومربية الأطفال السويسرية .. ان الحكومة أعلنت أنها سترد أمواله فى سندات لها أرباح .. ولكن هناك اجراءات معقدة ووقت طويل قبل أن تقدر ممتلكات الشركة ، ويتسلم السندات ويقبض الأرباح .. ومن اين يعيش الى أن يقبض ..

وابتسم ابتسامة مسكينة .. الحمد لله ..

ان لزوجته رصيدا خاصا فى البنك ..

ولوت الزوجة شفتيها فى سخط .. نعم سنصرف من رصيدى الخاص !!

واتسعت عيناه فجاة .. لقد تذكر شيئا آخر .. السيارة .. السيارات ..

انها كلها مسجلة باسم المصنع .. كلها شـملها التأميم واستولت عليها الدولة .. وهو لا يستطيع ان يعيش بلا سيارة .. لا يستطيع ان يسير فى الشارع على قدميه ، ويتشعلق فى الأتوبيسات وعربات الترام .. ان السيارة هى قدماه !

واغرورقت عيناه بالدموع .

واحس بشىء يتلوى فى صدره .. لقد سجل كل السيارات باسم المصنع ، لا حبا فى المصنع ، ولكن تهربا من الضرائب .. فنفقات السيارة واستهلاكها كانت تقيد ضمن ميزانية المصنع ، فتزيد النفقات ، وتقل الضرائب .. ولو كان يعلم .. لو كان يعلم ان هذا اليوم سيأتى .. لما حاول التهرب من الضرائب .. واحتفظ بالسيارة .. وهو يريد سيارة .. الآن ..

★★★

وتذكر أنه منذ شهور قليلة اشترى سيارة واهداها لمدير مصنعه .. لقد عاش هذا المدير معه سنوات طويلة .. التقطه من بين صغار الموظفين ونفخ فيه .. ظل ينفخ فيه حتى جعل منه مديرا للمصنع .. وقد كان دائما ساعده الأيمن .. لا .. كان دلدولا له .. وكان الأداة التى ينفذ بها اوامره .. الاداة التى يتحايل بها على قوانين الضرائب ، وقوانين العمال ، وقوانين الاستيراد والتصدير .

ورفع سماعة التليفون ليتحدث مع المدير .. ووضع بين شفتيه ضحكة كبيرة كأن شيئا لا يهمه .. وضغط على نبرات صوته حتى

لا يبدو مرتعشا .. وتكلم بلهجته القديمة ، كأنه لا يزال صاحب المصنع :

— وحياتك تبعت لى العربيه بتاعتك يومين ، لغاية ما نشوف الجماعه ناويين يعملوا ايه ..

ورد المدير فى صوت جاف .. صوت جديد لم يتعود سماعه :

— حاضر ..

وانهى المدير المحادثة بسرعة .. كأنه يهرب .. وانتظر الرجل ان تأتى له سيارة المدير .. مضى اليوم ولم تأت ..

وحاول ان يتصل به مرة اخرى .. مش موجود ..

ومرة ثانية .. وثالثة .. مش موجود .. واقنع الرجل نفسه ان المدير لابد ان يكون مشغولا .. هذه القوانين الجديدة تشغل اى مدير ..

ثم .. عثر عليه اخيرا .. وحادثه بصوت اكثر رقة ..

— يعنى ما بعتش العربيه يا محمد بيه !

ورد المدير فى صوت خشن :

— والله انا ما اقدرش استغنى عن العربية ..

والقى سماعة التلفون بعنف ..

★★★

وذهل الرجل .. وارتفع فى صدره صراخ حاد .. هذا السافل .. هذا المنحط .. كيف ينسى نعمتى عليه .. كيف ينسى انى انا الذى اشتريت له السيارة .. من مالى .. انا الذى علمته كيف يركب سيارة .. علمته كيف يكون بنى آدم .. انا الذى خلقته ..

ولكنه سافل .. منحط .. نمرود .. وقح ..

وكاد ان يجهش بالبكاء ولكنه تمالك نفسه ..

هذا هو حال مثل هؤلاء الرجال .. المنافقين .. لقد كان

ينافقه ، وكان ينحنى امامه .. ولابد انه ينافق الآن السـيد الجديد ، وينحنى امامه .. ولقد كان دائما يعلم انه منافق ، فلماذا ينتظر منه أن يكون شهما .. وأن يكون رجلا .. مثل هؤلاء المنافقين ، لا يمكن ابدا ان يكونوا رجالا ..

واسودت الدنيا فى عينيه .. خيل اليه ان كل النـاس منافقون ..

خيل اليه انه اصبح وحده .. لا صديق .. ولا معين .. لا شىء .. لقد كان يساوى بقدر ما يملكه من مال .. وعندما فقد ماله لم يعد يساوى شيئا ..

وتهدلت وجنتاه .. وتهدلت جفونه .. ونقص وزنه بسرعة مخيفة .. ورقبته أصبحت رفيعة ، تترنح وسط ياقة قميصه .. ولم يعد يخرج من بيته .. الا عند الغروب .. يخرج ليسير فى شارع الكورنيش ساعة .. يسير منزويا ، محطما .. لا يريد ان يراه احد .. ولا ان يرى احدا ..

★★★

وكان يسير يوما .. وفجأة وقفت سيارة صغيرة قديمة ، نزل منها صاحبها وأقبل عليه .. ورفع عينيه المكدودتين يتطلع بهما الى القادم .. ثم انطلقت منهما نظرة خوف .. هلع .. انه الاسطى محمود . لقد كان يعمل عنده فى المصنع .. وكان يتزعم العمال .. وحاول كثيرا ان يأخذه الى جانبه .. رفع يوميته .. ثم خصص له راتبا يصل الى سبعين جنيها فى الشهر .. ولكن محمود رغم هذا ظل دائما مع العمال ، يطالب بحقوقهم .. فاضطر أن يحاربه وان يضطهده .. واستطاع بمعاونة مدير المصنع ان يطرده .. ويشرده ..

لابد ان محمود مقبل عليه الآن لينتقم منه ، ليضربه .. ليقتله ، وتراجع .. والهلع يعصر قلبه .. تراجع حتى اسند ظهره الى الحائط .. ومحمود مقبل عليه .. انه يبتسم .. ابتسامة قوية طيبة .. ويمد يده كأنه يريد ان يصافحه ..

وقدم له يدا مرتعشة ، صافحها محمود فى حرارة :

— ازاى سيادتك دلوقت .. شد حيلك !

وقال الرجل فى صوت مرتعش :

— كويس والحمد لله .. ازيك انت يا أسطى محمود !

وقال محمود وهو يحيط الرجل المنكوب بعينين حانيتين :

— تسمح أوصلك يا افندم ..

وتردد الرجل .. ولكن محمود الح .. وركب بجانبه .. جلس فى مقعد السيارة وهو يتنهد فى راحة .. كأنه يستريح بعد مشوار طويل شاق . لقد مضى عليه اكثر من اسبوعين لم يركب فيهما سيارة ، وخيل اليه انه قضى هذين الاسبوعين واقفا على قدميه .. وقال الرجل فى رجاء كأنه طفل صغير مسكين :

— فسحنى شويه يا محمود ..

وقال محمود من خلال ابتسامة الحنان .. ابتسـامة الرجل القوى الذى لا يحمل حقدا :

— حاضر يا افندم ..

واخذ محمود يقود السيارة فى شارع الكورنيش .. ويحدث الرجل المنكوب عن كل شىء .. عن حال المصنع .. وعن حال العمال .. وعن الانتاج الجديد .. والرجل يهدأ شيئا فشيئا .. بدا يحس كأنه كان سجينا وقضى مدة عقوبته .. ومن حقه أن يبدأ الحياة من جديد . اذا كان قد أخطأ ، فقد عوقب بما فيه الكفاية

.. ومن حقه الآن ان يكون مواطنا كباقى المواطنين .. عاملا ككل العمال .. يعمل ويكسب بشرف .. ويضحك .. ويستبشر ..

★★★

ونظر الى محمود قائلا وهو يتنهد :

ـ تعرف انا نفسى فى ايه يا محمود .. نفسى اشتغل .. اى شغلانه !

وقال محمود فى بشر :

ـ وماله يا افندم .. برضه سيادتك تفهم فى النسيج كويس ممكن تفيد المصنع بخبرتك .

وسرح الرجل المنكوب بخياله .. هل يستطيع حقا ان يعمل .. ان يكون مستشارا فنيا للمصنع .. مثلا .. او حتى واحدا من الموظفين . ربما كان عليه ان ينسى أولا انه كان صاحب مصنع .. ان ينسى حتى لا يظل اسيرا لتلف اعصابه وعقده النفسية .

ونظر الى محمود وقال كأنه يخاطب الثورة كلها :

ـ يا ريت يا محمود ..

وأوصله الأوسطى محمود حتى باب البيت ، وقال له فى أدب وتواضع :

ـ انا عارف ان عربية سيادتك دخلت فى التأميم .. ولغاية ما تتصفى الشركة وتقدر سيادتك تشترى عربيه .. عربيتى تحت امرك ..

★★★

ونظر الرجل الى السيارة الصغيرة القديمة ، واحس أنها أغلى سيارة فى العالم :

ونظر الى محمود فى امتنان .. وهو يتساءل : لماذا لم يؤمن بمثل هؤلاء الرجال منذ بدء حياته .. لماذا لم يقف بجانبهم .. لماذا

لم يناصرهم ليناصروه .. لماذا لم يحس بهم ويجعل من نفسه واحدا منهم .. وقال وهو يضغط على يد الأوسطى محمود :

ـ متشكر يا ابنى .. متشكر قوى .. انت علمتنى فى نصف ساعه حاجات ما تعلمتهاش طول حياتى .. ربنا معاك .. ربنا معاكم ..

هذه الحكاية حدث جزء منها فى الاسكندرية فى الأسبوع الماضى .. والباقى خيال .. ابحثوا فيها عن الجزء الواقعى .. وعن الخيال ..

أين حبيبتى

عرفها فى القاهرة .. كان رساما يعمل فى احدى الصحف .. طويلا .. نحيلا ، كعود القصب .. يطلق لحية سوداء داكنة ، وشاربا خشنا عريضا له أطراف مرفوعة ، وعينان واسعتان تبرقان دائما .. ووجه اسمر ، يبدو وفوقه اللحية والشارب ، كورقة من كراسة قديمة ملغمطة بالحبر ..

وكانت مغنية يوغسلافية تعمل فى احد الملاهى .. شقراء ، بشرتها فى لون اللبن المخلوط بشراب الورد .. وعيناها خضراوان .. وقوامها متسق .. لم تكن راقصة .. ليس فيها أخلاق الراقصات .. كانت مغنية تغنى الاغانى الايطالية الحالمة .. وتعيش فى حلم تحميه بشخصية قوية ، وكرامة حساسة تثور لأقل خدش .. تثور اذا تكلم احد من رواد الملهى وهى تغنى .. تثور اذا اصطدمت بنظرة رجل لا ترتاح اليها .. تثور .. تثور ..

والتقى بها فى الملهى .. مصرى ويوغسلافية .. وتعلقت عيناه بها .. ولم تثر .. ارتاحت لعينيه .. ثم وجد نفسه يخرج ورقة وقلما ويأخذ فى رسم صورتها .. كان كل ما يستطيع ان يفعله عندما تتعلق عيناه بامرأة ، هو ان يرسم صورتها .. لم يكن له ابدا مغامرات مع النساء .. انه وحيد ، منطو خلف لحيته الداكنة وشاربه المرفوع .. كل مغامراته صور يرسمها ..

وجاءت بجانبه لتتفرج على الصورة التى يرسمها لها ..

ولا يدرى كيف اتصل الحديث بينهما .. انها لا تتكلم العربية .. فقط اللغة اليوغسلافية والايطالية ، ويضع كلمات انجليزية .. وكانت هذه الكلمات الانجليزية كافية ليستمر الحديث بينهما طول الليل ، ثم ليدعوها الى زيارة مرسمه ، فى اليوم التالى ، ثم يدعوها الى الغداء ..

و .. وخطبها .. واحتفل اصدقاؤه بخطبتهما .. كلهم فنانون .. وكل منهم دفع جنيها ليشارك فى الحفل الذى اقاموه لهما ..

ومضت بهما الأيام .. أسعد فتى وفتاة فى القاهرة .. عاشا فى حلم .. لم يكن يفيق منه الا عندما لا يجد فى جيبه نقودا .. فيقترض من صديق .. لأول مرة يقترض .. ثم بدا يطالب الجريدة بزيادة مرتبه .. لأول مرة يفكر فى زيادة مرتبه .. ثم يعود الى حلمه .. لا شىء يقلقه .. لا ديون أصدقائه ، ولا رفض الجريدة زيادة مرتبه ..

ثم .. كان يجب أن تسافر الفتاة لتعمل فى جزيرة قبرص .. ووعدته أن تعود .. بعد أسبوعين ..

وكتبت له .. انها لن تستطيع أن تعود بعد أسبوعين .. بعد ثلاثة !

ثم كتبت له .. لن تعود بعد ثلاثة أسابيع .. اربعة !!

والحياة من حوله لم يعد فيها شىء .. القاهرة تخنق انفاسه وهو لم يعد يستطيع أن يرسم الا صورتها فقط .. ولكن صورتها لم تعد تكفيه .. شوقه أصبح أكبر من فنه .. انه لم يعد يستطيع أن يرسم حتى صورتها ..

وفجأة .. فى يوم واحد ، قرر أن يذهب اليها ..

لم يرسل لها برقية بحضوره .. خيل اليه انها فى انتظاره ..

لابد انها فى انتظاره فى كل لحظة كما هو فى انتظارها فى كل لحظة ..

واتم اجراءات السفر .. وركب الباخرة الى قبرص .. وفى جيبه ثمانية جنيهات .. وفى حقيبته بجانب ثيابه عشر بيضات « مسلوقة » وضعتها له أمه ..

والباخرة بطيئة .. لو انه ذهب سابحا لسبقها ..

والليل كثيف ، يخيل اليه انه يريد ان يشقه بمطواة ، ليصل من ورائه الى الفجر .. الى النور .. الى حبيبته ..

ونزل فى ميناء « ليماسول » .. وفى جيبه ثمانية جنيهات .. وفى حقيبته عشر بيضات .. وتحت ابطه خرطوشة من علب سجائر « لاكى سترايك » اشتراها من فوق الباخرة ، بثمن أرخص ..

واسرع إلى اقرب تليفون ، واتصل بالبيت الذى تقيم فيه .. تحدث بالانجليزية ، وردت عليه صاحبة البيت بالانجليزية .. قالت له انها غير موجودة .. سافرت الى مدينة « فاما جوستا » ولم يسمع .. لا يريد أن يسمع .. ان هذه المراة لا تتكلم الانجليزية .. وركب سيارة اجرة .. وذهب اليها .. ماذا تقولين ؟ سافرت .. مش معقول ! وأين « فاماجوستا » هذه ؟ على بعد ثلاثمائة كيلومتر .. ياه ! ..

ولم يقل لها شكرا .. واخذ عنوان خطيبته الجديد وعاد الى السيارة الأجرة : الى « فاماجوستا » يا اسطى ..

وسار به السائق اليونانى .. وفى جيبه ثمانية جنيهات .. وفى حقيبته عشر بيضات .. وتحت ابطه خرطوشة سجائر !

وعندما وصل الى « فاماجوستا » نقص ما فى جيبه أربعة جنيهات ونصف جنيه .. دفعها للسائق .. ونقصت سجائره علبتين ..

وفكر قليلا .. لا يصح ان يذهب الى حبيبته وهو بهذا الشكل .. انه معفر ملخبط .. وذهب الى فندق ، وحجز غرفة ، صعد اليها واستحم ، وغير ثيابه ، ومشط شعره .. ثم نزل الى بهو الفندق ، واتصل بالتليفون بالبيت الذى تقيم فيه حبيبته .. وردت صاحبة البيت :

— ليست هنا ..

— ماذا تقولين ؟

— ليست هنا .. سافرت .. الى اين ؟ .. لا ادرى ..

وارتج .. ازدادت عيناه لمعانا .. لا يمكن .. مستحيل .. سأجدها .. وصعد الى غرفته ليأتى بسترته .. ولكنه وجد نفسه يجلس على السرير .. ثم غاب .. نام .. لقد مضت ليلتان لم ينم فيهما ..

وصحا من نومه .. انه أهدأ قليلا .. وبدأ يتذكر كل شىء .. انه سيبدأ البحث عن خطيبته .. وليس فى جيبه سوى ثلاثة جنيهات ونصف . وقد حول أربعين جنيها من القاهرة الى بنك « ليماسول » ولكنه لا يستطيع ان يعود الى « ليماسول » .. وعليه ان يدفع أجر الفندق الذى يقيم فيه .. اذن .. ليختصر الطعام .. انه لن يأكل الا بعد ان يجد حبيبته .. واخرج بيضتين من حقيبته اكلهما .. بلا عيش .. ونزل يبحث عنها ..

طاف بكل ملاهى المدينة ولم يجدها .. وسأل ..

كان يسأل اى واحد يصادفه .. ويخيل اليه ان كل واحد فى قبرص يعرفها وتعرفه ..

ثم .. قال له اصحاب الملاهى :

— هل انت من مصر ؟

— نعم .. خطيبها .. كيف عرفت ؟

— لقد كانت تتحدث دائما عنك .. وتعرض علينا صورتك ..

وقفز قلبه فرحا .. انها تتحدث عنه .. كل من يعرفها يعرفه . انها تحبه .. انها تريده بقدر ما يريدها .. تعانى ما يعانيه من شوق .. واحس بقوة .. قوة عجيبة .. انه سيجدها .. وابتسم من خلال اعيائه .

— اين هى فى نيقوسيا ..

وذهب الى الفندق .. وأكل بيضتين أخريين .. فى صحة حبيبته .. ثم حمل حقيبته .. وذهب الى نيقوسيا ..

لم يعد يحمل فى حقيبته سوى ست بيضات .. وفى جيبه جنيه واحد .. وعلبتى سجائر .. وسأل عنها فى نيقوسيا ..

يومان وهو يسأل عنها .. لا ينام .. ليس فى جيبه اجر المبيت فى الفندق ..

ويأكل البيض .. وانتهى البيض .. وانتهت السجائر .. واين هى ؟ ..

— سافرت .. الى اين ؟ الى بيروت .. وتسكن فى شارع الحمراء ..

وجرى الى البنك يسأل عن نقوده التى حولها من القاهرة الى فرع البنك فى ليماسول .. انها لم تصل بعد ..

وذهب الى السفارة العربية يشكو لها .. اعطونى ثمن تذكرة سفر الى بيروت واخصموها من نقودى ..

وابتسم السفير فى اشفاق قائلا :

— آسف .. الاجراءات لا تسمح ..

وخرج من دار السفارة .. لا ييأس .. انه سيذهب وراءها الى بيروت ، ولو اضطر ان يعبر البحر سباحة .. انه سيجدها ولو حفر الجبل بأظافره .. انه لا يشعر بالجوع .. ولا يشعر بالاعياء .. انه يشعر بقوة .. قوة عجيبة .. قوة تقربه من

حبيبته .. انه يكاد يراها وليس بينه وبينها سوى خطوة واحدة .. خطوة واحدة ويصل اليها ..

وذهب الى شركة الطيران .. اعطونى تذكرة الى بيروت وسأدفع لكم ثمنها بعد ان اصل ..

وابتسم موظف الشركة فى اشفاق وقال :

— هل تعرف احدا فى بيروت يضمنك ؟ ..

واخذ يهذى بأسماء كل الناس الذين يعرفهم .. اسماء اصدقائه فى القاهرة . ثم .. هدى الله لسانه فنطق اسم شخصية لبنانية معروفة ..

وابتسامة الاشفاق لا تزال بين شفتى موظف الشركة .. ان عليه أن يرسل برقية الى هذه الشخصية فى بيروت ، فاذا قبلت ضمانه ، اعطوه التذكرة .. ولكن عليه ان يدفع ثمن البرقية ..

ووضع يده فى جيبه واخرج كل ما فيه .. ربع جنيه ..

واخذ الموظف النقود .. صامتا .. كأنه يحس بمأساته ..

— تعال غدا ..

وطاف على قدميه .. ثم ارتمى على مقعد فى حديقة عامة ، حتى الغد .. لم ينم .. لا يريد ان ينام .. لا يريد ان يأكل .. فقط يريد ان يذهب الى حبيبته ..

وفى الغد ، وقبل ان يذهب الى مقر شركة الطيران ، مر بالبنك ، ووقف امام الموظف المختص ، يصرخ :

— اريد نقودى .. ان نقودى عندكم .. لا تسرقوا نقودى .. اريدها الآن .. الآن ..

وقلب الموظف فى الأوراق التى امامه .. واجاب فى هدوء :

— لقد وصلت نقودك ..

واستند على شباك البنك حتى لا يسقط على الأرض .. وابتلع ريقه كأنه ارتوى بعد ظمأ شديد ..

وخطف النقود ، وجرى بها الى شركة الطيران .. وركب الطائرة ..

انه ساهم .. عيناه تزدادان بريقا .. لا ينام .. ولا يريد ان يأكل حتى بعد أن اصبح فى جيبه نقود .. وبعد ساعة كان فى بيروت ..

وجرى .. جرى فى الشوارع كالمجنون .. تاكسى .. تاكسى .

وركب سيارة اجرة ، وذهب الى عنوان البيت .. وصعد مباشرة .. وطرق الباب ..

و ... ووجدها أمامه ..

وعيناه تبرقان ..

وصرخت ، وهى ترى هزاله :

ــ ناجى .. انت .. ماذا جرى لك ؟

ولم يرد .. ارتمى بين ذراعيها .. مغمى عليه ..

وحملته الى فراشه .. انه مريض .. يرتعش .. انها الحمى ..

وبقى معها اربعة ايام مريضا بالحمى ، وعندما افاق كان يجب أن يعود الى القاهرة ، فليس معه فيزا للاقامة فى لبنان .. يجب ان يعود اليوم ..

ولكنه كان سعيدا ..

لقد وجدها ..

اخيرا وجد حبيبته ..

وقبلها .. وضع كل حبه فى قبلة ..

وقالت هامسة :

ــ سأعود اليك فى القاهرة .. بعد اسبوعين !

خواطر فتاة متحررة

انا فى التاسعة والعشرين من عمرى ..

ومنذ كنت فى السادسة عشرة والعرسان يترددون على بابى .. وكنت أرفضهم .. وكنت ارفض المبدأ نفسه .. مبدأ الزواج ..

كنت قد سألت نفسى : ما هو الزواج ؟

وانتهيت الى الجواب ..

الزواج هو وظيفة .. بنت تتوظف عند رجل .. تشرف له على بيته .. وتطبخ له طعامه .. وتغسل له ثيابه .. وتمتع رجولته .. وبجانب هذا تقوم بوظيفة عامة ، وهى انجاب الأطفال .. وذلك نظير مرتب ثابت يشمل : الأكل والسكن ، والملبس ، والعلاج .. ومصروف اليد !!

وشروط الزواج هى نفس شروط وظيفة اخرى .. المركز الملائم .. والدخل الملائم .. والمظهر الملائم .. ثم .. المؤخر ، والنفقة ، يساويان المكافأة ، والمعاش ، فى حالة الاستقالة من اى وظيفة اخرى ..

ولا شك ان المجتمع يحتاج الى هذه الوظيفة .. وظيفة الزوجة .. ولكن حاجته اليها ليست أكثر من حاجته الى الوظائف الأخرى .. حاجة المجتمع الى الزوجات ليست اكثر من حاجته الى عمال المصانع ، او الى موظفى ادارة المعاشات ، او مديرى الشركات .. وهذه الضجة التى تقوم حول زواج البنات ، ليس سببها ان وظيفة الزوجات اهم من الوظائف الأخرى ، بل سببها ان البنات لم يكن

لهن وضيفة اخرى غير الزواج .. فان لم يتزوجن ، اصبحن يمثلن مشكلة بطالة فى المجتمع .. تماما كمشكلة البطالة بين خريجى كلية الحقوق والآداب !

فالمشكلة ليست متعلقة بمبدأ الزواج .. ولكنها متعلقة بمبدأ البطالة ..

وكانت البنت التى لا تجد وظيفة تسمى : عانس !

والشاب الذى لا يجد وظيفة يسمى عاطل !

وقد اعتبر المجتمع سن السادسة عشرة ، هو سن التخرج بالنسبة للبنت .. لانها فى هذه السن يكتمل استعدادها لأداء وظيفتها كزوجة .. تماما كما يعتبر نيل الشهادة الجامعية شرط التخرج بالنسبة للشاب الذى يريد أن يشتغل مهندسا ..

وابتداء من السادسة عشرة ، يبدأ الأهل فى البحث عن وظيفة للبنت .. أى البحث عن زوج !!

وهم يبحثون عن وظيفة زوجة للبنت بنفس الاهتمام الذى يبحثون به عن وظيفة للولد بعد تخرجه .. بل باهتمام اقل .. فان وضع الولد العاطل فى البيت ، وبالنسبة للمجتمع ، اقسى واخطر ، من وضع البنت العانس ..

والوسائل التى يلجأ اليها المجتمع للتغلب على أزمة زواج البنات . هى نفس الوسائل التى يلجأ اليها للتغلب على ازمة العاطلين ..

نظام « الخاطبة » هو نفس نظام مكاتب التخديم .. واعلانات الزواج التى كانت تنشرها « روز اليوسف » .. هى نفسها اعلانات طلب الوظائف التى تنشر فى جريدة « الاهرام » ..

والدعوة الى التخفيض من قيمة المهر .. هى نفس المشروعات التى يضعها ديوان الموظفين للتخفيف من قيود التوظف .. وهذا هو رايى ..

الزواج .. وظيفة !

وبما أن البنت الآن تستطيع ان تعمل فى أكثر من وظيفة ، فهى ليست مضطرة الى وظيفة الزواج .. او على الاقل من حقها أن تختار .. اما أن تكون زوجة ، أو سكرتيرة ، أو مهندسة ، او طبيبة ..

وانا لا أريد أن اكون زوجة .. لا اريد ان أتوظف عند رجل .. ان وظائف الشركات اضمن ، ومريحة اكثر .. وتوظفت .. اصبحت مضيفة فى احدى شركات الطيران .. ومرت السنون .. واصبحت فى التاسعة والعشرين من عمرى ولم اعتبر نفسى عانسا ..

لا .. العانس ، معناها فتاة عاطلة ، لا تؤدى خدمة للمجتمع .

وانا لست عاطلة .. انا موظفة .. اؤدى خدمة للمجتمع .. خدمة كبيرة ، وربما كان المجتمع فى حاجة اليها اكثر من حاجته الى وظيفتى كزوجة ..

ان وضعى الآن ، هو وضع أى رجل يعمل ، وليس متزوجا .. اعزب .. نفس الوضع .. كلانا يقوم بواجبه نحو المجتمع .. ولكن .. خلال هذه السنوات ، كنت افكر فى الحب .. ماذا يحدث لو احببت رجلا .. هل اتزوجه ؟

لماذا ؟ ! ما دخل الحب بالزواج .. ان الحب عاطفة .. والزواج وظيفة .. وأستطيع دائما أن احتفظ بعواطفى .. دون حاجة الى وظيفة .. فعندى وظيفة اخرى افضلها على وظيفة الزوجة !

والبنت التى تحب وتصر على الزواج من حبيبها .. بنت انانية .. ينقلب حبها الى غريزة التملك .. انها تريد أن تملك الرجل الذى تحبه ، وهى ليست واثقة من أنها تستطيع أن تمتلكه بعواطفها ، فتضطر ان تمتلكه بعقد .. شرعى .. تماما كما تمتلك قطعة أرض بعقد عقارى .. ان الزواج فى هذه الحالة هو دليل عدم

الثقة فى النفس .. وعدم الثقة فى الحب .. دليل على اهتزاز الشخصية أمام الناس .. فتلجأ البنت الى تسجيل حبها فى قلم التسجيلات ، حتى لا يضيع منها ..

وانا واثقة من نفسى .. انا لست فى حاجة الى امتلاك حبيبى يوم أحب .. انما سيكون حبى خاليا من الانانية .. سيكون كل منا حرا .. طليقا .. لكل منا وظيفته وحياته ، ولا تجمعـنا الا عواطفنا ..

واعتقد أن هذا هو نفس شعور الرجل ..

ان الرجال عادة لا يقبلون على الزواج الا مضطرين .. تحت الحاح الحرمان ، أو تحت الحاح التقاليد الاجتماعية التى لا تعترف بالحب بلا زواج .. ولكنه دائما — اى الرجل — يفضل الف مرة ان يجد البنت التى يحبها ولا يتزوجها .. لماذا ؟ لان له وظيفة اخرى غير وظيفته كزوج .. لانه اذا لم يتزوج ، لن يعتبره الناس ، ولن يعتبر نفسه عاطلا .. وانا ايضا — كالرجل — لن يعتبرنى أحد عاطلة اذا لم اتزوج .. الى ان قابلت محمود ..

واذكر مناقشة حادة دارت بنى وبين محمود فى اول لقائنا ..

قال لى :

— هل عرفت رجالا قبلى ؟

قلت :

— وأنت .. هل عرفت بنات قبلى ؟

قال :

— انا رجل .. لن يضيرنى أن عرفت بنات قبلك !

قلت :

— وانا .. ماذا يضيرنى لو عرفت رجالا قبلك !

قال :

— انت بنت .. والبنت يجب ان تحافظ على نفسها .. على طهارتها .. الى ان تجد الرجل الذى تحبه ..

قلت :

— والرجل .. لماذا لا يحافظ على طهارته الى أن يجد البنت التى يحبها ؟

وقال محمود وهو يطل علىّ فى دهشة :

— لأن البنت بنت .. والرجل رجل ! ..

قلت :

— ماذا يعنى هذا ؟

قال :

— ان الرجل يستطيع ان يعرف مائة فتاة دون أن يخسر شيئا .. والبنت .. و ..

وقاطعته قائلة :

— وماذا تخسر البنت ؟

قال :

— تخسر سمعتها ..

قلت :

— ولماذا لا يخسر الرجل سمعته ؟

قال :

— ان التكوين الجسمانى للبنت من طبيعته ان يجعلها اما بمجرد لقائها بأول رجل .. بل ان عواطف البنت واحاسيسها منبثقة كلها من طبيعتها كأم ..

قلت :

— والرجل .. ان طبيعة تكوينه الجسمانى يجعله أبا بمجرد لقائه بأى بنت .. فلماذا لا يحترم الرجل ابوته ويفرض على المرأة احترام امومتها ..

قال :

— ان الرجل لا يحمل ابناءه فى بطنه ..

قلت : والبنت ايضا .. انها تستطيع الا تحمل .. الطب قد تقدم .. والحكومات تبيع الآن وسائل منع الحمل .. والبنت لا تكون اما الا اذا ارادت .. وكذلك الرجل لا يكون ابا الا اذا اراد .. لا فرق يا عزيزى .. وكل الفروق فروق مفتعلة فرضها الرجل على المرأة عندما كان يستعبدها .. وعندما كانت ترضخ لهذا الاستعباد ، لانها كانت تعيش عالة عليه .. وانا لا اعيش عالة عليك .. انا موظفة مثلك .. فلا فرق !

قال :

— انى لا استطيع ان احبك ، وانا اتصورك كل يوم مع رجل .

قلت :

— هل ستكون انت كل يوم مع امرأة ؟

قال :

— لا ..

قلت :

— لماذا لا تذهب كل يوم الى امرأة ؟

قال :

— لانى احبك !

قلت :

— وانا ايضا .. لانى احبك ، فساكون لك وحدك .. ولانك تحبنى ستكون لى وحدى !

قال :

— اتعنين الزواج ؟

قلت :

— لا .. ان الاخلاص ليس فرضا يفرضه عقد مكتوب ..

انه رغبة نابعة من العاطفة .. رغبة تغنى البنت عن كل الرجال الا رجلا واحدا ، وتغنى الرجل عن كل البنات الا بنتا واحدة .. انى لن اخلص لك غصبا عنى ، او رغما عن ارادتى ، ولا حتى احتراما لك .. ولا اريدك ان تخلص لى مجاملة لى او حرصا على شعورى .. لا .. ساخلص لك ، من اجل نفسى لانى لا اريد شيئا آخر .. وانت ايضا ، اذا احسست انك تريد شيئا آخر ، فلا تخلص لى .. هل تفهمنى .. ان اخلاصى ليس حقا لك ، ولكنه حق لى .. واخلاصك لى ليس حقا لى ، ولكنه حق لك ..

قال :

— هذه مبادىء خطيرة ..

قلت :

— كل تطور يبدو خطيرا فى أوله .. ان السعى الى الحرية والمساواة ، يعتبر ثورة !!

و .. لم تنته مناقشاتنا ..

ولكنى احببت محمود .. وازددت حبا .. كل عام يمر احبه اكثر ..

وبدات احس باحساس جديد يطغى على حبى .. انى اريد أن اكون اما .. اريد طفلا من محمود .. كأن كل هذا الحب لم يعد يكفينى ، وأصبحت أريد أن أحمل من محمود فى داخلى .. لم أكن احس انى اريد طفل محمود بل اريد ان احمل محمود نفسه .

وحاولت ان اطرد هذا الاحساس ..

ان الأمومة وظيفة اخرى ، كوظيفة الزوجة ، ووظيفة مضيفة شركة الطيران ..

وقد رفضت وظيفة الزوجة .. ويجب أيضا ان ارفض وظيفة الأم .. ولكنى لم استطع .. حبى يلح علىّ .. حبى كبر حتى اصبح أمومة .. هل استطيع ان اكون اما بلا زواج ؟ ! وبدات افكر

بأسلوب جديد .. إسلوب كنت اعتقد انى كفرت به ، وازحته من راسى .. انى لا افكر فى نفسى ..

ولكنى افكر فى الطفل الذى أريده أن يجعلنى اما ..

انى لا استطيع أن أنجب طفلا يواجه المجتمع بأم ليست زوجة ولا أستطيع أن أسأله اذا كان يرضى بهذا الوضع او لا يرضى .. ربما نشأ طفلا متحررا لا يؤمن بتقاليد المجتمع .. ولكنى لا اعرف رايه .. ولا أستطيع ان اسأله !!

وقلت لمحمود :

— محمود .. لنتزوج !

ونظر الى محمود دهشا .. ثم ابتسم ساخرا ، وقال :

— لا .. لماذا تريدين الزواج .. ان الزواج وظيفة ، وانت لا تنقصك الوظيفة !

قلت :

— أريد ان اكون اما ..

قال :

— الأمومة وظيفة ايضا .. ثم ما حاجتك الى أن تكونى اما ؟

— لأنى احبك !

وبدأنا نتناقش من جديد .. و ..

وبدأ محمود يملى شروطه علىّ .. احسست كأنه يذلنى ..

انه يريدنى ان استقيل من عملى ، وان اتفرغ للبيت .. ويريدنى أن أتعلم طهو البامية لأنه يحب البامية .. ويريدنى ان اقرا له كتب الأدب ، وأنا اكره كتب الأدب .. وحاولت ان اقاوم ..

ولكن لهفتى لكى اكون اما غلبتنى .. واستسلمت .. و ..

اننا لن نتحرر أبدا .. لأننا نريد ان نكون امهات ..

ولأن الرجال هم الذين يصنعون منا امهات !!

بـــلا كـــلام

كنت فى برشلونة .. وفجأة قـــررت أن اذهب الى جزيرة مايوركا ..

ولا أدرى ما الذى اغرانى بالذهاب الى مايوركا .. كل ما اعلمه عنها انها جزيرة اسبانية فى البحر الأبيض .. وانهـــا هادئة ، رائعة .. يذهب اليها العرسان لقضاء شهر العسل ، ويذهب اليها العجائز .. عجائز الانجليز والأمريكان .. ليستلقوا فى الشمس ، ويغمضوا عيونهم على الماضى السعيد ..

وانا لست فى شهر عسل .. ولست عجوزا .. انى شـــابة وحيدة ..

ومايوركا — بجمالها — تعذب الانســـان الوحيد .. تزيد احساسه بوحدته وحرمانه .. ورغم ذلك فقد كان فى مايوركا آثار قصة قديمة عشت فيها طويلا بين صفحات كتاب .. قصة حب .. حب شوبان ، وجورج صاند ..

وانا أعشق موسيقى شوبان .. ورغم انى لم اقرا شيئا للكاتبة جورج صاند ، الا انى أحب قصتها مع شوبان .. لقد احبت جورج صاند حبا عجيبا .. حبا يمتزج فيه حنان الأم ، بأنانية المرأة العاشقة .. وقد رعته فى مرضه وفنه كأم ، وأرادت أن تستأثر به كعاشقة .. ثم غلبت أنانية المرأة حنان الأم .. فمات شوبان ..

وقد قضى جورج صاند وشوبان ثلاثة شهور فى جزيرة مايوركا

.. منذ مائة سنة .. وعاشا اياما فى نعيم .. واياما يكافحون معا السنة السل الذى يزحف على صدر شوبان ثم السنة اهالى الجزيرة .. احد وامر من السنة السل .. لقد عرف الأهالى انهما ليسا زوجين .. وعرفوا أن شوبان مريض بالسل ، وكان أيامها مرضا مخيفا يهدد بالعدوى .. ثم ثاروا على جورج صاند عندما كانت تخرج الى الشارع فى أزياء الرجال .

وبدأ العاشقان يهربان من الأهالى .. ومن السل .. انتقلا من بيت الى بيت .. ومن قرية الى قرية .. ولا يلبث صاحب البيت أن يطردهما .. ثم لا تلبث القرية كلها أن تقذفهما بالطوب .. واضطر الاثنان الى الهروب من مايوركا كلها ..

ومرت السنون .. واحفاد هؤلاء الفلاحين ، اقاموا لشوبان وجورج صاند تمثالا .. وصنعوا من البيت الذى كانا يقيمان فيه متحفا .. وآلاف السواح ينفقون آلاف الجنيهات كل عام ، لزيارة عش الغرام الذى عاش فيه شوبان وجورج .. والجزيرة كلها ليس فيها ما تفخر به الا أنها شهدت يوما غرام شوبان وجورج ..

ومن اجل شوبان وجورج .. اردت ان اذهب الى مايوركا .. أن أعيش لحظات فى البيت الذى عاشا فيه .. أن أشهد بعينى اهالى مايوركا وهم يبيعون صور شوبان وجورج صاند ، بعد ان كانا يقذفانهما بالطوب .. وان اشمت .. اشمت فى المجتمع الظالم الأنانى الذى يصر على ان ينزل الفنان الى مستوى الرجل العادى .. ثم يقيم له تمثالا بعد ان يموت ! ؟ وحملتنى الباخرة الكبيرة من ميناء برشلونة .. وسارت تشق بى الليل الى مايوركا .. وعلى ظهر الباخرة اكثر من خمسين فتاة اسبانية .. فى سن السابعة عشرة والعشرين .. يملأن الاروقة بالضجيج والمرح .. ثم يجتمعن على سطح الباخرة فى حلقة كبيرة .. وواحدة منهن تعزف الجيتار

وتغنى فى صوت حزين أغنية اسبانية لا افهم من كلماتها شيئا .. ثم فجأة تنتقل الى لحن مرح صاخب .. ويغنى الجميع معها .. لابد أنها اغنية هزلية ، لأن البنات يضحكن فى مرح وهن يغنين .. وفتاة اخرى تنتفض واقفة وترقص رقصة اسبانيولية .. ثم فجأة تنشد فتاة اخرى وترقص معها ، تشاتشا ..

وفريق من الركاب اجتمع حول الحلقة الكبيرة يتفرج على مرح البنات .

وانا جالس على درجة سلم ، ابتسم فى وحدتى ..

واخذ البنات يداعبن الركاب .. مداعبات بريئة حلوة والضحكات تطغى على صوت الموج الذى يتطاير حول الباخرة ..

وجاءت واحدة الى ، وتكلمت كلاما كثيرا لم افهم منه شيئا .. انها تتحدث بالاسبانية ..

***

وحاولت ان أحدثها بالانجليزية او الفرنسية .. ولكنها لا تعرف منهما كلمة واحدة .. كل ما فهمته منها انها تسألنى عن بلدى .. وقلت لها الكلمة الاسبانية الوحيدة التى أعرفها :

— اخيبتو .. أى : مصر ..

وتنطق بالخاء .. انى لا أحب اسم « مصر » يترجم بالأسبانية !!

وصاحت البنت : اخيبتو .. ثم نادت فريقا من زميلاتها ، التففن حولى ، وكلهن يتحدثن فى وقت واحد .. كلام كثير .. لا افهم منه شيئا !!

لقد اكتشفت ساعتها تعريفا جديدا للانسان .. الانسان : لغة ..

وعندما يفقد الانسان عنصر اللغة ، يفقد اداة التفاهم ..

وعندما يفقد أداة التفاهم يصبح مجرد شيء .. شيء موجود ... له شكل .. ولكنه ليس انسانا .. ليس مخلوقا يتفاهم كبنى الانسان ..

واكتشفت البنات ــ وكلهن لا يتحدثن الا الاسبانية ــ انى شيء .. مجرد شيء .. فتركننى وعدن الى موسيقاهن ورقصهن ..

وظللت جالسا على درجة السلم ، أتفرج .. وتعلقت عينـــاى بواحدة منهن ..

انها فتاة أشبه بالولد .. تسير فى خطوات قوية أشبه بخطوات الأولاد .. خطوات رعاة البقر الامريكان .. وذراعاها مبتعدتان دائما عن جنبيها ، كأنها ولد يتباهى بعضلاته .. ووجهها جميل ، ولكنه خال من المساحيق ، ونظراتها قوية كنظرات ولد شقى .. ويبدو انها مهرجة المدرسة .. انها أكثر البنات حركة ، وضجيجا واكثرهن شقاوة ، وجراة عى الركاب .. ويبدو أن لها سيطرة على بقية زميلاتها .. سيطرة فيها نوع من الزعامة .. وتتبعتها بعينى ..

★★★

ولاحظت انها ترقص ، وتغنى ، وتضحك .. ثم فجأة تتجه الى زميلة لها جالسة فى ركن منزو قريب منى .. وتجلس بجانبها ، وتضع ذراعها فوق كتفها ، ثم تأخذ فى التحدث اليها ، حتى تضحك الزميلة .. كأنها تتعمد تسليتها .. كأنها تخصها بنوع خاص من اهتمامها .. ثم تقوم من جانبها وتعود ترقص وتغنى ، وتطلق نكاتها .. الى ان تعود الى زميلتها مرة أخرى ..

ان زميلتها جميلة .. رقيقة .. فيها ضعف .. وخفر .. وهى لا ترقص ولا تغنى .. انها فقط تبتسم .. ثم تنطلق من عينيها نظرات شاردة كأنها تهيم بهما وراء شيء فى أعماق الليل ..

وفجأة .. لمحت شابا أسبانيا يتسلل من خلف صفوف الركاب .. ويقف قبالة الفتاة الرقيقة .. وسمعته يتحدث اليها .. حديثا لم أفهم منه شيئا .. لم أفهم كلمة واحدة .. ولكنى رأيت نظرات الفتاة تضطرب ، وتتلفت حواليها ، ثم تحمر وجنتاها ..

وجلس الشاب بجانبها ، وبين شفتيه ابتسامة رائقة .. واستمر فى حديثه معها .. ورأيت الفتاة تحنى رأسها ، وتنظر بين يديها ، وترد عليه بكلمات قليلة .. وأحيانا تبتسم ، ابتسامات سريعة تشق الليل كشعاع من القمر ..

وكانت الفتاة الأخرى ــ الفتاة الولد ــ ترقص .. منهمكة فى الرقص .. وفجأة توقفت عن الرقص .. واتجهت فى خطواتها القوية .. خطوات راعى البقر .. الى حيث تجلس زميلتها مع الشاب ـ ووقفت قبالتهما ، ويداها فى خاصرتيها .. واخذت تنظر اليها واليه .. ثم قالت كلاما .. ورفعت الفتاة الرقيقة عينيها وخيل الى أن فى عينيها خوفا .. وقالت كلاما قليلا فى صوت ضعيف .. وهزت « الفتاة الولد » كتفيها .. وابتعدت .. وعادت ترقص .. ولكنها لم تعد ترقص كما كانت .. انها تبدو كأنها ترتعش .. وبين كل خطوة واخرى تنظر الى زميلتها الجالسة فى الركن المنزوى ..

والشاب لا يزال بجانب الفتاة .. يتحادثان ..

★★★

وكفت « الفتاة الولد » عن الرقص مرة أخرى ، واتجهت نحو زميلتها وصديقها ، وقالت نكتة .. عرفت انها نكتة لأنها أعقبتها بضحكة كبيرة .. ولكن الزميلة والصديق استقبلا النكتة فى برود ، وابتسامات مفتعلة .. فأطلقت لهما نكتة أخرى ، استقبلاها ببرود أشد .. وابتلعت الفتاة ضحكتها .. ونقلت نظراتها بينهما فى

امتعاض .. ثم ابتعدت .. وجلست على مقعد بين بعض زميلاتها وهى تزفر .. وخيل الى أن فى زفراتها غيظا .. ولا تزال تنظر بعينين غاضبتين الى زميلتها الجالسة مع الشاب .. ثم لم تعد تطيق .. قامت ومشت نحوهما ، ووقفت قبالتهما .. واخذت تتحدث الى زميلتها .. وكان صوتها فى هذه المرة محتدا .. كأنها تؤنبها .. تحذرها ..

وردت عليها زميلتها فى ضعف .. كأنها ترجوها .. تتوسل اليها .. وابتعدت « الفتاة الولد » وهى تزفر ، وتضرب الهواء بكفيها ، وتخبط أرض الباخرة بقدميها .. وعاد الشاب يحادث الفتاة .. حديثا يبدو ناعما .. والفتاة الرقيقة تحنى راسها فى خفر .. وابتسامتها تتسع ، وتهدأ بين شفتيها .. ومرت فترة .. ربع ساعة أو يزيد .. ثم فجأة رأيت الفتاة الاخرى ، تندفع اليهما .. وفى هذه المرة اخذت توجه كلامها الى الشاب .. كلام فى صوت مرتفع حاد .. يبدو أنها تشتمه .. تتهمه .. تلعنه ..

ورأيت الفتاة الرقيقة تقوم واقفة ، وترد على زميلتها .. يبدو انها تدافع عن الشاب ، وعن نفسها .. ثم جذبت الشاب من يده وسارت به بعيدا ، وهى تنتفض فى غضب .. ثم وقفت به عند سور الباخرة ..

★★★

وجلست الفتاة الاخرى — الفتاة الولد — على المقعد الذى كانا يجلسان عليه .. جلست كأنها وقعت منهارة .. ووضعت راسها بين يديها .. واصابعها تشد شعر راسها فى غيظ وغل .. ثم قامت واتجهت الى حيث تقف زميلتها مع الشاب .. وسمعتها تتحدث اليها .. انها تتحدث اليها فى توسل .. وتشير بيديها كأنها تستحلفها .. ثم .. ثم بكت .. بكت الفتاة الولد .. ورأيت

الفتاة الأخرى تقف ذاهلة .. ثم تنهمر دموعها على خديها فى صمت .. ثم ..

ثم تحتضن زميلتها ويبكيان معا .. بكيتا كثيرا ..

ثم رفعت الفتاة الرقيقة راسها ، ونظرت الى الشاب الذى معها ، وسمعتها تقول له

— بونانوتشى .. أى : مساء الخير ..

ثم ابتسمت له ابتسامة مسكينة .. اضعف من ان تبقى معه .. .. ووضعت ذراعها فى ذراع زميلتها وعادتا معا الى حلبة الرقص والغناء .. و « الفتاة الولد » تنظر الى زميلتها كأنها تقبلها .. تقبل كل قطعة من وجهها ..

★★★

ورغم انى لا أفهم الأسبانية .. ولم أفهم كلمة واحدة من كل الكلام الذى سمعته .. الا اننى فهمت ما بين الفتاتين .. وعرفت القصة ..

هل فهمتم أيضا انتم ؟ ان الانسان ليس لغة ..

انه يستطيع ان يفهم ، حتى بلا لغة .. والباخرة تشق بى الليل نحو مايوركا ..

حائر بين الحلال والحرام

انه رسام ..

والناس لا تعرفه .. الناس تعرف ممثلى السينما والمطربين ، والكتاب ، ولكنها لا تعرف الرسامين .. وليس هذا ذنب الرسامين ، انه ذنب الناس .. الناس عندما لا يزال ذوقهم الفنى بلبدا ، خمولا ، لا يتحرك لفن الرسم ..

وقد عرفته منذ بدا يخط خطوطه الأولى على الورق .. وكان فقيرا ..

ورغم فقره رفض ، بعد ان تخرج فى كلية الفنون الجميلة ، ان يشتغل مدرسا .. كان يعتقد انه لا يستطيع ان يعمل شيئا الا ان يرسم .. وكان يضحك وهو يتصور نفسه واقفا بين التلاميذ يعلمهم الرسم ، ويقول بصوته الذى ينطلق دائما كأنه لا يتعمد ان يسمعه احد :

— بأه ده معقول .. مش لما اتعلم انا الأول !

وكان يدور على الدكاكين الصغيرة .. دكاكين البقالة والخردوات .. ويكتب اليافطات او يرسم بعض الزخارف ، ويأخذ اجره ليشترى الألوان والفرشاة التى يرسم بها ، وقطع القماش التى يرسم عليها .. ثم يذهب الى غرفته الصغيرة فى حى « العطارين » ويرسم .. يقضى الليل كله وهو يرسم ويصبح عليه الصباح وهو يرسم ولم اكن ادرى متى ينام ؟ ومتى يأكل ؟ انه

لا ينام الا اذا سقط من التعب . ولا يأكل الا اذا شعر بألم فى معدته يتذكر انه يجب ان يأكل ..

وكان يعيش فى أزمة نفسية حادة .. ولم يكن فقره هو سر ازمته .. انه لم يشعر ابدا بفقره ، ولم يشعر أن هناك شيئا يريده ولا يستطيع أن يحصل عليه . كان سر ازمته هو حيرته .. حيرة عجيبة .. كان حائرا بين الحلال والحرام .. ما هو الحلال ؟ .. وما هو الحرام ؟ .. ولماذا الحلال ؟ .. ولماذا الحرام ؟ ..

وكان وهو صبى صغير يصلى .. علمه ابوه الصلاة ، وملأت له أمه رأسه بقصص الملائكة والانبياء .. فكان يقبل على الصلاة كأنه يخطو الى عالم رائع جميل .. فيه جنة ، وفيه ملائكة ، وفيه شيوخ اتقياء يبتسمون من خلال ذقون جليلة بيضاء .. وكان يقبل على هذا العالم فى شوق .. ويقبل عليه وهو منتعش انعشه خياله ، وأنعشه الماء الذى توضأ به .. ولم يكن يسأل ..

ولم يكن قد عرف بعد كلمة : لماذا .. كانت امه تحتم عليه ان يلبس جوربا اسود طويلا عندما يقف للصلاة ، حتى يغطى ركبتيه من تحت بنطلونه القصير .. فلا يسألها لماذا ؟ وكان ابوه يحتم عليه ان يغطى راسه بالطربوش وهو يصلى ، فيضع الطربوش على راسه دون أن يسأل : لماذا ؟ وكانوا يأخذونه الى زيارة الأضرحة ، فيمسح بيده الصغيرة على شباك الضريح ، ويقرأ الفاتحة .. ويفعل كما تفعل أمه فيدور حول القبر الكريم سبع مرات .. ويرفع كفيه ويدعو ، ثم يمسح وجهه بكفيه .. ولا يسأل : لماذا ؟ لماذا كل هذه الطقوس الغريبة ؟

ولم يكن فى عقله حرام وحلال .. كان ما يفعله .. يفعله لأنه يجب ان يفعله .. وما لا يفعله .. لا يفعله لأنه لا يجب أن يفعله ..

ولم يكن يسأل نفسه : لماذا يجب ؟ .. ولما لا يجب ؟ ..

والعالم كله فى عينيه ، عالم صبيان اطهار ، يحبون امهاتهم ، ويحبون آباءهم ، ويحبون الله .. ويصلون .. ويلعبون ! ولكنه بدا يكبر .. وشىء فى راسه بدا يكبر ايضا .. وبدا يفاجأ بكلمة : « لماذا ! » تقف فى وجهه !

كان فى الرابعة عشرة من عمره عندما سأل نفسه : لماذا تصر امى على ان تلبسنى هذا الجورب الطويل السخيف كلما وقفت للصلاة ؟

— لأغطى به ركبتى ..

— ولكن لماذا يجب ان اغطى ركبتى ؟

— لانهما عورة ..

— ولكن ما هى العورة ؟

— العورة هى كل ما يثير مرآه نفوس الناس ..

— ولكن ركبتى لا تثيران نفوس الناس ، بدليل انى البس بنطلونا قصيرا يكشف عنهما .. و ..

وتستمر المناقشة بينه وبين نفسه .. مناقشة يشدها من ناحية عقله المنطلق ، ويشدها من ناحية اخرى عقل أبيه وأمه وما وضعاه فى قلبه من أحاسيس دينية ..

الى أن انتهت المناقشة بثورة .. ووقف يصلى دون أن يلبس جوربا طويلا ، ودون أن يضع الطربوش على راسه .. ولم تكن ثورته على الله ولا على الدين .. ولكن ثورته كانت على هــذه الطقوس التى لا يستطيع عقله أن يهضمها ..

ورغم ثورته فهو خائف .. خائف ان يكون على خطأ .. ويدفعه خوفه احيانا الى أن يعود ويلبس الجورب الطويل ، ثم تعود ثورته وتدفعه الى أن يخلع الجورب الطويل ..

وبدات كلمة « لماذا » تكبر اكثر .. واكثر .. والمناقشات بينه

ولكن نفسه لا تهدأ .. انه يناقش كل شىء .. ولا يستطيع ان ينتهى الى قرار فى اى شىء .. وتعب .. وادى به التعب الى ان اقلع عن الصلاة .. لا لانه كفر بالله .. ولكن فقط لانه تعب من مناقشة مواضيع لا يستطيع عقله الصغير ان يصل اليها .. انه يحاول أن يهرب .. يهرب من المناقشة .. ولكن الله فى قلبه .. يؤمن به .. ويخافه .. ويلجأ اليه .. والنقاش النفسى لا يكف عنه رغم انه لم يعد يصلى ..

واحساسه الفنى يشفه العذاب .. عذاب الحيرة .. وبدأ النقاش يتخذ اتجاها جديدا :

ما هو الحلال ؟ .. وما هو الحرام ؟ .. هل الكذب حرام ؟..

ان والده يكذب .. كذبات صغيرة بيضاء ، لا تؤذى احدا .. فهل يدخل والده النار لأنه يكذب ؟ لا .. انه لا يوافق على أن يدخل والده النار .. والله لا يمكن أن يحكم على والده بالنار ..

ربما لم يكن الكذب حراما .. ان الحرام هو ايذاء الناس ..

فاذا كذبت ولم تؤذ احدا فالكذب ليس حراما .. بل ربما لو كذبت لتريح الناس وتسعدهم ، لأصبح الكذب حلالا ..

وما هى الفنون ؟ انها الكذب .. والفنانون ليسوا سوى قوم برعوا فى الكذب .. الممثل هو رجل يقف امامك ويكذب عليك وينقلك الى حياة يصورها فى قصة .. و .. هل يدخل الفنانون ايضا النار لأنهم يكذبون ليسعدوا الناس .. كذبهم حلال ! ولكن .. هل هذا صحيح ؟

من يحدد اذا كانت هذه الكذبة تؤذى ، او لا تؤذى ؟

ليس هناك مقياس ..

هل نترك لكل فرد أن يحدد مدى حقه فى الكذب ؟

هذه فوضى .. ان القاتل يعتقد أن من حقه أن يقتل ..

والسارق يعتقد ان من حقه ان يسرق .. فلو اعترفنا للناس بحق الكذب لتمادوا فيه ..

ربما كان من الأفضل أن نعتبر الكذب ــ كل انواع الكذب ــ حراما ..

ولكن .. و ..

وتستمر المناقشة .. وتشتد حيرته بين الحرام والحلال .. ويتعذب ..

وقد ظهرت هذه الحيرة فى كل لوحاته التى رسمها ..

انه يرسم مسجدا كبيرا فيه مصلون خاشعون .. وفى آخر اللوحة ــ بعيدا ــ يرسم يافطة مكتوب عليها بأنوار النيون كلمة « كباريه » .. ويسمى اللوحة « نور » ! ويرسم مومسا فى حى البغايا واقفة فى الانتظار .. وفى ركن بعيد من اللوحة يرسم مئذنة مسجد .. ويسمى اللوحة « يا رب » !

ويرسم خمارة فى حى شعبى مزدحمة بالسكارى ، وعلى بابها شيخ أعمى يبيع مصاحف القرآن والسبح .. ويسمى لوحته « مزة !! » .

ولا تشعر فى كل هذه اللوحات انه يبدى رايا ، او ينتقد .. لا .. انه حائر .. مجرد حائر تعذبه وتقلقه حيرته !

وبلغ قمة العذاب عندما أحب .. أحب امراة متزوجة .. واحبته ..

وبدا يسأل نفسه ، هل حبه حرام ام حلال ؟

ولم يكن يناقش موضوع العلاقة الجنسية .. ان العلاقة الجنسية فى نظره اتفه من أن تناقش .. ولكنه كان يناقش العاطفة .. عاطفته .. حبه .. هل هو حرام ام حلال ؟

انه حرام .. كل الناس يقولون انه حرام .. ثم انه يعتدى

الى حق رجل آخر ، والاعتداء على حقوق الغير حرام ، لأن فيه ايذاء ..

ــ ولكن ما هو حق الغير الذى اعتدى عليه ؟

ــ ان هذه المراة ملك لرجل آخر ..

ــ كيف تكون المراة ملكا لرجل .. انها ليست متاعا .. انها شخصية كاملة مستقلة .. وقد تزوجت بلا حب .. بل لم تختر زوجها .. اختاروه لها .. وتزوجت لأنها كان يجب أن تتزوج .. تماما كما يلتحق الشاب بوظيفة .. والوظيفة لا تمنعها من الحب .. ان الموظفة عندما تحب لا تعتبر انها خانت مدير الشركة .. ولا يعتبر حبيبها معتديا على حقوق الشركة .. وهذا الزواج ليس سوى شركة .. شركة لتربية الأولاد ، وللسعى فى الحياة .. وهذا الزوج ليس سوى مدير الشركة !! و .. ويخاف هذا المنطق .. ويرفع عينيه الى السماء كأنه يبحث عن جواب لحيرته .. ويطن صوت فى أذنيه كالصراخ :

ــ لا .. الزواج ليس وظيفه .. انه ليس مجرد شركة .. انه ذوب شخصين فى كيان اجتماعى واحد .. وانت لا تعتدى بحبك على الزوج لوحده ، انك تعتدى على المجتمع ...

ويشتد خوفه .. فيهرب من حبه .. يهرب من حبيبته .. ثم لا يلبث ان يغلبه حبه ، فيعود اليها .. ثم يهرب مرة اخرى .. الحلال يشده من ناحية والحرام يشده من ناحية اخرى .. وهو حائر .. ولم يعد يحتمل حيرته .. مرض .. اصيب بالسل .. وترك السل يسعى فى رئتيه حتى أشرف على الموت ..

وذهبت الى زيارته وهو راقد فى فراشه ..

وقال لى ، وعلى شفتيه ابتسامة ضعيفة تطل على وجهه الأصفر :

ــ اتعلم ما هى الفترت السعيدة التى عشتها .. انها الفترات

التى كف خلالها عقلى عن النقاش ، وخلصت روحى الى الله .. فاستكانت ، وهدأت .. يبدو اننا يجب أن نلغى عقولنا حتى نتمتع براحة الايمان ..

قلت وانا أشفق عليه :

ـــ ان الذين يضعون العقل فى خدمة الروح يصلون الى الايمان .. والذين يضعون الروح فى خدمة العقل ، يحتارون . ويتعبون .

قال :

ـــ ماذا تقصد ؟ !

قلت :

ـــ ان الايمان راحة للنفس : يجب ان تسلم به قبل ان تفكر .. ثم بعد ذلك تفكر فى حدود هذا الايمان .. ان الايمان كالدواء الذى يكتبه لك الطبيب .. والطبيب هنا هو الله .. وانت لا تناقش الدواء قبل أن تتناوله .. لا تسأل عن مركباته وكيفية صنعه .. ولو سألت .. تعبت ، واحترت .. انك لست كيميائيا .. وربما ادى بك السؤال ، الى رفض الدواء ، وعز عليك الشفاء ..

ونظر الىّ كأنه لم يفهمنى ، ثم قبض على يدى بيده الهزيلة المعروقة ، وقال وعيناه تلمعان :

ـــ كيف تفرق بين الحلال والحرام ؟

قلت :

ـــ ان التعاليم التى تتلقاها والتى تفرق بين الحلال والحرام وضعت لتنظيم المجتمع .. انها كقوانين المرور .. انهم يحتمون علينا ان نسير على اليمين ، مع أن السير على الشمال ليس مستحيلا .. ولكننا نسمع الكلام ونسير على اليمين حتى لا يصطدم بعضنا ببعض .. انه مجرد تنظيم لتحركات المجتمع .. اما من ناحية الفرد .. فان كل آدمى فيه لمسة من الله تسمى الضمير .. وهذا الضمير هو الذى يفرق بين الحلال والحرام .. الحلال هو

لا يؤذى نفسك او غيرك ، والحرام هو ما يؤذيك او يؤذى غيرك والضمير هو مقياس حساس لما تسببه تصرفاتك من أذى ..

قال وهو يرتعش :

ـــ هناك افراد بلا ضمير ..

قلت :

ـــ هؤلاء قد تخلى عنهم الله .. فلم تعد لهم مشكلة ..

وسكت طويلا وانفاسه الضعيفة تتمزق على شفتيه . ثم برقت عيناه كأنه رأى امامه نورا ، وقال كأنه لا يتعمد أن يسمعه احد :

ـــ هناك حقيقة واحدة لا تحتمل النقاش ..

قلت :

ـــ ما هى ؟

قال وظل ابتسامة يكسو وجهه النحيل :

ـــ الموت !! ..

ثم التفت الى مرة واحدة ، وعاد يقبض يدى بعنف ، قائلا :

ـــ انى اريد الموت .. اتدرى لماذا ؟

قلت وانا اربت على يده واحاول ان ارفه عنه بابتسامتى :

ـــ لماذا ؟

قال :

ـــ لانى بعد الموت سأعرف ما هو الحلال والحرام .. و ..

وسكت برهة .. ثم ازداد اتساع عينيه واشتد بريقهما ، وصرخ :

ـــ هل سأعرف .. هل هناك بعد الموت .. و ..

وقاطعته بسرعة :

ـــ نعم .. ستعرف .. ستعرف ..

والقى رأسه على الوسادة فى اعياء ، وتمتم :

ـــ لا ادرى ..

لا .. ليس جســدك

كان ذلك فى عام ١٩٤٧ ..

وكنت لا ازال وكيل نيابة بندر السويس ..

وجاءنى اشارة بأن امراة القت بنفسها من الدور الثانى من مبنى قسم البوليس ، قاصدة الانتحار ، وذلك اثناء اخذ أقوالها بمعرفة الضابط النوبتشى ..

وانتقلت فورا الى قسم البوليس ، ودخلت الى غرفة المأمور .. وكنت أعرفه .. انه رجل يحاول ان يطابق شاربه على الطــراز الانجليزى ، ويدخن البايب ، ويشرب الويسكى ، ويلوى لسانه عندما يتكلم .. وكان بحكم عمله فى السويس متصلا بالضباط الانجليز .. ضباط الاحتلال .. وزاده اتصاله بهم تقليدا لهم .. واستقبلنى المأمور مرتبكا .. والواقع أن كل ضباط وجنود قسم البوليس كانوا مرتبكين ، فان محاولة امراة للانتحار اثنــاء أخذ اقوالها ، معناه الذى يتبادر الى الذهن ، انها تعرضت للتعذيب والاعتداء عليها .. وهى تهمة خطيرة يمكن أن تسبب ارقا لرجال البوليس ، اذا وصلت الى رجال النيابة ..

وكان اشد الجميع ارتبــاكا هو الضــابط الذى كان يتــولى استجواب الفتاة قبل أن تلقى بنفسها من النافذة .. وهو ضابط من خريجى كلية الحقوق ، لا كلية البوليس .. وكان ضباط الحقوق متهمين من زملائهم بأنهم تنقصهم الروح العسكرية ، وأصول

الضبط والربط ، وانهم يخافون القانون الى حد أن يعجزوا عن التلاعب به ، فلا يستطيعون أن يحولوا الجناية الى جنحة ، والجنحة الى مخالفة ، كما كانت عادة رجال البوليس عنــدما يحاولون اقناع الناس باستتباب الأمن ، فيشطبون الجنايات من دفاترهم ..

وانطلق الضابط فورا ، وقبل ان أسأله ، يقسم لى أن الفتاة لم تتعرض للتعذيب ، وأن احدا لم يمد يده عليها ، وأنه كان يحرر لها محضر تشرد عندما فوجىء بها تقفز من امام مكتبه ، وتلقى بنفسها من النافذة ..

وانتقلت الى المستشفى الذى نقلت اليه المنتحرة ، وجاء معى المأمور وضابط القسم . ولدهشتى الشديدة وجدت الفتاة سليمة ، لم تصب الا بخدوش بسيطة ، وعلمت أنها سقطت من النافذة ، جالسة على كوم من نشارة الخشب ، فنجت من الموت وسألتها لماذا حاولت الانتحار ، فرفضت أن تجيب ، واكتفت بأن قالت :

— أبدا يا سيدى .. زهقانه من دنيتى !

قلت فى الحاح :

— زهقانه من ايه ؟

قالت وهى تردد :

— من عيشتى ..

قلت :

— بعد ضربك ؟

قالت وهى تدير راسها :

— أبدا .. ما حدش ضربنى !

قلت :

— ما حدش ضايقك فى قسم البوليس ؟

قالت :

ــ ابدا ..

وهنا استراح وجه المأمور وضباطه ، واعتبروا الموضوع قد انتهى بالنسبة لهم ، وانصرفوا ، وبقيت وحدى مع الفتاة ابحلق فى وجهها كأنى احاول ان التقط سرها من عينيها .. وجه اصفر نحيل .. وعينان عميقتان ، سوادهما داكن ، وبياضهما ناصع ، يختلط فيهما الخوف بالتحدى ..

ولم اكن فى حاجة لأن يقول لى احد انها مومس .. مومس محترفة رخيصة .. ان كل ما فيها يدل على حرفتها .. وقد كنت دائما اشعر بالعطف على المومسات واعتبرهن ظاهرة من ظواهر فساد المجتمع .. وكانت مومسات منطقة القنال فى تلك الأيام يجتزن حالة ضنك .. فقد كانت هناك ثورة على الانجليز ، واصدرت القيادة امرا بعدم دخول الجنود الى مدينة السويس ، والبقاء داخل المعسكرات خوفا من الاحتكاك بالأهالى .. وكسدت سوق المومسات .. تعرضن للجوع ، والبؤس ، الى حد ان علمت ان المراة منهن كانت تسير بقدميها الى المعسكرات وتقيم فى خيام الجنود اسبوعا او اسبوعين .. وحدها بين عشرين جنديا .. ثم تخرج بما تجمعه منهم من نقود .. ان البغاء يسير دائما فى أقدام الاحتلال ..

واثارت هذه الفتاة مزيدا من عطفى ..

كان فى عينيها العميقتين ، وعلى وجهها النحيل ، من انفاس البؤس والشقاء ، ما اثار انسانيتى وحفزنى الى انقاذها ..

واخذتها معى الى مكتبى ، وبدات اسألها من جديد .. ويبدو انها اطمأنت بعد ان انصرف المأمور وضباطه ، وبعد ان لاحظت انى اعاملها برقة واحترام ، فبدات تتكلم .. قالت لى ان هناك ثلاثة من رجال البوليس السرى يطاردونها ، وكلما راوها فرضوا عليها

ضريبة .. نصف ريال .. ريال .. واحيانا كثيرة لا يكون معها شيء من النقود ، ولكنهم لا يصدقونها ، فيقبضون عليها ، ويوجهون اليها تهمة التشرد .. ويلقون بها فى السجن اسبوعا او اسبوعين .. ولا تكاد تخرج حتى يلاحقونها مرة ثانية .. وكانت هذه هى المرة العاشرة التى يقبضون عليها فيها .. فلم تطق .. وقررت ان تتخلص من حياتها ، فألقت بنفسها من النافذة ..

وثرت .. وقررت ان انقذ هذه الفتاة من جنود البوليس الذين يطاردونها .. وكنت اعلم ان ليس من حق رجال البوليس ان يوجهوا تهمة التشرد الى امراة .. فالتشرد تهمة توجه الى من كان لا عمل له .. وقد حكمت محكمة النقض بأن المراة لا عمل لها اصلا ، فلا تكون ابدا موضعا للاتهام بالتشرد .. ولكن البوليس لم يكن يتتبع أحكام محكمة النقض .. وحتى لو كان يتتبعها ، فهو لن يخسر شيئا اذا سجن الفتاة الى أن تقدم الى المحاكمة .. فترة !

انى لن انقذ الفتاة فحسب .. بل سأنقذ ايضا احكام محكمة النقض ..

وسجلت اقوالها ، ثم طلبت منها ان تسمى شاهدين .. يمكن ان يشهدا على ان رجال البوليس تعودوا ان يأخذوا منها رشوة ..

وعينت شاهدين .. ولكنهما كانا من نفس بيئتها .. ليس لهما عنوان ثابت ، وكان يجب ان الجأ الى البوليس لاستدعائهما ، والبوليس يعلم أنهما سيكونان شاهدين ضده ، فلن ينفذ طلبات النيابة .. ومرت الأيام ، ومحضر التحقيق مفتوح الى حين استدعاء الشاهدين ..

وفى خلال هذه الأيام كانت فطومة تتردد على مكتبى .. كنت استقبلها دائما ببشاشة ، واحترام ، واسألها عن حالها ،

واطمئنها الى حمايتى لها .. ونشأ بينى وبينها نوع من الالفة .. أو من الصداقة ، لا تقوم ابدا بين هذا النوع من النساء ووكيل نيابة مثلى .. حتى ان عسكرى البوليس المعين على بابى كان يدهش لسماحى لها بالدخول الى مكتبى .. وكان فى كل مرة يحاول ان يمنعها ، وفى كل مرة انهره وآمره أن يسمع لها بالدخول .. ثم فقد مرة اعصابه عندما رآها تلتقط علبة الكبريت من على مكتبى ، وتشعل لى سيجارتى ، فهب فى وجهها فجأة كأنه العاصفة ، ولم ينقذها منه الا ان حلت بينه وبينها ..

ولم اغضب من العسكرى الواقف على بابى ، فقد قدرت فيه غيرته على هيبة رجال النيابة .. ولم اغضب من الفتاة عندما حاولت أن تشعل لى سيجارتى ، فقد كنت احاول ان اعاملها كسيدة ، لعلى أعيد اليها احترامها لنفسها ..

ثم فجأة اختفت فطومة .. لا ادرى اين ذهبت .. ولكنها اختفت .. لم تعد تتردد على مكتبى .. ومع الأيام نسيتها .. نسيت انقاذ البشرية ..

ونسيت انقاذ احكام محكمة النقض ، واختلطت حياتى بعشرات من الجرائم والحوادث الجديدة ومئات من المتهمين والمتهمات .

ثم ، وبعد أربعة شهور .. فقط أربعة شهور .. توجهت الى دار المحكمة ذات صباح ، ودخلت وانا لا اتلفت حولى حرصا على هيبة رجال النيابة .. ولكنى وان لم اكن اتلفت حولى ، فقد كنت ارى ما حولى .. اراه بخيالى .. ارى المتهمين مكومين تحت سلم المحكمة فى انتظار الجلسة واستدعائهم .. وارى بوفيه المحكمة على الناحية الشمال .. وارى مكاتب الكتبة العموميين .. و .. و ..

وصعدت السلم فى هيبة ووقار .. ثم فجأة سمعت صوتا نائحا يصيح :

ـ يا سعادة البيه .. يا سعادة البيه ..

والتفت .. ورأيت امرأة تجرى نحوى ، وعسكرى البوليس يحاول ان يمنعها .. واعتقدت انها امراة تحمل مظلمة تريد ان ترفعها الى فوقفت فى اعلى السلم منتصبا ، كتمثال العدالة .. وعندما رآنى العسكرى ، وقد وقفت ، ترك المراة تجرى نحوى .. فصعدت الدرجات الىّ ، وهى لا تزال تصيح :

ـ يا سعادة البيه .. يا سعادة البيه ..

ونظرت فى وجهها ، وانا لا ازال انتظر المظلمة التى ترفعها الىّ ..

ونظرت الىّ وقالت فى حياء وتردد :

ـ ازيك يا سعادة البيه ..

وتذكرتها .. انها فطومة ..

وابتسمت ابتسامة خفيفة سريعة ، لا تكاد تخرج من بين شفتى ! ..

ومدت فطومة يدها الىّ لتصافحنى وهى تردد :

ـ ازيك يا سعادة البيه ..

وهممت ان امد لها يدى .. وفجأة دفعنى احساس اقوى منى الى ان اتلفت حولى .. ورأيت المتهمين المكومين تحت السلم يتطلعون الىّ فى نظرات عجيبة .. ورجال البوليس يتطلعون الىّ .. وعامل البوفيه واقف فاغرا فاه ، يتطلع الىّ .. والكتبة العموميون يتطلعون الىّ ، وأفراد من الجمهور يتطلعون الىّ .. كلهم يتطلعون .. كأنهم ينتظرون شيئا كبيرا رهيبا .. وخفت .. لا ادرى مم خفت ..

وكانت يدى فى منتصف الطريق نحو يد فطومة لتصافحها ،

وفجأة .. سحبتها .. سحبت يدى .. لم أصافح فطومة .. وادرت لها ظهرى .. وصعدت ..

★★★

لقد مرت على هذه الحادثة الآن ، أكثر من عشر سنوات ، وكلما تذكرتها احسست بشىء يتلوى فى صدرى .. احسست بجرح ينفتح فى قلبى وينزف دما ..

لماذا لم أصافح فطومة .. لماذا ، أيها الجبان .. ؟

واحاول أن اقنع نفسى بأنى لم أصافحها حرصا على هيبة النيابة .. ولكنى لا زلت اشعر بالشىء الذى يتلوى فى صدرى ، والجرح الذى ينفتح وينزف دما ..

لا زلت اشعر بأنى جبان ..

بـــلا قـــانون

الأسطى خليل .. يعمل فى مصنع صغير لسباكة المعادن .. يصنع الملاعق والشوك والأوانى المعدنية .. وهو يعمل بنظام المقاولة .. أى يقدم لصاحب المصنع كمية معينة من الانتاج ، نظير مبلغ معين .. وهذا المبلغ لا يعتبر اجرا ، ولا مرتبا .. ولكنه يعتبر ربحا ..

وكان الأسطى خليل يستخدم — من وطنه — عددا معينا من العمال ، وهو الذى يختارهم ، وهو الذى يدفع لهم أجورهم من قيمة المقاولة .. ويختار دائما عمالا من صغار السن ويدفع دائما أجورا ضئيلة ، وكان الأسطى خليل يضرب عماله ..

ويخصم من أجورهم .. ويطردهم بلا انذار ..

لم يكن يهمه قانون . وواقع انه لم يكن يعرف القانون .. ولم يقراه .. ولم يضطر يوما أن يذهب الى وزارة الشئون أو الى أى جهة تطالبه بأن يعرف القانون .. ولم يكن الأسطى خليل يحس بقسوته على عماله .. لم يكن يعتقد أنه قاس .. بالعكس .. كان يحب العمال .. يحبهم فعلا .. وكان يعتقد انه يضربهم لأنه يحبهم ويخصم من مرتباتهم لأنه يحبهم .. ويطردهم لأنه يحبهم ، انه يحبهم ، كما كان رئيسه يحبه وهو عامل صغير .. وكان رئيسه يضربه ، ويخصم من أجره ، وكان يراه يطرد العامل الكسول المهمل ليحمى بقية العمال من كسله واهماله .. وقد أصبح الأسطى

خليل عاملا كبيرا .. أمهر عمال صناعته .. واصبح يعمل بالمقاولة ، ويستأجر من باطنه عددا من العمال .. وهو لا يزال يعتقد ان سر نجاحه هو الصفعات والشلاليت التى كانت تنهال عليه وهو عامل صغير .. ثم خوفه من خصم جزء من اجره .. وخوفه من ان يطرد .. هذا الخوف هو الذى جعل منه عاملا ماهرا .. وهو يريد كل عماله أن يخافوه .. ان يخافوا الضرب ، والخصم ، والطرد ، حتى يصبحوا مثله عمالا مهرة ..

وكان العمال يخافون الأسطى خليل فعلا .. وكانوا يحبونه .. حبا يغلب عليه الاحترام ..

والأسطى خليل واثق من حب عماله له .. هذا الحب الذى يغلب عليه الاحترام .. لأنه هو أيضا — وهو عامل صغير — كان يحب رئيسه ويحترمه ..

ثم .. صدرت القوانين العمالية الجديدة ..

واممت الشركة التى تملك مصنع سباكة المعادن ..

ولم يفهم الأسطى القوانين الجديدة فهما عاما .. ظل فى حيرة منها ، كأن بينه وبينها ضبابا .. ولم يكتشف الأسطى خليل لماذا لم يستطع فهم هذه القوانين .. ان كل العمال يفهمونها ويهللون لها .. وهو عامل .. طول عمره عامل . فلماذا لا يفهمها ، ولماذا لا يفرح بها .

لم يستطع الأسطى خليل ان يقدر انه ليس مجرد عامل .. انه أسطى .. والأسطوات يمثلون طبقة خاصة داخل مجتمع العمال . وهو ايضا ليس مجرد أسطى ، ولكنه أسطى مقاول .. فهو يمثل طبقة اخرى فى مجتمع الأسطوات .. وانه لهذا .. لم يستطع ان يفهم القوانين العمالية الجديدة فهما تاما ، ولم يستطع ان يفرح كما يفرح كل العمال ، كما انه لم يستطع أن يسخط عليها كما

يسخط أصحاب الشركات .. انه يعيش وقدماه فى أرض العمال ، وراسه تطل من نافذة راس المال ..

وكل ما فهمه الأسطى خليل أن المدير الجديد للشركة — بعد أن اممت — ناداه ، وعرض عليه ان يعمل بمرتب شهرى ، بدل ان كان يعمل بالمقاولة ..

وابتسم الأسطى خليل ..

ان أصحاب الشركة السابقين عرضوا عليه مثل هذا العرض ورفضه .. رفضه بشدة .. انه لو قبل العمل بمرتب فمعنى هذا ان العمال الذين يعملون معه يصبحون تابعين للشركة .. ويصبح من حق مدير الشركة أن يتدخل فى شؤونهم ، وأن يشرف عليهم .. كما يصبح من حق المدير أن يشرف على العمل نفسه ومعنى هذا انه — اى الأسطى خليل — يشدد من قبضة الشركة على عنقه ، ويسلمها اسرار العمل ، فتستطيع أن تتحكم فيه .. وأن تستغنى عنه يوما .. لا .. انه لا يقبل ان يفقد حريته فى عمله الى هذا الحد .. ولا يقبل أن يصبح اكثر حاجة الى الشركة ، من حاجة الشركة اليه .. ولا يقبل بعد هذا العمر الطويل والشقاء الطويل ، أن يعود ليذلل كلما احتاج الى علاوة أو اجازة ..

كان هذا هو موقف الأسطى خليل قبل التأميم ..

ولكنه يحس الآن وهو يحادث المدير الجديد بشىء تغير .. ليست القوانين التى تغيرت .. ولكن وضع المدير الذى يحادثه . ان هذا المدير الجديد لا يمكن ان يكون له مصلحة خاصة فى العرض الذى يعرضه عليه .. كما أنه لم يعد هناك أصحاب للشركة يمكن ان يتعمدوا السيطرة عليه ، واستغلاله .. انه يحس بأن العرض الذى يعرضه عليه المدير الجديد له مفهوم جديد ، ورنة جديدة .. لا تثيره ، ولا تجعله يخاف على مستقبله ..

وكان هذا هو اول ما فهمه الأسطى خليل من الوضع الجديد وقبل العرض ..

ولكن .. المرتب لا يجب أن يقل عن الربح الذى كان يخرج به من نظام المقاولة .. هذا حقه .. لقد وصل الى مستوى معين ، بعرقه وكده .. ويجب ان يبقى فى هذا المستوى .. ان القوانين الجديدة والأوضاع الجديدة لا يمكن ان تأخذ منه شيئا .. لا يمكن ان تتسبب فى الهبوط بمستواه .. انه ليس اقطاعيا ، ولا رأسماليا .. انه عامل يعمل بيديه مع بقية عماله .. كل قرش يكسبه بجهده .

واخذ يساوم المدير على مرتبه .. فى حدة ..

وقدر له المدير قيمة المرتب ، واخذ يعدد له المزايا التى تمنحها له القوانين الجديدة .. تخفيض ساعات العمل .. الاشتراك فى الربح .. التأمينات الاجتماعية .. العلاوات .. و .. وفهم الأسطى خليل القوانين اكثر .. واتفق على المرتب .

وعندما عاد الى عماله .. أحس انه قريب منهم أكثر .. أحس بفرحتهم .. وفرح معهم .. ولكن .. المدير الجديد يصمم على الاستغناء عن العمال الصغار الذين تقل اعمارهم عن خمسة عشر عاما .. لماذا ؟ القانون ..

ولكن كيف نخلق العمال المهنيين اذا لم نبدأ فى تدريبهم مذ سن السابعة .. انه هو نفسه بدأ العمل وهو فى السابعة .. بدأ يكنس بلاط المصنع .. والأسطى يضربه على قفاه .. ثم ارتفع درجة فبدأ يقف بجانب الأسطى يناوله معدات العمل ، وينقل القطع المصنوعة من مكان الى مكان .. والأسطى يضربه ايضا على قفاه .. و .. و .. وهكذا اصبح عاملا ماهرا ..

ولكن ، يا اسطى خليل .. ان العمال الصغار صحتهم لا تحتمل .. ثم انهم يأخذون رزق عمال كبار أحوج منهم الى الرزق ..

وصرخ الأسطى خليل :

ـ العيال صحتهم زى البمب .. دول بياكلوا الحديد .. والكبار لاقيين شغل والحمد لله .. المهم اننا نطلع عمال جداد .. حيطلعوا ازاى اذا ما اتعلموش من صغرهم .

وابتسم المدير :

ـ يتعلموا فى المدارس .. وفى مراكز التدريب .

وهز الأسطى خليل كتفيه :

ـ ابقى قابلنى ..

ولم يقتنع الأسطى خليل تماما ، بعدم تشغيل الأطفال .. لم يقتنع بأن المدارس ومراكز التدريب يمكن ان تخرج عاملا فالحا .. ولكن .. لما نشوف !

وعاد الى عمله ..

وشىء لم يفقده ابدا الأسطى خليل .. غيرته على العمل .. ان العمل بالنسبة له هو كرامته ، وهو شرفه ، وهو متعته .. وهو بعد التأميم ، كما كان قبل التأميم لا يهدأ .. لا يضيع دقيقة واحدة من وقت العمل فى غير العمل .. وهو يريد من كل عامل معه أن يكون مثله .. ولكن العمال يتهاونون .. ويتكاسلون .. ويتحركون كأنهم يتمشون فى شارع ٢٣ يوليو ..

ويصرخ الأسطى خليل :

ـ يا واد اتحرك .. ده انا لما كنت فى سنك كنت باخد تلاته صاغ فى اليوم .. وانت دلوقت بتطلع بعشرين قرش .. اتحرك ..

ويسمع العمال صوته فيتحركون ، ثم لا يلبث كل منهم أن يعود الى تهاونه وتكاسله .. وفى مرة رفع الأسطى خليل كفه ليصفع احد العمال ، وامسك العامل باليد التى تحاول أن تصفعه ، وقال فى هدوء :

— بلاش الحاجات دى يا اسطى .. ما يصحش ..

وجن الأسطى .. وصرخ فى العامل :

— اطلع بره .. انت مالكش شغل معايا ..

ولكن ..

ممنوع الرفت .. وممنوع الضرب ايضا ..

وصرخ الأسطى :

— امال حانشغلهم ازاى .. دول حراميه .. بيسرقوا مال الحكومه .. اللى ما يشتغلش ويقبض يوميته ، يبقى حرامى .. يبقى بيسرق .. لازم يتربى .

وجاءه الرد :

— بالقانون !

وبدأ الأسطى خليل يدرس القانون ..

ولم يقبل على فهم القوانين ليعاقب بها العمال .. ولكن لأنه خشى على نفسه .. خشى أن يستمر تهاون العمال دون أن يكون هناك رادع لتهاونهم فتكون النتيجة أن ييأس من تشغيلهم .. وييأس من العمل نفسه ، فيشاركهم فى تهاونهم .. يصبح هو الآخر عاملا متهاونا .. ويفقد شرفه وكرامته .. ويفقد أيضا متعته الكبرى .. متعته التى يعيش بها ولها .. متعة العمل .. ووجد الأسطى خليل فى القانون علاجا لكل حالة .. القانون يعالج العامل المتهاون ..

يعالجه بالخصم من مرتبه .. وبالطرد .. و .. و .. وقرر الأسطى خليل ان يطبق القانون .. وطبقه فعلا .. وعرف بقسوته بين العمال ..

وقد كان دائما معروفا بقسوته ، ولكنه كان يحس بأن العمال يحبونه رغم قسوته .. ولكنه الآن لا يحس بحبهم .. انه يحس كأنهم يكرهونه .. ويدسون له عند المدير .. ويكتبون ضده التقارير .. و .. و .. لا يهم .

ليكرهه العمال .. المهم ..

هو ألا يتستر على تهاونهم ، ولا يشاركهم فيه .. ولكن .. القانون يبيح ايضا منح المكافآت للعامل الجاد المنتج ..

وبدأ الأسطى خليل يطلب مكافآت للعمال المجدين .. ولكنه كان ضنينا .. وكان لا يترك لعواطفه ان تقوده وهو يطلب مكافأة لأحد العمال .. عواطفه ليس لها دخل فى عمله وليس لعواطفه ان تقوده وهو يطلب مكافأة لأحد العمال عامل منتج وعامل غير منتج .

وهو لا يزال يحس أن العمال يكرهونه ..

وانتهى به هذا الاحساس الى أن يصبح انسانا كشرا .. فقد ابتسامته .. وفقد ضحكته العالية .. وفقد مرحه .. أصبح وهو فى العمل مقطب الحاجبين دائما ، فاذا عاد الى بيته أحس أنه انسان وحيد وصدره ضيق ، وأعصابه متوترة .. يشخط فى زوجته ، ويشخط فى أولاده ، ثم يحس برغبة فى البكاء .. واحتمل كل هذا ..

وكل ما يعوضه ، هو أن انتاج القسم الذى يشرف عليه ، هو أعلى انتاج بين جميع الأقسام وأن عماله معروفون فى جميع المؤسسات بأنهم أكثر العمال نظاما ودقة فى الانتاج ..

ومر عام .. وجرت انتخابات داخل المصنع ، لانتخاب مندوب العمال فى مجلس الادارة . ولم يرشح الأسطى خليل نفسه .

انه يعرف أن العمال لا يحبونه ، ولا يريدون اسطى مثله يمثلهم فى مجلس الادارة . انهم يريدون اسطى يتستر على تهاونهم ، يخضع لنزواتهم ولا يحاسبهم على انتاجهم .

وجاءه بعض العمال يرجونه أن يرشح نفسه ..

لا .. هؤلاء المنافقون ، انهم يحاولون التقرب اليه حتى يتهاون معهم ، أو لعلهم يريدون ان يخدعوه .. أن يكيدوا له .. يرجونه

ان يرشح نفسه جتى اذا قبل تخلوا عنه وتركوه يسقط ليفضحوه امام بقية الأسطوات وأمام مديرى الشركة .

لا .. انه أعقل واكثر حذرا مما يظنون ..

وجرت الانتخابات .. و ..

فاز الأسطى خليل .. فاز رغم أنه لم يرشح نفسه .. ولم يصدق ..

والتف حوله العمال يهنئونه .. ويبتسمون .. انهم يحبونه . لم يكن يعلم أنهم يحبونه الى هذا الحد .. واغرورقت عينا الأسطى خليل بالدموع .. وابتسم .. لقد أوحشته ابتسامته ..

المنافقة

كانت تروح وتجىء فى غرفتها بقميص النوم ، وشعرها مهدل فوق جبينها ، وحاجباها معقدان فوق عينيها وشفتاها مزمومتان ، وتضغط بأصابعها فوق ذراعيها ، كأنها تحاول أن تخنق الدم فى عروقها ..

ثم فجأة توقفت .. وبحثت فى دولابها عن ورق وقلم ، وجلست فوق سريرها واسندت ظهرها الى الحائط ، ثم جذبت الكتاب الموضوع تحت الوسادة ، وأسندته الى ركبتيها ، ووضعت فوقه الورقة ، وبدأت تكتب .. بلا تردد ، ودون أن تتوقف لتختار الكلمات .. ان الكلمات تتدفق من تحت طرف القلم ، كأنها كانت تختزنها من زمن طويل .. تختزنها لهذه اللحظة ..

« عزيزى ..

« مضى على أسبوع وأنا لا أخرج من غرفتى .. وأفكر .. وافكر .. ولم اكن افكر فيك ، انما كنت أفكر فى نفسى .. ربما لأنك لست مشكلتى .. ولكن مشكلتى هى نفسى .. نفسى التى احبتك .. هل حقيقة احببتك ؟ .. كل هذه السفالة واحبك ؟ ! كل هذا الخداع واحبك ؟ ! كل هذه الأنانية والنذالة والكذب .. واحبك ؟ .

« مستحيل .. مستحيل أن أحب انسانا مثلك .. وقد أكون معذورة فى حبى ، لو لم أكن أعرف انك سافل ، كذاب ، مجرم .. ولكنى أعرف .. فما هو عذرى .. كيف ابرر هذا الحب أمام

نفسى .. هل الومك .. هل اعاتبك .. لا .. انك لا تستحق لوما ولا عتابا .. بل ليس من حقى ان الومك .. انت حر .. حر فى سفالتك .. انما من يستحق اللوم هو انا .. نفسى .. نفسى التى احبتك ..

« ولكنى لا استطيع ان اصدق انى احببتك .. انى دهشة .. صدقنى ، ان كل ما احس به هو الدهشة وقد قادتنى الدهشة الى ان أبحث فى أعماق نفسى عن سر هذا الحب .. حبى لك .. واكتشفت فى نفسى اشياء زادتنى دهشة ..

« لقد رايت نفسى وانا فى الرابعة عشرة من عمرى طالبة فى مدرسة الليسيه . وقد بدات فى هذا العمر ارسم احلامى .. وكانت احلامى دائما تدور حول شاب طويل ، اسمر ، يركب سيارة « ثندربيرد » بيضاء .. يقودها بسرعة مائة وعشرين كيلو فى الساعة .. وانا جالسة بجانبه ، وشعرى يطير فى الهواء .. ويأخذنى الى قصر فى شارع الهرم ، او فى المعادى .. ويعرفنى بأمه .. سيدة رائعة بيضاء .. ولا ادرى لماذا كنت اصر على ان يكون ابنها اسمر .. وكنت أراها فى أحلامى ترتدى دائما ثوبا اسود ، وحول عنقها عقد من اللؤلؤ خمسة افرع ، وفى اصبعها ثلاثة خواتم .. فى كل منها فص كبير من الماس .. واتقدم اليها ، فتأخذنى فى احضانها وتقبلنى ، ثم تخلع من اصبعها احد الخواتم الثلاثة ، وتضعه فى أصبعى .. ثم انسحب من امامها ، ويأخذنى الشاب الطويل فى سيارته « الثندربيرد » ، لنتناول الشاى فى نادى الجزيرة .. وينظر بنات النادى الى الخاتم فى أصبعى ، والى الشاب الذى يصحبنى ، ويشهقن .. لم اكن احلم بنظرات الرجال ، ولكنى كنت احلم بنظرات البنات .. وارى الشهقة والحسد فى عيونهن ، فأفرح بحلمى ..

« وقد عاش معى هذا الحلم حتى بلغت السادسة عشرة ، ورايتك .. انت .. الشاب الطويل الذى يملك سيارة « ثندربيرد » بيضاء ! ..

« واحببتك !!

« لم اتردد .. ولم يكلفنى حبك سوى نظرة واحدة اليك ، والى سيارتك .. واندفعت معك .. اندفعت لارسم بقية حلمى .. لتعرفنى بأمك حتى تضع فى اصبعى خاتمها الماسى .. ولكن امك كانت فى آخر طريق طويل .. طريق مزروع بسفالتك ، وبكذبك ، وخداعك .. طريق لا استطيع ان امشى فيه اكثر مما مشيت ..

« وبدات اتعذب .. اتعذب بحبك .. ثم بدات اسائل نفسى عن سر هذا الحب .. وابحث فى اعماقى عن جذوره ..

« واخيرا عرفت .. عرفت انى لا احبك .. ولم احبك ابدا ..

« لقد كنت احب سيارتك .. وكنت احب اسم عائلتك .. وكنت احب ثراءك .. واحب المجتمع الذى تعيش فيه ..

« انى لا احبك انت .. لو لم تكن تملك سيارة لما احببتك .. ولو كان اسمك احمد محمد ، لا حسام شرف الدين ، لما احببتك .. ولو لم تكن من اعضاء نادى الجزيرة لما احببتك .. ولم يكن حبى لك الا نفاقا ..

« لم أنافقك أنت .. ولكنى كنت انافق نفسى .. فانى لم اكن استطيع ان اواجه نفسى بأنى احب السيارات او انى احب الثراء .. فاقنعت نفسى بأننى احبك انت .. أحب فيك الانسان .. لا السيارة ولا الثراء .. وصممت على هذه الكذبة الكبرى ، حتى صدقتها .. واقتنعت بها .. وآمنت فعلا بأنى احبك .. وتعذبت ..

« هل فهمتنى .. لقد أسميت طموحى ، حبا ..

« اسميت الجشع ، حبا .. اسميت التظاهر ، حبا ..

« وانا التى خدعتك .. خدعتك عندما خدعت نفسى .. انا السافلة ، المجرمة .. المنافقة !

« انى أعترف لك الآن بأنى لا احبك .. ولم احبك ..

« وهو اعتراف يريحنى .. اعتراف ليس لك فحسب ، ولكنه أولا اعتراف امام نفسى .. انى أستطيع الآن أن انام مطمئنة وانا واثقة من أن نفسى لا يمكن ان تحب انسانا سافلا مثلك .. نفسى ليست من الضعف والمهانة الى هذا الحد .. كل ما هنالك انى ضحكت عليها .. ضحكت على نفسى ، وخدعتها ، يوم اقنعتها بأنى احبك .. لا .. انى استطيع الآن ان اضربك بالشلوت .. ان اخرجك من حياتى بكل بساطة .. وان كنت اريد سيارة ، فأصحاب السيارات كثيرون .. على قفا من يشيل .. وان كنت اريد اسما كبيرا ، فأصحاب الأسماء الكبيرة اصبحوا يباعون فى ســوق الكانتو .. وان كنت أريد عضوا فى نادى الجزيرة ، فأعضاء النادى متطوعون كثيرون كالأحذية فى فترينات شارع قصر النيل ، لا يكلفنى الواحد منهم الا أن اقبصه على قدمه ..

« وداعا .. وداعا أيها السافل .. والحمد لله ..

انى قد اكون خسرت صفقة تجارية ولكنى لم اخسر قلبى ..

و ..

★★★

وتوقفت عن الكتابة ..

وأعادت ما قراته ..

وتعقد حاجباها مرة ثانية ، وزمت شفتيها ، واخذت تنقر بالقلم والورق نقرات عصبية ، وراحت فى تفكير عميق ..

وفجأة خرجت من تفكيرها ، ومزقت الخطاب الذى كتبته ، ثم قفزت من فوق السرير ، واندفعت نحو التليفون ، وادارت رقما ، ثم قالت فى صوت رقيق وهى ترسم ابتسامة فوق شفتيها :

ــ حسام موجود من فضلك !!

رجـــل أعلن اســـلامه

ان فى القاهرة ثلاثة ملايين قصة .. واكثر .. ان كل انسان يمر بك هو قصة .. قصة تختفى خلف وجه .. فاذا ما استطعت أن تطل خلف هذا الوجه ، رأيت حياة عجيبة .. حياة لا تخطر ببالك .. حياة لم تكن تعتقد انها تعيش فى القاهرة .. وتذهل ! .

وأنا اذهل كلما سمعت قصة عجيبة تعيش فى المدينة التى أعيش فيها .. ويبدو انى سأقضى عمرى كله مذهولا .. فانى مهما عشت لن أستطيع أن أستمع الى خمسة ملايين قصة .. ستبقى دائما قصة لم اسمعها بعد ..

وهذه قصة جاءتنى فى خطاب من الدانمرك ..

صاحب الخطاب جندى من جنود البوليس الدولى .. والفتاة التى تشاركه قصته أعرفها .. ولكنى لم أكن أعرف أبدا — ولا اتخيل — انها تخفى خلف وجهها هذه الحياة ..

واقرأوا معى هذا الخطاب ..

احببت القاهرة .. انها مدينة تأخذ القلب .. وقد عشت فيها وقلبى مأخوذ ، أسير فى أحيائها كأنى اسير فى مدينة مسحورة بنيت فوق السحاب .. كل ايامى فيها كانت أشبه بالخيال .. ثم أفقت من خيالى يوما لأكتشف أن قلبى سقط منى .. سقط فى يد فتاة من القاهرة ..

ولم يكن حبى مجرد خيال انسقت فيه .. أحببتها .. لم احبها

كسائح .. لم احبها كمغامر .. لم اخضع لنزوة اثارها الجو الشرقى المثير الذى احاطتنى به القاهرة .. لا لقد احببتها بعقلى .. بكامل وعيى .. احببتها كأنى عشت معها العمر كله ، كأنها فتاة من الدانمرك ، او كأنى شاب من القاهرة ..

وتسلل الحب فى بساطة .. دون ان أدرى انه الحب ..

التقينا فى حفلة ، وقدمها الى زميلى فى فرقتى ، كانت له صديقة يعرفها .. وقضينا المساء كله نتحدث .. حديثا عاديا مهذبا .. ثم التقينا نحن الأربعة — زميلى وصديقته ، وهى وانا — فى اليوم التالى .. وفى اليوم الذى يليه التقينا وحدنا ، ورحنا نطوف بمعالم القاهرة ، والحديث بيننا لا ينقطع .. حديث طويل يمكن ان يستمر العمر كله .. ولا أذكر عما كنا نتحدث ولكنها مثقفة .. اكثر ثقافة من اى بنت فى الدانمرك .. وكان حديثا كله ثقافة ..

وقضينا بعد ذلك اسبوعا نلتقى فيه كل يوم .. وقدمتنى الى عائلتها .. عائلة بسيطة طيبة .. كنت أشعر وانا جالس بين افرادها كأن الدنيا كلها حلوة آمنة ، ليس فيها مشاكل ، ولا حروب .. ثم ..

انتهت اجازتى وعدت الى فرقتى المعسكرة فى غزة .. وتركت حبيبتى .. تركتها دون أن نتبادل كلمة حب .. بل دون أن انتبه الى أنى أحبها ..

وهناك .. وسط الجنود ، ووسط الصحراء .. بدأت استعيد ايامى معها ، ثم وجدت نفسى أسير هذه الأيام .. لا استطيع أن اتحرر منها ، ولا أستطيع أن افكر فى غيرها .. لم يعد لى يوم اذكره واعيش فيه الا يوم قضيته معها ..

وحاولت أن أنسى .. حاولت أن اقنع نفسى انه لم يكن بينى

وبينها سوى صداقة دفعتنى اليها غربتى عن بلدى وعن اهلى . . . حاولت كثيرا . . ولكنى لم اســتطع . . وعرفت . . عرفت انى احبها . .

وبلغت بى لهفة الحب الى حد أن فررت من فرقتى . . فررت من واجبى كجندى . . وعدت الى القاهرة . . اليها . .

ولم احاول الاختفاء فى القاهرة . . بل انى لم احس باحساس الجندى الهارب حتى اختفى . . كل ما كنت احس به انى اريد ان اراها ، وان ابقى معها . .

والتقينا . . وبدأ حديثنا الطويل ينقطع ، وكل منا ينظر الى الآخر ، كأنه حائر فيه . . حائر فى عواطفه نحوه . .

وبدأت يدى تلمس يدها لمسات سريعة ، فتنتفض يدها فى يدى ، ويكتسى وجهها بلون الورد . .

هل هى تحبنى ؟

لا ادرى . . لا ادرى ولا استطيع ان اعيش معها العمر كله ؛ وانا لا ادرى . . فكان يجب ان اسألها . . ولكن اخاف ان اسألها . . اخاف من جوابها . .

وبدأت احدثها عن حياتى الخاصة ، التى لم اكن قد حدثتها بها من قبل . .

قلت لها انى متزوج . . فلم يبد على وجهها الذعر ولا الهلع .

وقلت لها انى اب لأربعة أولاد اكبرهم فى العاشرة من عمره .

فابتسمت فى حنان . .

وقلت لها انى منفصـــل عن زوجتى رغم اننا لم نطلق . . فدهشت . . ولكنى شرحت لها حياتنا فى الدانمرك . . ان كثيرين من الأزواج منفصلون عن زوجاتهم دون طلاق . . كل منهم له حياته الخاصة . .

وصدقتنى . . ثم قلت لها انى احبها . .

وترددت قليلا ، ثم ابتسمت وقالت :

ـ انى سعيدة بحبك لى . .

ولم افهم ما تعنيه . . ولم تحاول هى أن تعيننى على الفهم . . واخيرا قلت لها :

ـ انى أريدك زوجة . .

وتعقد جبينها كأنها غضبت ، ثم قالت :

ـ انك لم تعلم مدى حاجتك الى الزواج بى ، الا بعد ان تطمئن على مصير اولادك من زوجتك . .

وسكتت . . سكتت دون ان ادرى اذا كانت موافقة على الزواج ام ليست موافقة . . وكل هذا حدث خلال شهرين عشتهما معها فى القاهرة ، هاربا من فرقتى . . ثم قررت ان اعود الى الفرقة لأسعى الى العودة الى بلدى ، حتى اقرر مصير زوجتى وأولادى ، ثم أعود الى حبيبتى . .

وسافرت الى غزة . .

وهناك اكتشــفت أن فرقتى قد غادرت غـــزة ورحلت الى الدانمرك . .

واكتشفت اكثر من ذلك .

اكتشفت أن القيادة العسكرية ، بعد ان عجز البوليس الحربى عن العثور على ، اعتبرتنى مفقودا . . كأنى قتلت . . مت . .

وعندما اكتشفت القيادة انى لا زلت على قيد الحياة قبضوا على . . ادخلونى السجن باعتبارى جنديا هاربا ، ثم ارسلونى الى الدانمرك لأحاكم هناك . .

وعندما وصلت الى بلدى ، عرفت ان زوجتى قد بدأت فى اتخاذ

اجراءات الطلاق باعتباري مفقودا ، وبدات تطالب باسم أولادي .. بالمكافأة التي يصرفها الجيش للمفقودين من الجنود ..

وخاب امل زوجتي عندما راتني امامها .. لا زلت حيـــا .. ولكني طمأنتها ورجوتها أن تعتبرني ميتا وساعدتها على اجراءات الطلاق ، وتعهدت لها بما يكفيها ، ويكفي أولادي العمر كله ..

وقدمت الى المحاكمة .. وحكم عليّ بالسجن سنة .. أنا الجندي الهارب ..

اتدري ماذا قال المحامي دفاعا عني وهو يلتمس الى البراءة .. قال اني وقعت اسير سحر القاهرة ، الى حد اني نسيت واجبي ..

المهم .. لقد قضيت العام في السجن وانا احاول أن انسى حبيبتي .. وانسى القاهرة .. لم أرسل لها اى خطاب خلال هـــذا العام .. ولكن .. أتدري ماذا كنت افعل ، وانا اتظاهر بمحاولة النسيان ؟ كنت ادرس الدين الاسلامي !!

قرات القرآن كله .. مترجما .. وقرأت كل ما وصل الى يدي من شروح الاسلام .. وكنت أحس وانا ادرس الاسلام بأني اكتشف دنيا جديدة .. احسست كأني لم أبدا حياتي بعد .. كأني اولد من جديد .. واحسست بقوة .. قوة الاقبال على حياة لم أعشها بعد .. حياة عريضة الآمال كبار ..

وخرجت من السجن .. خرجت وانا اكثر لهفة على حبيبتي .. انني اريدها .. اريدها ليهدأ بالي بعد هذا القلق الطويل الذي عشت فيه .. اريدها لتقف بجانبي في الدنيا الجديدة .. لتشاركني آمالي الكبار ..

وأرسلت لها خطابا طويلا .. قلت لها اني مستعد ان اعتنق الدين الاسلامي ، اذا وافقت على الزواج .. وقلت لها كل ما تريد فتاة أن تعرفه عن الرجل الذي تتزوجه .. عائلتي .. وثروتي ..

وشهاداتي .. و .. و .. ثم قلت لها انني بعد ان اعتنق الإسلام لن استطيع ان اعيش في الدانمرك .. ان في بلادي موجة من التعصب ستغلق في وجهي ابواب الرزق .. ولكني مستعد ان اترك بلدي واعيش معها مسلما في اى مكان من الأرض .. وانتظرت ردها ..

أتدري بماذا ردت على ؟ ..

قالت لي في خطاب قصير : « الدين ايمان ، وليس مجرد اجراء من اجراءات الزواج » ! هذا كل ما قالته لي ، وفسرته في عدة سطور ..

لم تقل انها قبلت الزواج بي .. ولم تقل انها ترفض الزواج بي .. وجننت ..

انها دائما هكذا .. غامضة غموض البرق .. تضع رايها في جمل فلسفية مبتورة كأنها تختبر ذكائي .. كانت تعذبني ..

وارسلت لها خطابا غاضبا ثائرا ، اطالبها فيه بأن تعلن رايها بصراحة .. هل تريدني زوجا ، أم لا تريدني زوجا .. وجاء ردها ..

رد قصير .. اكثر صراحة ، ولكنه لا يخلو من اســـلوبها الغامض ، وعقليتها المتفلسفة ..

قالت لي :

« ان أولادك الاربعة اولى بك مني ، واولى بك من نفسك » !!

وفهمت انها ترفض .. وتملكتني ثورة عليها .. لكن ، لماذا اثور عليها ؟

انها لم تخدعني .. وفي كل احاديثنا الطويلة لم تقل لي مرة انها تحبني .. ولم تعطني حقا تعطيه فتاة لحبيبها ..

ربما كان كل خطئها انها تركتني أحبها ..

لا .. ليس لها ذنب .. انها فتاة رائعة .. فاضلة .. انها غير البنات ..

وكتمت ثورتى ، واغلقت قلبى على حبها ..

اتدرى ماذا فعلت بعد ذلك ؟

اعتنقت الاسلام .. اعتنقته بلا ثمن .. وبلا منفعة خاصة .. اعتنقته لا كاجراء شكلى ، ولكن كايمان .. وهاجرت من بلدى .. احمل اسلامى واضرب فى الأرض .. ولكنى لن أعود الى القاهرة .

بنت تكتب الخطابات

جاءنى هذا الأسبوع خطاب يحمل طوابع بريد هولندية ..

وامسكت بالخطاب .. ونظرت الى الخط المكتوب به اسمى وعنوانى .. وابتسمت .. ثم القيته فى درج مكتبى دون أن افتحه ..

وفى ادراج مكتبى اكثر من مائة خطاب كلها تحمل نفس طوابع البريد .. وكلها تحمل نفس الخط .. كلها لم افتحها ..

انى أعرف من أين تجىء هذه الخطابات ..

انها من فتاة هولندية اسمها « مونجى » .. والاسم له نطق غريب لا تحتمله الحروف العربية : وأقرب الحروف اليه هى « مونجى » !

وقد التقيت بها فى باريس عام ١٩٤٦ ، اى منذ خمسة عشر عاما .. وكنت ازور متحف اللوفر لأول مرة ، واقف مشدوها أمام كل صورة وتمثال .. كانت المرة الأولى التى التقى فيها بهذه اللوحات والتماثيل العالمية التى عشت طويلا أسمع بها .. وكنت انحنى تحت كل لوحة احاول ان اقرأ البيانات المكتوبة عنها .. ولكن لغتى الفرنسية كانت تخذلنى ، فلا استطيع ان اقرأ شيئا ..

ووقفت امام لوحة رائعة للرسام رمبراند .. ان لوحات رمبراند تأخذنى .. تأخذ كل أعصابى وتذيبها فى هذه الظلال الغامقة الداكنة التى اشتهر بها ..

وعرفت أن اللوحة للرسام رمبراند .. ولكنى لم أستطع ان

اقرا اسم اللوحة .. وفتاة تقف بجانبى تتطلع الى لوحة اخرى ، شقراء .. شعرها يميل الى لون الفضة .. هذا اللون الذى تتميز به بنات الشمال .. وصغيرة .. لعلها فى الثامنة عشرة من عمرها .. وليست جميلة .. وجهها اشبه بلوحة تنقصها بضعة خطوط ، حتى تستكمل جمالها ..

التفت اليها وقلت بلهجة آمرة لم اتعمدها ، انما دفعنى اليها اعجابى بلوحة رمبراند :

— ما اسم هذه اللوحة يا آنسة ؟

وبسرعة اقتربت الفتاة منى ، واخذت تحدثنى عن اللوحة وعن رمبراند ، بلهجة انجليزية سليمة ، تكلمت كثيرا كأنها تلقى محاضرة حفظتها عن ظهر قلب .. واستفدت من المحاضرة التى القتها .. استفدت الى حد أنى رجوتها أن تصحبنى فى الطواف ببقية معروضات المتحف .. وقبلت ..

ثم دعوتها لتناول العشاء .. فرفعت الحقيبة التى تتناولها فى يدها أمام عينى ، وقالت :

— ان معى غدائى ..

وانتبهت الى حقيبتها لاول مرة .. انها حقيبة غريبة من خيوط الشباك ، تستطيع أن ترى ما بداخلها .. وفى داخلها اشياء غريبة .. رغيف كبير من الخبز وحذاء اسود ، وكتاب ، ومعطف واق للمطر !

وقلت وانا اضحك واشير الى رغيف العيش :

— اذن .. ادعنى انت الى الغداء ..

ولم تضحك .. انما قالت بحزم :

— آسفة .. ان ما معى يكفينى وحدى !

قلت :

— اذن دعينى اشترى غدائى .. ثم نجلس سويا .. كل منا يتناول ما معه ..

وقبلت ..

وجلسنا فى مقهى صغير ، وطلبت لنفسها فنجالا من القهوة .. واخرجت رغيف العيش من حقيبتها واخذت تقضم فيه ..

ولم يكن فى باريس فى ذلك العام — بعد انتهاء الحرب مباشرة — سكر .. وكانت المقاهى تقدم مع فناجيل القهوة والشاى ، حبوب السكارين .. وكنت أحمل فى جيبى دائما قطعا من السكر احضرتها معى من مصر .. فأخذت قطعة ، واسقطتها فى فنجالها ..

وصرخت فى دهشة :

— سكر !

ثم اسرعت والتقطت بالملعقة قطعة السكر التى أسقطتها فى فنجالها ، وقالت :

— خسارة ان تذيبها مع القهوة ..

ثم وضعت قطعة السكر فى فمها ، واخذت تذيبها تحت لسانها ، وفى عينيها فرحة كفرحة الأطفال ، وعلى وجهها راحة كأنها التقت بحبيب كانت فى شوق اليه ..

ثم قالت وهى تنظر الىّ مبهورة كأنى رجل عجيب :

— من أين جئت بهذا السكر ؟

قلت :

— من مصر ..

وسكتت قليلا ، ثم تقطب جبينها ، واكفهرت عيناها وقالت كأنها تحادث نفسها :

— انكم لم تدخلوا الحرب !

قلت : لقد شاهدناها عن قرب ..

قالت كأنها لم تسمعنى :

— لقد كنتم تأكلون السكر كل هذه السنوات ؟ !

قلت : اننا نزرع القصب ، والسكر يصنع محليا ، ولذلك لم ينقطع عنا خلال الحرب ..

وسكتت ، وعيناها شاردتان ، وجبينها لا يزال مقطبا ، كأنها سرحت وراء ذكريات أليمة ..

وطال صمتها ، الى أن قلت لها فجأة :

ـ لماذا تحملين هذا الحذاء فى حقيبتك ؟

وابتسمت ابتسامة صغيرة ، وقالت :

ـ هذا حذاء للمسافات القصيرة .. وهذا ـ ورفعت قدمها ـ للمسافات الطويلة .

وقلت :

ـ فهمت .. انك فتاة مدبرة !

وهزت كتفيها وقالت بلا مبالاة :

ـ انى مضطرة ان اكون مدبرة ..

وعندما هممنا بالانصراف ، أصرت على أن تدفع حسابها .. ثمن فنجال القهوة الذى شربته ..

واصبحت ارى « مونجى » كل يوم .. نلتقى فى الصباح ، ونفترق قبل ان تغيب الشمس .. وكانت قليلة الكلام عن نفسها كانت لا تتحدث كثيرا الا عندما تسرد معلوماتها عن معالم باريس ومتاحفها .. كأنها ترجمان يصحب سائحا .. وكانت معلوماتها غزيرة .. كانت مثقفة فعلا .. وكانت تتحدث بخمس لغات وتجيد قراءتها وكتابتها على الآلة الكاتبة ..

ولكنى كنت أريدها أن تتحدث عن نفسها .. كنت اريد أن اعرفها .. وبصعوبة قالت لى انها تركت بلدها هولندا فى طريقها الى سويسرا لتلتحق هناك باحدى الجامعات المتخصصة فى تخريج مربيات الأطفال ..

قلت فى الحاح :

ـ لماذا تريدين أن تكونى مربية اطفال ؟

قالت فى اختصار :

ـ لأنى اريد ان اكون مربية اطفال .. أليس هذا كافيا ؟
وسكتت ..

وشردت عيناها ، ثم عادت تقول فجأة بعد فترة صمت طويلة :

ـ ان الأطفال يتعذبون .. انهم يقتلونهم .. ما ذنب الأطفال .. ما ذنبهم يا ربى .. لقد رأيت طفلا فى شوارع امستردام تدوسه دبابة .. وكان اخى الصغير .. و ..

وسكتت .. لم تتم حديثها .. وصحت فيها :

ـ ماذا عن اخيك الصغير .. ؟

قالت وهى سارحة :

ـ لا اريد ان اتحدث .. لا اريد ..

ولم الح عليها .. ولكنها عادت بعد قليل تتكلم ، كأنها تحادث نفسها :

ـ كان اخى الصغير بين ذراعى ، عندما دخل الجندى النازى ولم يكن يهمنى ما يفعله بى هذا النازى ، ولكن اخى الصغير وقع على الأرض .. وكان يصرخ .. وكنت أصرخ فى وجه الجندى : اخى .. اخى .. اخى .. ولكن الجندى لم يرحم صراخى ولا صراخ اخى ..

والقت مونجى رأسها فوق كتفيها ، وقالت :

ـ ربما لا يجب أن أكون مربية اطفال .. انى سأربيهم لأراهم يتعذبون .. لا ادرى .. لا ..

وقطعت حديثها فجأة ، والتفتت الى وهى تنتفض واقفة ، قائلة :

ـ تعال نشاهد سجن الباستيل ..

و .. وبقيت الح على « مونجى » ان تحدثنى عن نفسها ..

عن ابيها وامها ، عن حبيبها .. عن .. عن .. عن .. كنت اريد أن اكتب عنها قصة .. ولكنها كانت ترفض دائما أن تتحدث .. الى أن جاءت يوما والقت الىّ بخطاب ..

قلت :

ـ ما هذا ؟

قالت :

ـ لقد حدثتك عن نفسى فى هذا الخطاب ..

فقلت فرحا :

ـ هل اقراه الآن ؟

قالت فى اهمال :

ـ اذا اردت ..

وفتحت الخطاب بأصابع ترتعش بلهفتى .. وحاولت أن اقرا ..

مستحيل .. انه مكتوب باللغة الانجليزية .. انى استطيع ان اعرف ذلك من بضع كلمات .. ولكن الخط .. انه خط شنيع لا يقرا .. مستحيل ان تقراه .

وقلت لها :

ـ انى لا استطيع ان اقرا خطك ..

قالت فى اهمال :

ـ لا يهم ..

قلت كأنى اصرخ :

ـ كيف لا يهم .. انك كتبته لى .. فعلى الأقل يجب أن تعيننى على قراءته .

فقالت :

ـ لا .. لم اكتبه لك .. كتبته لنفسى .. لقد كنت متضايقة

ليلة أمس ، فجلست اكتب هذا الخطاب .. كأنى احدث نفسى واسترحت بعد أن كتبته .. استرحت كثيرا ..

قلت :

ـ ولكنى لست نفسك ! ؟

قالت :

ـ انى أرتاح اليك كما ارتاح الى نفسى .. اتدرى لماذا ؟ لأنك غريب .. وقد اكتشفت أن الغرباء اقرب الى من الأقرباء .. انك عندما تتحدث الى غريب فكأنك تتحدث الى نفسك ..

وعبثا حاولت ان اقنعها بأن تقرا لى خطابها ، أو تعيننى على قراءته ..

وسافرت « مونجى » بعد ذلك الى سويسرا .. وجاءنى منها خطاب .. نفس الخط الذى لا يقرا .. وكانت احيانا تكتب لى خطابا كل اسبوع .. واحيانا كل يوم .. واحيانا يصلنى منها ثلاثة خطابات فى اليوم الواحد .. وكلها ، لا استطيع ان اقراها .

ولكنى كنت أحكم على حالتها النفسية والعصبية من عدد خطاباتها ، وعدد صفحات كل خطاب اذا زاد عدد الخطابات وعدد الصفحات ، فمعنى ذلك انها فى حالة نفسية سيئة ، وفى حاجة الى ان تكتب الى ، تكتب الى نفسها .. لتستريح ..

***

وعدت الى القاهرة ، وكتبت عن « مونجى » قصة خيالية نشرت فى مجموعة قصص « بائع الحب » .

ولم تنقطع خطاباتها عنى .. ودرت بهذه الخطابات على كثير من الاصدقاء ، لعل منهم من يستطيع قراءتها .. ولكن دون جدوى ..

وارسلت اليها ارجوها واتوسل اليها أن تكتب بخط واضح ،

أو تكتب على الآلة الكاتبة .. ولكن بلا جدوى .. خطاب واحد وصلنى منها عام ١٩٤٧ وفيه بضعة سطور مكتوبة بالآلة الكاتبة .. فقد قرأت فى الصحف أن وباء الكوليرا منتشر فى مصر ، وتريد أن تطمئن الى أنى لم اصب بها ، وانى ما زلت حيا .. واجبتها .. طمأنتها على نفسى ، وعدت اتوسل اليها أن تكتب لى خطابات استطيع أن اقرأها .. ولكن .. لا أمل ..

وقد مرت خمسة عشر عاما ، ولا أعرف عن « مونجى » شيئا ولكن خطاباتها لا تزال تصلنى .. دون أن أقرأها .. دون أن افتحها .. أو أرد عليها ..

ولكنى واثق أنها سعيدة مرتاحة النفس ، هادئة الأعصاب ، لأن خطاباتها أصبحت قليلة .. متباعدة ...

بنت تحب أمهـــــا

عدت من الخارج لاجد فى انتظارى كومة كبيرة من الخطابات .. اخذت اقلب فيها دون أن افتحها .. انى — من كثرة تجاربى — استطيع ان اخمن ما يحمله كل خطاب .. هذا الخطاب يضم قصة يطلب صاحبها نشرها .. وهذا الخطاب يحمل تعليقا سياسيا ، وهذا يحمل مشكلة عاطفية .. وهذا يحمل شكوى عمالية .. و .. و .. وكان بينها خطاب لونه فى لون الورد .. احمر باهت .. وكان قد مضى على سنين طويلة لم أر خطابات بهذا اللون .. منذ كنت اسكن فى حى العباسية ، وكانت لالوان الخطابات معـــان خاصة ..

واحسست ان الخطاب مرسل من العباسية فعلا .. ولكن صاحبه لا يقصد من اختيار لونه اى معنى ، انما يبدو انه وجد الظرف فى احد ادراجه صدفة .. فالظرف يبدو قديما .. الورق عليه بقع من الصدأ .. وعندما فتحته .. وجدت أن الخطاب مكتوب على ورق كراسة من كراسات الطلبة ..

وجرت عيناى الى الامضاء قبل أن أبدأ فى قراءة الخطاب .. هدى .. « وبقية الاسم احتفظ به » ..

اننى أعرف هدى .. أعرفها منذ كنا نسكن معا فى حى العباسية ..

كانت أيامها فى العاشرة من عمرها .. وكنا نسمى بيتهم ..

بيت البنات .. فلم يكن فى البيت كله رجل .. كان الاب قد توفى .. وكن اربع اخوات بنات ترعاهن امهن .. وكانت هدى اصغر اخواتها واجملهن .. ولكنها كانت منطوية .. كانت لا تشــارك الاولاد فى اللعب ..

انها دائما بجانب امها .. ترى ماذا جرى لهدى .. ؟

وقرات الخطاب ..

عزيزى احسان ..

اسمح لى ان اضيع بعض وقتك فى قراءة هذا الخطاب .. فالله وحده يعلم ما كان يمكن ان يحدث لى لو لم اكتب لك .. انى احترق .. كل يوم يمر بى ، أحترق فيه .. ولعلك تشم رائحة الدخان فى سطورى .. انه دخان روحى .. دخان اعصابى .. ولعلك نسيتنى .. انا هدى ..

هل تذكر هدى ؟ وشارع الجنزورى ..

لو تذكرت ، فلعلك تذكر اننا كنا اربع بنات نعيش مع امنا .. ليس معنا رجل .. لا اب ، ولا أخ .. ولذلك فقد نشأت وانا احب كل الرجال .. الصبيان ، والشبان ، والطلبة ، والعمال ، والوزراء .. و .. و .. كل الرجال .. اذا رايت اخا تمنيته أخا لى .. واذا رأيت ابا تمنيته ابا لى .. واذا رأيت زوجا تمنيته زوجا لى .. واذا رأيت رجلا تمنيته لنفسى حتى ولو لم يكن زوجا !

ولكن هذا الحب ظل منطويا فى اعماقى ، لا افصح عنه .. ولا اعبر عنه .. ولا يبدو فى اى تصرف من تصرفاتى .. كان سرا اكتمه حتى عن امى ..

هل تذكر أمى ؟ .. لقد كانت تدللنى وتحبنى اكثر من بقية اخواتى .. ولكنه تدليل من نوع خاص .. تدليل ينضح بالانانية والقسوة .. والارهاب .. لقد كانت تخص أخواتى الثلاث بارهابها

وقسوتها .. أما انا فكانت تكتفى منى بالخوف .. الخوف من ان يصيبنى منها ما يصيب اخواتى ..

وكنت احبها .. ما زلت احبها .. واجتمع الحب والخوف فطويانى تحت شخصيتها .. اصبحت اسيرة لها .. عبدة ..

وكان اخواتى يتحدين امى .. كانت احداهن تحب ابن الجيران والأخت الثانية احبت هى الاخرى ، ودام حبها ست سنوات ، ثم انتقلت الى حب آخر .. وكنت أعلم ان الاثنتين تتحايلان للخروج ولقاء الحب .. بل ان احداهن استغلت مرة ثقة امى بى ، وخرجت معى ، واذا بى افاجأ بها تأخذنى للقاء حبيبها .. وكنت اثور .. كأمى .. كنت أحتقر هذه العلاقات لان امى تحتقرها .. ولانى لا اريد ان تفقد ثقتها بى .. ولكننى كنت فى قرارة نفسى اتململ .. كنت اتمنى ان أتحرر من هذه الثقة التى تضعها فى امى .. اريد ان اذهب أنا الاخرى وابحث عن حبيب .. ولكنى لم استطع ..

الحب والخوف يطويانى تحت جناح امى .. واستغلت أمى هذا الانطواء .. و .. قومى يا هدى اعملى الشىء الفلانى ، وروحى يا هدى .. تعالى يا هدى .. و .. و .. وكنت احيانا اهم بالثورة واقول لها :

ــ اشمعنى انا ؟ .. ما تشتغل اختى شويه .. !

وتقول امى :

ــ لا .. ما حدش لى الا انتى .. انتى الكويسه .. انتى الفالحه .. ربنا يخليكى لى ..

ويضعف قلبى امام هذا الثناء اللئيم ، واخضــع لأمى .. واطلقت كبتى فى استذكار دروسى .. فكنت الأولى دائما .. وحصلت على مجانية التوفق .. واردت ان أستمر فى الدراسة حتى

التحق بالجامعة .. ولكن امى اصرت علىّ ان التحق بالتعليم الفنى ..

وحاولت ان اعارض .. فلم استطع .. ودخلت التعليم الفنى والثورة فى قلبى تشتد .. ولا ادرى كيف اطلقها ، ولا اين اطلقها ، فأطلقتها فى وجه مدرسة الفرنساوى .. لا ادرى لماذا ؟ ولكنى كنت ارتاح عندما اثور عليها .. وعندما اتمارض حتى لا احضر دروسها .. كانت ثورتى على مدرسة الفرنساوى ، تعبيرا عن ثورتى على امى ..

وكنت إغنى ..

كنت اقضى الساعات استمع الى ام كلثوم ، واغنى اغانيها .. ولكن ليس امام امى .. لا استطيع .. ان صوتى ينحبس اذا فاجأتنى اغنى .. بل انها طلبت منى مرة ان اغنى لها .. فرفضت .. خفت ان تخرج منى « آهة » ارق من اللازم ، تفصح عما فى نفسى .. فأفقد ثقة امى ..

وتخرجت ..

واردت ان اشتغل .. ولكن مســتحيل .. امى ترفض .. بكيت .. وتوسلت .. وفكرت فى الهرب .. ولكن امى ترفض .. وجلست عاما بأكمله فى البيت .. ثم غيرت امى رايها .. لا ادرى لماذا .. ربما اشفقت علىّ .. وسمحت لى بالاشتغال ..

ولم اكن استطيع ان احصل الا على وظيفة مدرسة فى احدى مدارس الاقاليم .. ولكن ، لا .. امى ترفض ان اسافر الى الاقاليم .. فاضطررت ان اشتغل فى احدى المدارس الحرة بالقاهرة .. و .. من البيت للمدرسة .. ومن المدرسة للبيت ..

والرجال ؟ .. الرجال الذين احبهم !؟

لقد كان يخيل الىّ انى يجب ان اختار بين الرجال ، وبين الاحتفاظ بثقة امى .. واخترت .. ثقة امى !!

وانا الآن فى الثانية والثلاثين من عمرى ، وليس لى رجل .. اخواتى الثلاث تزوجن ، وكل منهن لها بيت واولاد .. لأنهن لم يحاولن يوما الاحتفاظ بثقة امى .. وانا .. انا وحدى بجانب امى ، محتفظة بثقتها !!

هل احكى لك عن الرجال فى حياتى ..

عندما كنت فى السادسة عشرة من عمرى .. كان يتردد علينا فى فترات بعيده .. قريب لنا .. كان يكبرنى بأكثر من اثنى عشر عاما .. ولم يكن جميلا .. ليس فيه ما يعجب بنتا فى مثل عمرى .. ورغم ذلك احببته .. واقمت له فى قلبى تمثالا اعبده واصلى له .. ربما لأنه كان مجرد رجل .. وربما لأنه كان ذكيا ، حلو الحديث ، وكان يبدى اهتماما كبيرا بى ..

واخفيت هذا الحب الكبير فى قلبى .. لم يحس به احد حتى ولا هو .. كنت الاحظ فى تودده معانى تخربش قلبى ، ولكنى لم اكن أجيب على معانيه .. كنت أخاف .. اخاف أن أفقد ثقة أمى .

وفجأة تحطم التمثال .. تزوج الرجل ..

وبكيت وحدى .. لم ير احد دموعى .. لا اخواتى ، ولا امى .

ورجل آخر ..

قريب لزوج اختى .. كنت القاه عندما ازورها .. وكان مرحا ضحوكا .. وكان لا يخفى اعجابه بى .. واحببته واخفيت حبى .. اخفيته حتى عنه .. خوفا من أن تعلم أمى ، فتمنعه عن زيارتنا ، وتمنعنى من زيارة اختى .. وكنت أسمع كلمات اعجابه واحفظها عن ظهر قلب ، ولفتات عينيه .. ولكنى لا التقى معه فى نظرة .. ولا اشركه معى فى ابتسامة تخصنا وحدنا ، لا .. يجب ان احتفظ بثقة امى .. وفجأة اختفى .. نقل الى بلد آخر ..

وبكيت .. لقد كنت أنتظره ليتقدم الىّ ويخطبنى .. ولكنه ضاع .. وبقيت ثقة امى بى ..

وبعد أن اشتغلت بالتدريس .. دخل حياتى رجلان .. زميلان .. أحدهما ثقيل ، لحوح .. يتمنى ولو مجرد ابتسامة او حتى « سلام صباحى » .. ولم احبه .. ولكنه رجل .. وكفى انه رجل . ورغم ذلك لم أرد على الحاحه .. ولم امنحه « السلام الصباحى » . انى لا أستطيع ان اضحى بثقة امى من اجله ..

والثانى ، رائع .. انه بسيط ، ظريف ، يضحك ويلقى بالنكات التى نضحك لها .. وكلها نكات مهذبة .. واحببته .. احببته بليـلى ونهارى .. ولكنه جـرىء .. جرىء جدا .. واخافتنى جراته .. لم تخفنى منه .. اخافتنى من أمى .. صدقنى كنت كلما لمست تودده الجرىء لى ، خفت من امى ، فأصبحت اتعمد اهماله .. وصده .. حتى يئس منى .. وانصرف عنى .. وبقيت لى ثقة أمى ! ..

هؤلاء هم كل الرجال فى حياتى ..

ولم استطع ان اتحرر من « ثقة امى » لأذهب الى واحد منهم .. بل انى لم استطع ان اتحرر من ثقة امى لأذهب الى السينما .. صدقنى .. لقد طلبت منها مرة ان تسمح لى بالذهاب الى السينما مع زميلاتى ، فرفضت .. وشعرت يومها بالقدرة على الثورة .. فثرت .. وخرجت من البيت رغم ارادتها .. ولكنى لم اكد ابتعد خطوات حتى بدأ حبى لها وخوفى منها ، يغلبانى .. ورغم ذلك استمررت فى طريقى الى السينما ، وخطوة تشدنى ، وخطوة تدفعنى .. والتقيت بزميلاتى ودهشت عندما لمحت وجوههن صافية ليس عليها اثر من المعركة التى تدور فى نفسى .

ان الذهاب الى السينما ليس شيئا بالنسبة لهن .. ولكنه شىء كبير جدا بالنسبة لى ، ويجب ان يكون كذلك بالنسبة لهن ايضا .. واحسست كأنى اتهم كل زميلاتى بالفجور لأنهن يذهبن الى السينما .. وفجأة وجدت نفسى أعتذر لهن ثم ابتعد .. ابتعد عن السينما

وأعود الى البيت .. وادخل حجرتى ، واغلق بابها ورائى .. وابكى !

والآن .. انى فى الثانية والثلاثين وليس لى رجل !

انى كعود الحطب الجاف .. ولكن نفسى لا تزال شابة .. ما زلت احن الى الحب .. حب الأولاد .. وحب الأزواج .. وحب الآباء .. وحب كل شىء ..

لقد تزوجت .. بكل ما فى الزواج من معان كثيرة ، وافعال كبيرة ، ولكن فى الحلم .. لقد أحببت .. وزلت قدمى .. ولكن فى الحلم .. لقد ركبت سيارات الكاديلاك .. ورقصت التانجو .. وسرت مع حبيبى على شاطىء النيل .. فى الحلم .. انى سيدة فى الحلم .. وآنسة فى الحقيقة .. !

وانا اتعذب .. اتعذب بحرمانى .. وبثقة امى ..

موظف فى الصـــعيد

كنت موظفا فى طنطا ..

والحياة فى طنطا ليست عسيرة على موظف اعزب فى الثلاثين من عمره .. الحياة هناك واسعة فيها كل ما يرضى شبابى وما يخفف من وحدتى .. وكل رجل بلا امراة ، وحيد !!

وفجاة .. نقلت الى الصعيد .. ولن اصرح باسم البلدة التى نقلت اليها ، حتى اكون اكثر صراحة فى سرد قصتى .. وقد جزعت عندما بلغنى امر النقل ..

جزعت على شبابى ، وجزعت من وحدتى ..

هناك — فى الصعيد — كل الأبواب مغلقة فى وجه موظف اعزب مثلى فى الثلاثين من عمره .. وخلف كل باب فوهة بندقية .. وفى البندقية رصاصة ثمنها ثلاثة قروش .. تنطلق دفاعا عن الشرف الرفيع . واتشرف بعدها بنشر اسمى على صفحات الصحف فى اعمدة الوفيات ..

مجرد اسماء .. بلا شباب .. بلا امراة ..

بلا شىء من نعم الحياة الواسعة !!

وحملت حقيبتى وذهبت الى الصعيد .. والدموع فى عينى ، والخوف يقتلع قلبى ..

وسرت فى شوارع البلدة وانا مطأطىء الراس .. مسدل الجفون .. انظر الى قدمى . . اخاف أن ارفع عينى ، حتى لا تلتقيا

بوجه امراة تمر امامهما صدفة ، فتنطلق الرصاصة .. ويخسر احد ابناء البلدة ثلاثة قروش !

واخذنى زملائى الى الحاج خليفة البقال ، لأستأجر منه شقة اقيم فيها ..

والحاج خليفة رجل منتفخ .. كل شىء فيه منتفخ .. وجفناه .. عيناه .. شفتاه .. اصابع يديه .. وكرشه الذى ينسدل عليه جلباب ملوث ببقع الزيت .. وحتى عمامته التى تميزه عن اهالى البلدة الذين ليسوا بقالين ، تبدو منتفخة . وكان الحاج خليفة يملك بيتا فى حارة ضيقة يقيم فيه ، ويقع فيه دكانه .. ويملك فى مواجهته بيتا آخر .. من الطين النيىء ، مطليا بالجير ، بيت صغير ، حقير ، مكون من فناء صغير مترب ، تقع فوقه غرفتان ..

واستأجرت هذا البيت الحقير ، بثلاثة جنيهات فى الشهر .. وفرحت به لأنه « بيت من بابه » . لا يشاركنى فيه احد !

ومرت الأيام .. والوحدة تزداد ضغطا على أنفاسى ..

وشبابى المحروم يزدحم فى صدرى ، ويشعل اعصابى .. وانا خائف ..

أسير فى الشارع مطأطىء الرس حتى لا تلتقى عيناى — صدفة — بوجه امراة .. وافتح النافذة لأتنفس هواء الصعيد .. هواء النار .. ثم لا أكاد ارى نافذة أخرى مفتوحة فى البيوت المواجهة حتى أغلق نافذتى .. وكفى الله المؤمنين شر البصبصة !

ثم .. ذات مساء .. عند الغروب .. كنت راقدا فى فراشى أزفر انفاسى المختنقة .. وسمعت صوت الماء ينهمر من الحنفية التى تقع فى الفناء الصغير ..

من يا ترى يأخذ الماء من حنفية بيتى ؟

وترددت قليلا ..

ثم قمت من الفراش ، وخرجت من الغرفة وانحنيت فوق حاجز السلم اطل على الفناء .. وكان صوت انهمار الماء من الحنفية قد سكت .

ولمحت ذيل ثوب نسائى يخرج من باب البيت .

انها امراة .. امراة فى بيتى ..

بعد هذا العمر الطويل .. تدخل امراة بيتى .. ثم لا اراها !!

كان كل ما اريده أن اراها ..

ارى اى امراة !

ومصمصت شفتى حسرة على شبابى المحروم .. شبابى الذى تواضع الى حد أن اصبحت كل احلامه تنحصر فى مجرد رؤية وجه امراة !

وعدت الى غرفتى كسيرا وانا افكر : من تكون ؟

لعلها ابنة احد الجيران جاءت تملأ زلعتها .. لعلها زوجة .. لعلها خادمة .. لعلها عجوز .. لعلها صغيرة ..

ونمت والأوهام تملأ راسى ، ومئات الوجوه تقفز امام عينى ، وجوه نساء من مختلف الأشكال والأحجام والأعمار .. كلهن صعيديات .. ويقفز بينهن وجه مارلين مونرو ، ووجه شيرلى ماكلين ، ووجه شادية ..

وبعد يومين ، وفى نفس الموعد ، سمعت صوت الماء ينهمر مرة أخرى من الحنفية .. وخفت ..

صدقونى ، لقد خفت .. خفت من أوهامى ..

خيل الى انى لو حاولت أن اطل على الفتاة مرة اخرى .. فستنطلق رصاصة تخرق عينى ..

وتجمدت فى غرفتى .. وكلى آذان تلتقط صوت انهمار الماء من الحنفية ، كأنها تلتقط همسات امراة ..

وعندما سكت صوت انهمار الماء ، نظرت من خلف ضلفة نافذتى .. لعلى اراها .. ولكنى لم ار شيئا .. سوى الحارة الضيقة الساكنة التى تتداعى بيوتها بعضها فوق بعض ، كأن كلا منها يبكى على كتف الآخر ..

وزفرت فى حدة .. وبدات أعد لنفسى طعام العشاء .. لم اكن جائعا .. انى لم اجع ابدا فى هذه البلدة .. معدتى منقبضة كقلبى .. ولكنى فقط أريد ان افعل شيئا .. وقد عملت لنفسى اربع بيضات .. بالزبد والبسطرمة .. انى احب البسطرمة !

وبعد ان تناولت العشاء ، وقفت أمام الصحون التى اكلت فيها ، اتساءل : هل اغسلها ؟ لا .. سأتركها للصباح !

كنت ثقيلا بعد ان حشوت معدتى بالبيض والبسطرمة .. واريد أن استرخى ! وفى الصباح عدت اتساءل : هل اغسل الصحون ؟

لا .. دعها الى ان تعود من عملك !

ان اشد ما اكرهه ، بعد زميلى عباس افندى ، هو غسل الصحون ! ..

وذهبت الى عملى .. وعدت مطاطىء الراس مسدل الجفون .

ودخلت بيتى .. دخلت المطبخ .. وبحلقت فى دهشة .. ان الصحون مغسولة .. تضوى كالمرآة .. ومرصوصة فى نظام !!

وكدت اصرخ .. من غسلها ؟ ومن دخل بيتى فى غيبتى ؟

وخرجت الى غرفة نومى .. مش معقول .. ان فراشى مرتب ، منظم ، وهو لم يكن مرتبا ولا منظما ابدا .. وبدا راسى يدور ..

هل اكون انا الذى غسلت الصحون ، ورتبت الفراش .. ثم نسيت ؟ ..

ستحيل .. لابد ان هذا البيت « مسكون » !

انها « جنية » .. أو عفريتة .. ولكن .. لعلها امراة .. مش معقول !!

امرأة فى الصعيد ، تدخل بيت موظف اعزب وتغسل له صحونه ، وترتب فراشه .. هذا لا يمكن ..

ثم انى اغلق البيت بالمفتاح قبل ان اذهب الى عملى ، فمن اين تأتى المرأة — اى امراة — بالمفتاح ؟

لا يمكن ان تكون امراة .. انها جنية .. قطعا ..

ودرت كالمجنون ابحث فى ارجاء البيت عن آثار هذه « الجنية » تحت الفراش .. وفوق الدولاب .. وفى جيوب ثيابى ..

ولم اخرج يومها من البيت .. جمدت فيه .. وانا انتظر فى كل لحظة ، أن ينشق الحائط وتبرز لى منه الجنية .. بيضاء فى رداء ابيض .. وشعرها اسود طويل .. يصل الى ركبتيها .. ولكن .. لم ينشق الحائط ..

وقمت أعد عشائى .. استعملت كل الأوانى التى املكها .. ثم تركتها دون ان اغسلها .. وحاولت ان انام .. ولم انم ..

فى كل دقيقة أفتح عينى وابحلق فى الحائط لعله ينشق .. ثم انظر الى السقف لعل الجنية تهبط منه ! ..

حايلت نفسى كثيرا حتى انام ، فقد كان يخيل الى ، انى لو نمت ، فستأتى الجنية وتنام بين ذراعى . وتتم جميلها .

ولكنى لم انم .. ولم تأت الجنية .. ولم تتم جميلها ..

وذهبت الى عملى محطما من الارق ، والحيرة .. حيرة تكاد تصل بى الى الجنون .. ولم استطع أن اروى لزملائى ما حدث لى .. ماذا أقول لهم .. انى لا استطيع ان اقول لهم ان « جنية »

زارتنى .. ولا استطيع ان اقول ان امراة زارتنى ! وانتظرت موعد انتهاء عملى فى قلق ..

كأنى على موعد .. موعد نسائى !

وساعة الانصراف كدت اجرى الى البيت .. ودخلت .. وصعقت ..

الاوانى كلها مغسولة .. لامع .. والبيت كله مكنوس .. وفراشى مرتب منظم !

وكدت ابكى من الغيظ .. لا يمكن أن تفعل هذا الا امراة ..

اريد ان اراها .. حتى ولو كانت جنية .. والجنون يضج فى راسى ..

واستمر هذا الجنون اسبوعا .. ربما أكثر .. وانا لا اخرج من البيت لأجلس مع زملائى فى مقهى المحطة .. ولا أسير كعادتى على شاطىء النيل .. انى متجمد فى بيتى انتظر ان ينشق الحائط لتخرج لى الجنية ..

ثم .. كنت قد عدت من عملى .. وبدات اطوف بالبيت اتلمس آثار اليد الرقيقة التى تغسل الصحون وترتب البيت .. واذا بى اسمع طرقة خفيفة على الباب .. والتفت فى حدة .. شعرت انها جاءت .. الجنية جاءت .. أو المراة ..

وقلت فى صوت مرتعش :

— مين ؟

وسمعت خلف الباب صوتا خفيضا يهمس كأنه يتنهد :

— انا ..

وفتحت الباب فى لهفة كأنى سألتقى بوجه اعرفه منذ زمن طويل .. وجه اعرفه جيدا .. وجه يغسل لى الصحون ، ويرتب لى فراشى ..

ورأيتها .. وقد رفعت طرف شالها وغطت به شفتيها وانفها ،

ولم يعد يبدو منها سوى عينين .. عينين كبيرتين .. سوادهما عميق .. مثير ..

وارخت جفنيها كأنها تحمينى من سحر عينيها ، وقالت فى صوت متنهد :

ــ العواف يا سى كمال افندى ..

قلت واللهفة تقتلع قلبى :

ــ اتفضلى .. اتفضلى ..

قالت ، وهى تضم شالها اكثر فوق انفها وشفتيها :

ــ مش عايز حاجه يا سى كمال ؟

قلت ، وكأنى لم اعد اطيق :

ــ انت مين ؟

ونظرت الى كأنها تلومنى ، وقالت :

ــ انا مرات الحاج خليفه صاحب البيت .

وابتسمت فى راحة .. وعدت انظر اليها ..

انها صغيرة .. حلوة .. قوامها مثير .. كعينيها .. كيف يحتمل كل هذا الجمال رجلا كالحاج خليفة ..

واستطردت قائلة :

ــ اصلك صعبت على يا سى كمال .. عايش لوحدك لا حد بيخدمك ولا يشوفك . كنت باخد المفتاح اللى عندنا وآجى انضف لك البيت .. الجيران لبعضهم يا سى كمال ..

قلت :

ــ هو انتى ؟

قالت :

ــ ما انت ما بتاخدش بالك يا سى كمال .. عمرك ما تبص لحد !

و .. ولم يطل حديثنا ..

تركتنى سريعا .. تركتنى وهى تملأ كل راسى وكل اعصابى .

وتماديت فى احلامى .. احسست كأنى لم اعد وحيدا .. ولا محروما .. ثم فجأة شعرت بالخوف .. خوف كبير .. وفوهة البندقية تطل على .. ان الحاج خليفة لن يتردد لحظة واحدة فى اطلاق الرصاصة .. لن يبخل بثلاثة قروش ثمنا لشرفه ..

هل تستحق فكيهة كل هذه المجازفة .. هل تستحق حياتى ..

ولكنى لم اكن اعيش قبل أن تطرق فكيهة الباب .. لم تكن لى حياة .. انى لن اجازف بحياتى .. ولكنى سأجازف بلا شىء ..

وجاءت فكيهة فى اليوم التالى ..

ووقفت عند الباب .. لم تدخل ..

ولم تدخل فى اليوم الثالث .. ولا الرابع .. ولا الخامس .. فقط تقف على باب غرفتى .. ونتحدث .. وطرف الشال ينزاح عن انفها وشفتيها .. وينزاح اكثر حتى ارى ذقنها وعنقها .. انها بيضاء ! ..

وفى صباح يوم الجمعة .. قررت الا اخرج من البيت ، فى انتظار فكيهة .. نتحدث .. وسمعت الباب الخارجى يفتح :

وقفزت لأستقبل فكيهة ..

و .. وانطلق صوت الحاج خليفة من اسفل السلم يصيح :

ــ يا سى كمال افندى ..

انها ليست فكيهة .. انه زوج فكيهة ..

وارتعدت .. لقد جاء ليقتلنى .. لابد أن البندقية فى يده .

ولكنه يجب أن يعلم انى لم اعتد على شرفه .. لابد أن يعلم انى لا استحق القتل .. لابد أن ادافع عن نفسى ..

وعاد الحاج خليفة يصيح :

ــ يا سى كمال افندى .. انت لسه نايم والا ايه ؟

وقلت بصوت يرتعش :

— ايوه يا حاج .. اتفضل !

وخطوت على اطراف اصابعى لأطل عليه .. كنت اريد ان اتأكد من انه جاء يحمل البندقية .. لاهرب ..

انى استطيع ان اقفز من الشباك على الاقل ..

ولكن الحاج خليفة لم يكن يحمل البندقية .. وهو يبتسم ..

واخذ يصعد السلم فى خطوات هادئة .. ثم صافحنى فى حرارة .. ودخل الى الغرفة ووضع جسمه المنفوخ فوق الأريكة ، واخذ يتكلم .. لا يتوقف عن الكلام .. ثم قال :

— ما تقوم بينا نصلى الجمعه ..

ولم تكن من عادتى ان اصلى الجمعة ولا الأحد ..

ولكنى اجبت :

— بس لما اتوضأ يا حاج !

ودخلت الى الحمام وانا انوى الوضوء فعلا ، وانوى الصلاة ، لاكسب ثقة الله .. وثقة الحاج خليفة ..

واستمر الحاج يحدثنى وانا اتوضأ :

— والله يا سى كمال انت راجل طيب وابن حلال وفى حالك .. ده حتى النسوان بتوع الحاره كلهم بيقولوا عليك انك مـؤدب وما بترفعش عينك لا كده ولا كده ..

وابتسمت .. آه لو علم ماذا كنت افعل فى طنطا .. وماذا كانت تفعل عيناى .. ولكن لابد أن فكيهة هى التى اقنعته بأنى مؤدب ..

وابتسمت .. حتى نساء الصعيد — وليس نساء طنطا فحسب — يستطعن أن يقنعن أزواجهن ، بأنى مؤدب !!

وصليت مع الحاج .. وفى المساء .. ساعة الغروب جاءت فكيهة ..

وفى هذه المرة .. دخلت !!

***

وعشت فى الصعيد سنتين .. ولم اعد وحيدا ولم أعد محروما .. فكيهة معى ..

تغسل لى الصحون ، وتغسل ثيابى ، وترتب فراشى ، بعد أن اخرج الى عملى .. ثم تزورنى فى الأسبوع مرتين .. كل يوم سبت .. وكل يوم ثلاثاء .. فأنا رجل منظم ، خصوصا فى هذه المسائل !

ثم نقلت فجأة الى الاسكندرية ..

وفرحت بالنقل .. ان الحياة هناك اوسع ..

ولم تحزن فكيهة عندما سمعت خبر نقلى .. لم تبك .. ولم تصرخ .. بل جاءت تساعدنى فى ترتيب حقائبى دون ان يبدو عليها اى تأثر .. كأنها ستنتقل معى .. أو كأنى كنت مجرد مهمة ، وانتهت ..

وتركت بعض منقولات بيتى لدى الحاج خليفة ، لأنى لم استطع ان اشحنها فى القطار ، ثم سافرت ..

ونسيت فكيهة قبل ان يصل بى القطار الى الاسكندرية .. وانغمرت فى الحياة الجديدة .. عام كامل وانا اعيش فى الدنيا الواسعة ..

ثم .. اختلفت مع رئيسى ..

وتقرر نقلى مرة ثانية الى نفس البلدة التى كنت فيها .. فى الصعيد ! ..

***

وما كاد القطار يغادر محطة الأسكندرية حتى تذكرت فكيهة ..

وبمجرد وصولى الى البلدة ، جريت الى بيت الحاج خليفة ..

لم يكن فى دكانه .. وطرقت باب البيت فى لهفة .. وفتحت لى .. فكيهة ! ..

ولكن فكيهة تنظر الىّ بعينين جامدتين كأنها لا تعرفنى .. وقلت وأنا امد لها يدى :

ـــ ازيك يا فكيهة ؟ ..

وردت فى برود وهى ترفض أن تمد لى يدها ، وتضغط بطرف الشال فوق أنفها وشفتيها :

ـــ الله يسلمك ..

انها لم تقل « الحمد لله على السلامة » ، وعدت أقول لها فى دهشة :

ـــ انت مش فاكرانى .. انا كمال ؟

قالت فى صوت جامد :

ـــ فاكراك ..

وصحت :

ـــ جرىَ ايه يا فكيهة .. ده انا رجعت مخصوص علشانك .. فضلت اسعى لما رجعونى لك !

قالت وهى تتأخر خطوة :

ـــ عايز ايه يا افندى ؟

قلت :

ـــ عايزك ..

وسكتت قليلا ، ثم قالت :

ـــ اسمع يا سى كمال .. اللى فات راح لحاله .. احنا كده .. اللى يروح ما يرجعش !

واحسست كأنها سكبت فوق رأسى زلعة ماء بارد ، وقلت :

ـــ طيب عايز اجر البيت !

قالت :

ـــ لا .. ما بنأجروش ..

قلت :

ـــ هو مش فاضى ؟

قالت :

ـــ فاضى .. بس ما بنأجروش !!

ثم أغلقت الباب فى وجهى ..

***

وخرجت وانا اتعثر فى دهشتى .. ماذا حدث .. هل ندمت فكيهة على ما كان بيننا وقررت الا تعود الى .. هل اثرت شفقتها فى المرة السابقة ، فتقدمت لى نفسها ، لتنقذنى من وحدتى وحرمانى ، ثم اعتبرت انها ادت لى الكفاية ، ولم يعد من حقى المزيد .. ام أنها جاءت الى تحت ضغط « عقدة الأفندى والجلباب » التى يتحدث عنها كثيرا مجتمع موظفى الأرياف .. فنحن الموظفين نعتقد أن « البدلة » تبهر نساء الريف ، وتجذبهن .. تماما كما تجذب السيارة الكاديلاك بنات القاهرة .. انها تريد أن تجرب « البدلة » بعد أن عرفت الجلباب طويلا ..

ربما كان هذا هو السبب ! ..

وجربت فكيهة البدلة .. وانتهت وحلت عقدتها !!

ولكننى لن اسكت .. انى فى حاجة اليها ..

وذهبت فى اليوم التالى الى الحاج خليفة ، ودهشت اكثر عندما استقبلنى ببرود ، وهو ينظر الى بعينين حادتين ينطلق منهما الشر .. وبلعت بروده وشره وقلت له انى اريد ان استأجر البيت .. وصاح الحاج فى وجهى فجأة :

ـــ وهو اللى عايز يأجر بيت يروح عند النسوان .. اتفضل يا افندى ..

قلت :

ـــ يا حاج ما يصحش .. و ..

وقاطعنى الحاج :

ــ اقصر الشر يا افندى واتفضل .. وحتتين العفش بتوعك اللى عندى حابعتهم لك على المصلحة ..

قلت :

ــ بس افهمنى يا حاج .. و ..

وقاطعنى صارخا وهو يرفع سكينة فى وجهى :

ــ با اقول لك انجر من هنا .. ما تتكلمش .. والله لو شفتك فى الحارة تانى لأجز رقبتك ..

***

وجريت .. وانا ادعو على فكيهة .. عملتها فكيهة .. واقنعت زوجها انى لست مؤدبا !! وظللت اجرى ..

أجرى الى وحدتى وحرمانى .. والخوف .. الخوف من انطلاق رصاصة فى عينى !! ..

بنت تجــرى وراء الشمس

قابلتها فى روما ..

فتاة من النرويج ، فى الخامسة والعشرين من عمرها .. جميلة .. جمالها هادىء مريح . وعيناها خضراوان تطلان على الناس فى حنان .. وابتسامتها متزنة ، وكأنها ام صغيرة ..

وعندما علمت انى عربى بدات تحدثنى بلغتى . كلمات عربية مكسرة تتساقط من بين شفتيها كقطع السكر ..

وقلت لها :

ــ كيف تعلمت لغتنا .. ؟

قالت :

ــ لقد عشت فى القاهرة ..

قلت فى لهفة :

ــ كيف .. متى ؟

قالت :

ــ هذه قصة طويلة ، اتمنى يوما أن اكتبها .. قصة حياتى ..

قلت ولهفتى تشتد :

ــ وموضوع القصة ؟ !

قالت :

ــ فتاة تحت الشمس ..

وسرحت عيناها فى الفضاء كأنها تشد بهما خيــوطا من الذكريات .. واستطردت تروى قصتها كأنها تتحدث عن انسانة اخرى .. انسانة بعيدة عنها :

— كنت احب الشمس .. لا اكاد ارى شعاعا منها حتى أجرى الى صخور الشاطىء واخلع ثيابى .. واستلقى عارية كأنى أستحم فى الشعاع .. ولكن الشمس فى النرويج شمس بخيلة .. ضنينة .. لا تكاد تلمس ارضنا حتى تختفى .. وكنت احس بالضيق كلما اختفت .. أحس كأن الحياة تنسحب منى .. واتطلع الى السماء أبحث عنها بين الغيوم السوداء ، واكاد ابكى ..

وكنت وأنا فى الثامنة عشرة اراسل بنات وشبانا من بلاد بعيدة .. كل البنات فى مثل سنى كن من هواة المراسلة .. واستطعت ان احصل على عنوان شاب من مصر .. ان مصر فيها شمس .. كلها شمس .. وكتبت اليه كأنى اكتب الى الشمس .. ورد علىّ .. واحسست وأنا افتح خطابه انى سألتقى بالشمس .. بل احسست كأن الورق الذى يكتب عليه اكثر بياضا وسخونة من الورق الذى اكتب انا عليه .. لأن فى بلده شمسا ..

واستمرت المراسلات بيننا اكثر من عام .. لم اعد اراسل احدا غيره .. وارسلت له صورتى .. وارسل لى صورته .. انه أسمر فى لون السمك المقلى !

ثم .. ثم لم اعد أطيق ان أعيش فى بلدى .. لم أعد اطيق ان اقضى يومى كله اتطلع الى السماء باحثة عن الشمس بين الغيوم .. وقررت ان اقوم برحلة الى فرنسا .. ان شمس فرنسا اكرم من شمس النرويج .. ولم اكن استطيع ان اسافر الى مصر ..

ان المسافة بعيدة والنقود معى قليلة .. ولكن صديقى بالمراسلة عندما علم انى مسافرة الى فرنسا بدأ يلح علىّ فى السفر الى مصر .. انه يدعونى .. سأقيم فى بيته مع عائلته ..

لماذا لا أسافر الى بلاد الشمس ؟ ..

وقلت لأمى :

— انى مسافرة الى مصر ..

وقالت لى امى :

— انت مجنونة ..

واذكر فى تلك الاثناء ان التقيت باثنين من المصريين كانا فى زيارة النرويج .. وقلت لهما انى مسافرة الى مصر ، وذكرت لهما اسم صديقى بالمراسلة وعنوانه .. وسمعا الاسم والعنوان ، ثم نظر احدهما الى الآخر ، ثم اذا بهما ينصحانى الا أعتمد على هذا الصديق ، واعطيانى عنوانهما فى مصر ، لعلى احتاج اليهما ..

ولم افهم ما يقصدانه .. هل يغاران من صديقى ؟ ! .. وسافرت الى مصر .. الى الشمس .. وسافرت بالباخرة ، لأنها ارخص .. ووجدته فى استقبالى ..

الشاب الأسمر .. انه كصورته ، وكما تخيلته .. كل ما هنالك انه اقل اناقة مما كنت اعتقد ..

وركبنا سيارة اجرة من محطة القاهرة .. الى شارع شبرا .. ثم الى شارع اقل اتساعا .. ثم الى شارع ضيق .. ثم شارع اقل ضيقا .. وحارة .. وحارة اخرى .. ثم وقفت السيارة لأنها لم تعد تستطيع ان تتقدم .. ونزلنا منها وحمل لى حقائبى ، وسرنا الى زقاق ، ودخلنا فى بيت قديم مظلم .. ثم نزلنا الى حجرتين فى البدروم .. هذا هو بيته ..

وعائلته كلها مكومة فى هاتين الحجرتين ..

ولم تهمنى كل مظاهر الحياة التى مررت بها .. ولم يهمنى ان بيته فى بدروم .. بل ربما أثارت هذه المظاهر صورة اسطورية الشرق الذى جئت اليه .. كل ما همنى انى سأنام فى حجرة بها اربعة اشخاص .. امه وابوه واخته واخوه !! ..

لا .. لا استطيع ! ولا استطيع ايضا ان اجرح احساس صديقى ، وأهرب من فقره .. لقد تبادلنا كلمات حلوة فى خطاباتنا ، ولا يمكن أن انسى هذه الكلمات لأنه فقير ..

ورغم ذلك كان علىّ فى اليوم التالى أن اهرب .. وهربت ..

ذهبت الى العنوان الذى تركه لى الصديقان اللذان التقيت بهما فى النرويج .. ودبرا لى حياتى فى القاهرة ..

ولا تسألنى اسئلة صغيرة تافهة .. فقد نعمت بحياتى فى القاهرة .. لقد كنت اشرب الشمس طول النهار ، حتى يكفينى ما شربته لأقضى طول الليل ..

ثم احببت .. احببت مصريا ..

كان اول حب لى .. وهو الى الآن ، آخر حب .. وعاش حبى ستة شهور .. منطلقا مرحا ساخنا كالشمس .. وكاد ينتهى بالزواج . ولكنه كان ضابطا فى الجيش .. والقانون عندكم يحرم على الضباط ان يتزوجوا من أجنبيات .. وجاء من ابلغنى انى يجب ان اغادر القاهرة .. ومصر كلها .. اذا كنت احرص على مصلحة حبيبى ..

واضطررت أن اترك مصر .. والدموع فى عينى !

ولم استطع ان اعود الى بلدى .. ولم استطع ان ابتعد عن الشمس ..

ذهبت الى لبنان .. ولا تسألنى من أين جئت بالمال الذى عشت به فى لبنان .

دعك من هذه الأسئلة الصغيرة التافهة .. فقد عشت هناك حياة سعيدة .. فى الشمس ، استطعت خلالها ان اضمد قلبى الذى جرح فى القاهرة .. ثم اشتغلت مضيفة فى احدى شركات الطيران اللبنانية .. والتقيت اثناء عملى بأمير عربى كبير عرض علىّ أن اكون مضيفة خاصة لطائرته التى يملكها .. وقبلت .. وسافرت الى بلده .. الى الصحراء .. ان الشمس هناك اكثر مما اريد .. والحياة تسير بطيئة جدا .. وطائرة الامير لا تطير الا

نادرا .. واكتشفت ان عملى هو ان اكون مضيفة للأمير لا لطائرة الأمير .. اقضى اليوم كله فى بيت يطل على الصحراء .. وفى المساء اذهب الى مجلسه ليشاهد جمالى .. فقط ليشاهد جمالى .

وزهقت .. زهقت من الأمير .. ومن شمس الأمير ..

واستقلت .. وكان كريما معى . اعطانى مكافأة سخية ..

ولكنى لم أعد الى بلدى .. انى لا استطيع ان ابتعد كثيرا عن الشمس .. خلاص .. لقد اصبحت الشمس فى دمى ، وعلى جلدى .. فعدت الى روما ..

انى اعمل الآن فى احد بيوت الأزياء .. ولكن عملى ليس هو كل شىء .. ان كل شىء هو شعاع من الشمس يتسلل من نافذتى كل صباح .. انك لا تعلم ما يفعله بى هذا الشعاع .. انه يبعث فى الحياة .. يحرك دمى .. يغرينى بأن استعد لمغامرة جديدة .. ولى فى كل ليلة مغامرة .. مغامرة مع مجهول .. ولا تسألنى .. عن تفاصيل مغامراتى .. دعك من هذه الأسئلة التافهة ..

***

وسحبت عينيها من ذكرياتها ، وعادت بهما الى .. وبين شفتيها ابتسامتها المتزنة كأنها ابتسامة أم صغيرة .. وقلت لها :

ــ الا تشعرين بالحنين الى الاستقرار .. الى بيت واولاد ..

قالت كأنها تتنهد :

ــ الشمس هناك اكثر دفئا .. ومن يدرى .. ربما اجد هناك زوجا .. وبيتا ! ..

وتركتنى ..

هـــكذا قتـــلت زوجتى

كلكم ستقولون انى مخطىء .. واغلبكم سيقول انى مجرم .. سافل .. انانى .. منحط .. الى آخر هذه النعوت التى تعود كل واحد ان يلصقها بغيره ، رغم انه لو تمعن قليلا لاكتشف انه يستطيع ايضا ان ينعت بها نفسه ..

وكل ما ارجوه ان تسمعوا قصتى قبل ان تحكموا علىّ .. لا لانى اطمع فى انصافكم ، فليس لى ثقة فى عدالتكم .. ولكن فقط لتشعروا انتم بأنكم اصدرتم حكمكم الظالم بعد ان استمعتم الى اقوال المتهمين ، استكمالا للشكليات ، وللاجراءات وللمظاهر .. لا تحريا للعدالة ..

اسمعوا ايها الظالمون ..

لقد حدث كل شىء فجاة .. وبسرعة عجيبة .. وبدات الجريمة وانتهت فى يوم واحد .. وفى اقل من يوم .. ودافعها الحقيقى ، هو كلمة واحدة قيلت فى التليفون .. كلمة واحدة .. ربما قيلت عفوا .. ولكنها كانت السبب .. سبب الجريمة .. كنت ايامها قد سافرت الى الفيوم للتفتيش ، وانا كما تعلمون مفتش فى وزارة التربية والتعليم .. وقضيت هناك يومين .. والجو حار ، يزهق انفاسى .. والهواء رطب ثقيل ، يجثم على صدرى .. ووجوه الطلبة والمدرسين الذين امر عليهم تتراءى لى كقطع من الجمر تنفث النار فى وجهى واعصابى .. كانت اعصـــابى تالفة .. لا انكر ان اعصابى كانت تالفة .. وزادها الحر والهواء الراكد

الثقيل تلفا .. ولكن ، كل موظفى وزارة التربية والتعليم مصابون بتلف الأعصاب .. اكشفوا على اعصابهم جميعا ، وستجدوننى رغم كل ما حدث ، أقواهم أعصابا ..

وفى اليوم الثالث من سفرى الى الفيوم ، اتصلت بزوجتى بالقاهرة بالتليفون .. كنت اريد ان اجد فى حديثها ما يخفف وحدتى ، وما يرطب النار المشتعلة فى اعصابى .. ولكنى وجدت حديثها راكدا كالهواء الذى يحيط بى .. وقلت لها :

ــ مالك ؟ ..

قالت وهى تزفر :

ــ ما ليش ! ..

قلت :

ــ مالك يا سعاد .. قولى يا حبيبتى ؟ !

قالت :

ــ زهقانه .. زهقانه موت ! ..

قلت :

ــ زهقانة من ايه ؟ ..

وفجأة صرخت فى وجهى :

ــ زهقانه من عيشتى .. من دنيتى . خلاص مش طايقه نفسى .

وسيطرت على أعصابى .. انها تشكو « الزهق » وهى فى القاهرة ، وحولها اقاربها وصديقاتها .. وفى البيت فريجدير ، وبطيخ مثلج .. وانا .. انا المبعد وسط العرق والذباب والناموس .. لا اشكو .. وليس من حقى ان اشكو .. بل علىّ أن أخفف من شعورها بالزهق ..

وقلت فى لهجة مسكينة :

ــ ما تروحى تقعدى عند مامتك شويه ..

وصرخت :

— ماما .. ماما .. ايه اللى كل شويه تقول لى روحى عند مامتك .. امال انا كنت اتجوزت ليه ؟

وقلت فى توسل :

— طيب روحى زورى حد من صاحباتك ..

قالت وهى تصرخ :

— وهم صاحباتى حايستنونى لغاية ما ازورهم .. زمان كل واحده خدت جوزها ، وخرجوا يتفسحوا ..

قلت :

— امال حاتعملى ايه ؟ ..

قالت :

— حا اعمل اللى حا اعمله .. خلاص ما لكش دعوه بى ..

والقت سماعة التليفون فى وجهى ..

وحاولت ان انسى .. حاولت ان اشغل نفسى بأى شئ .. ولكنى لم استطع وكلمة « زهقانه » تطن فى أذنى .. زهقانه .. زهقانه .. زهقانه .. ماذا تفعل المراة عندما تكون زهقانة .. لابد انها الآن تطوف بحجرات البيت وهى مرتدية قميص النوم .. القميص الوردى الشفاف .. وذراعاها البضتان مكشوفتان .. ونهداها يطلان من فوق فتحة القميص .. وعنقها الطويل منتصب كشعاع النور بشقه خط رفيع من العرق .. وشعرها الحريرى مهدل فوق جبينها ووجنتيها .. وعيناها مسترخيتان ملولتان .. وشفتاها المكتنزتان مكسورتان كوردة تهم بالتفتح .. انها مثيرة مغرية عندما تكون فى قميص النوم فى يوم من ايام الصيف .. انى أعرف كم هى مثيرة ومغرية ..

ثم لابد انها تعبت من الطواف بحجرات البيت .. وتعبت من

ولاعبة ابننا الوحيد الصغير .. انها تريد شيئا آخر .. شيئا ابيض .. شيئا يبدد من حولها الملل والزهق .. شيئا يملأ هذا الفراغ الكبير .. ولابد انها خرجت الى الشرفة ، وهى بقميص النوم واطلت على ابن الجيران .. انى اعرفه .. هذا الشاب الرقيع واقفا فى نافذته .. ومنعتها ، وعلى الأخص ، من الخروج وقد منعت زوجتى مرارا من الوقوف فى الشرفة كلما كان هذا الرقيع واقفا فى نافذته .. ومنعتها ، على الأخص ، من الخروج الى الشرفة وهى بقميص النوم ..

وليس معنى ذلك أنى لا اثق فى شرف زوجتى .. ولكنى اعلم انها مدللة ، خفيفة العقل ان ترى جمالها المثير فى اعين الرجال ..

واخذت فى وحدتى وانا فى الفيوم اتصورها واقفة فى الشرفة بقميص النوم ، وهذا الشاب الرقيع امامها ..

لابد أنها ابتسمت له لتسلى نفسها .. واتسعت ابتسامتها .. اتسعت اكثر .. وذراعاها البضتان المكشوفتان .. ونهداها .. وعنقها .. كلها اصبحت نهبا للعينين الجاحظتين .. !

وتماديت فى خيالى ..

★★★

انهما يتبادلان التحية .. ثم هو يلح عليها أن تخرج من البيت لتلقاه .. وهى تتمنع كعادتها .. ولكنها تقبل اخيرا تحت ضغط وحدتها والملل الذى تعانيه .. ثم انها تعلم أن امامها ليلا طويلا ستقضيه وحيدة بلا زوج .. فلماذا لا تلهو فى جزء من هذا الليل .

وحاولت أن انزع من راسى هذا الخيال الشرير ، فانى أثق فى ان زوجتى امراة شريفة .. ولكنها قالت لى انها زهقانة .. والمراة الزهقانة تستطيع أن تفعل اى شئ ..

ووجدت نفسى انساق فى خيالى .. تصـــورتها وقد قبلت

تقابله .. ودخلت من الشرفة لترتدى ثوب الخروج .. والتايير الأصفر الذى بضيق حول جســدها ويبرز كل قطعة منه .. وتصورتهما وقد التقيا فى مكان ما .. فى الجزيرة .. على باب السينما .. فى اى مكان ..

ثم .. لقد أمسك يدها .. انه يقول كلاما جميلا يشــبع غرورها .. والليل يزحف عليهما .. وهو يقبل يدها .. ثم ذراعها .. ثم يقبل عنقها ..

ان زوجتى زهقانة .. والمرأة الزهقانة تستطيع ان تفعل اى شىء ..

و .. قاما من مجلسهما . وصعدا الى البيت . .والدنيــا ظلام .. صحبها الى بيته وهى تقف عنــد الباب مترددة .. هل تدخل .. ان امامها ليلا طويلا ستقضيه وحيدة فى ملل وسأم .. فلماذا لا تدخل لتستزيد من الكلمات الحلوة ، والقبلات التى تبدد وحدتها وسأمها ..

انها شريفة .. ولكنها زهقانة .

وخطت داخل بيته ..

وانتفضت أنا من خيالى كالمجنون .. ولم أدر بنفسى الا وأنا اجرى فى الشارع نحو موقف سيارات الأجرة ، ووضعت نفسى فى احداها وأنا أصرخ فى السائق :

ــ اطلع على مصر .. بسرعه ..

★★★

وطارت السيارة فى الطريق الصحراوى .. وأنا مجنون .. أتصور زوجتى بين ذراعى هذا الشاب الرقيع .. فى بيته .. فى حجرة نومه .. والصحراء من حولى لونها أسود .. والليل أسود .. وأسفلت الطريق أسود ..

ووصلت الى بيتى ، وصعدت الدرجات قفزا .. وفتحت الباب بمفتاحى الخاص .. وبحثت عنها بعينين مجنونتين ..

انها ليست فى البيت .. والساعة التاسعة مساء ..

لابد أنها معه .. فى بيته .. فى حجرة نومه ..

وخرجت الى الشرفة ، وسلطت عينى على بيت الشاب الرقيع .. ان النوافذ مغلقة .. والنور مطفأ .. طبعا .. لابد أن تكون النوافذ مغلقة ، والنور مطفأ .. وعدت من الشرفة وأنا أتخبط فى قطع الأثاث .. وما كدت اخرج الى الصالة حتى رأيتها داخلة من الباب .. وصرخت فيها :

ــ كنتى فين ؟

قالت فى هدوء :

ــ كنت عند ماما !!

وصرخت :

ــ عند ماما ، يا مجرمه ؟ !

ورفعت يدى وهويت على صدغها بكل قواى .. وصرخت صرخة حادة .. ووقعت حقيبة يدها .. ورفعت يدى مرة ثانية ، وكتمت صرختها بصــفعة اخرى اقــوى من الأولى .. وعادت تصرخ :

ــ يادهوتى .. الحقونى .. حاموت .. حاموت ..

ثم استدارت وجرت من أمامى .. وخرجت من باب الشقة .. وأنا أجرى خلفها .. ونزلت السلالم قفزا .. وأنا اقفز خلفها .. وقعت فوق السلم ..

وارتطم رأسها بحافة السلم .. فشجت .. وسال دمها .. وماتت ..

وهكذا قتلتها .. وبرأتنى المحكمة .. ولكن الناس لم تبرئنى .

★★★

ايها الناس الظلمة .. قبل ان تحكموا علىّ ، فليحاول كل منكم ان يجرب ما حدث لى .. ليجرب ان يغيب عن بيته اياما ، ثم يسمع زوجته ان تقول له بالتليفون « انا زهقانه » .. تقولها فى ليلة من ليالى الصيف .. وليرى بعد ذلك ما يمكن ان تحدثه هذه الكلمة الصغيرة فى حياته .. انها تقوده الى الجنون .. الى الجريمة .

ولعلكم بعد ذلك تعذروننى .. وتبرئوننى .. لكن لا امل فأنتم كلكم ظالمون .

فيـــفى

كنت لا ازال فى التاسعة عشرة من عمرى .. وكنت مندفعا .. جريئا .. طالبا فى كلية البوليس .. والحياة ضحكة كبيرة .. وكل شىء اريده اصل اليه .. بالذوق .. بالعافية .. لابد ان اصل اليه ..

وفى احدى امسيات الصيف .. كنت اسير مع شلة من اصدقائى نجوب شوارع حينا .. الدقى .. نضحك .. ونعاكس البنات ، وندخن السجائر .. كل اثنين منا سيجارة .. ثم وقفنا تحت فانوس النور .. وضحكاتنا لا تنتهى .. ورفعت عينى بالصدفة الى احدى النوافذ ، فلمحت فتاة عيناها مسلطتان على .. وتبتسم .. وما كادت تلحظ انى لمحتها حتى اختفت بعد ان قذفت لى باكبر ابتساماتها .. وكذبت عينى ، وعدت الى ضحكات الشلة .. وبعد قليل رفعت عينى مرة ثانية الى النافذة .. ورايتها واقفة فيها .. عيناها مسلطتان على .. وتبتسم .. وما كادت تلتقى بعينى حتى اختفت ..

وفى هذه المرة لم اكذب نفسى .. وبكل بساطة ، تركت الشلة دون أن اقول لهم شيئا . ودخلت العمارة التى تطل منها الفتاة وصعدت الى الدور الذى اطلت منه .. ووقفت امام باب الشقة التى قدرت أنها تسكنها ، ورايت بجانب الباب لوحة مكتوب عليهـا « الدكتورة زاهية المرجوشى » .. ولم اتردد .. ضغطت جرس

الباب ، وقررت اذا فتح لى رجل أو سيدة كبيرة أن أسأل عن محمد أفندى .. ثم اعتذر بأنى أخطأت فى الشقة ..

وفتح الباب .. فتحته هى ..

انها أجمل مما تصورتها ، وأصغر .. سمراء لا يزيد عمرها عن الخامسة عشرة .. فوق وجهها ابتسامة كبيرة ، وعلى خديها غمازتان ترتعشان ، وفى عينيها لمعة جريئة .. ترتدى ثوبا أزرق منقطا بنقط كبيرة بيضاء .. وفى قدميها شبشب بلا كعب .. ووقفت برهة انظر الى ثوبها .. انه ثوب لا يبدو انيقا ، ولا يبدو مهلهلا .. ولكن خيل الىّ انه ليس ثوبها .

وظلت تنظر الىّ صامتة ، والغمازتان فوق خديها ترتعشان ..

وقلت فى لهجة جادة دون ان اضحك لها :

ـــ عندكم تليفون ؟

قالت واللمعة الجريئة فى عينيها :

ـــ أيوه ..

واخرجت من جيبى البطاقة التى تحمل اسمى ورقم تليفون بيتى ، وناولتها لها ، قائلا بنفس اللهجة الجادة :

ـــ ابقى اضربى لى تليفون فى النمره دى .

ثم نزلت السلم قبل أن اسمع ردها .. وقضيت ليلتى احلم بها .. لقد خلعت قلبى ..

وفى اليوم التالى اتصلت بى بالتليفون .. وانقضت ايام كثيرة وهى تتصل بى كل يوم .. احيانا ثلاث مرات فى اليوم .. وفى كل مرة احاول ان اقنعها بأن تحدد موعدا للقائنا .. ولكنها ترفض . ما اقدرش .. اختى الدكتورة تموتنى .. و .. وبدأت اجن .. لابد ان اصل اليها .. واصبحت اصرخ فى وجهها .. وصعدت الى شقتها اكثر من مرة .. ولكنها لم تكن تفتح لى الباب ابدا .. كانت تفتحه لى الدكتورة .. او رجل لا اعرفه .. واضطر ان اسأل عن محمد أفندى !

وتعود تحادثنى فى التليفون .. وتصارحنى بحبها .. وتستطيع دائما أن تجد حجة حتى لا تقابلنى .. وكانت تبكى أحيانا ..

ومرة واحدة كفت عن حديث التليفون .. لم تعد تحادثنى .. ومررت امام بيتها عشرات المرات .. مئات المرات .. فلم ارها فى النافذة .. وصعدت الى شقتها فلم تفتح لى الباب ..

فاتصلت ببيتها بالتليفون ، ورد علىّ صوت اجش ، سألته :

ـــ فيفى موجوده ؟

ورد علىّ الصوت الأجش :

ـــ ما عندناش حد اسمه فيفى ..

ثم القى سماعة التليفون فى وجهى ..

ومرت ثلاثة شهور وانا حائر .. وبدأت حيرتى تنقلب الى يأس .. ثم ذهبت مرة لزيارة صديقى عصام بمناسبة مرضه بالانفلوانزا .. وضغطت على جرس الباب ..

ففتحت لى .. هى ..

فيفى .. وكانت ترتدى ثوبا اقل اناقة من الثوب الذى رأيتها به أول مره ..

ووقفت انظر اليها وفمى مفتوح كأنى عبيط .. والغمازتان فوق وجنتيها ترتعشان امامى ..

وقالت فى لهجة سريعة :

ـــ اتفضل ..

وفرت من امامى قبل أن تتقدمنى داخل الشقة ..

وجلست مع صديقى نتحدث .. ثم سألته بصراحة :

ـــ مين اللى فتحت لى الباب ؟

وقال صديقى بخبث :

ـــ عاجباك ..

قلت :

ــ أبدا .. أصلى ما شفتهاش عندكم قبل كده ..

قال :

ــ دى بنت خدامه ، جاءت لنا من يومين ..

وذهلت .. أحسست انى طعنت فى كرامتى .. لقد خدعتنى .. احببت خادمة ..

وبعد يومين من الزيارة ، حادثتنى فيــفى مى التيفون ، وصرخت فيها :

ــ عايزة ايه يا بت يا خدامه ..

وصرخت فى وجهى بكل وقاحة :

ــ انا مش خدامه ..

واشتد النقاش بيننا . وعادت تحادثنى فى التليفون فى اليوم التالى .. والذى يليه .. واصبحت انسى كثيرا انها خادمة .. ولكنى كنت أجد من الصعب على أن اطلب لقاءها .. وهى لم تطلب ابدا لقائى ..

وفجأة انقطعت عن الحديث التليفونى ..

وسألت عنها صديقى عصام ، فقال ببساطة :

ــ سرقت فستانين من فساتين أختى .. وهربت !

قلت مذعورا :

ــ وبلغتم عنها البوليس ..

قال :

ــ ابدا .. الحكايه ما تستاهلش .. وأمى زى ما انت عارف ست طيبه !

وانقضى عامان .. نسيت فيهما فيفى ، أو كدت .. ثم عدت مرة من الكلية ، فقالت لى أختى ان فتاة اسمها فيفى سألت عنى

بالتليفون .. وتذكرتها .. الغمازتان اللتان ترتعشان فوق وجنتيها .. وثوبها الذى لا يبدو أنه ثوبها ..

وفى نفس اليوم دق جرس التليفون .. وكانت فيفى .. وقلت لها ساخرا :

ــ ازيك يا بت .. انت لسه بتشتغلى خدامه ؟

ورمت السماعة فى وجهى دون أن ترد على .. ثم عادت بعد دقيقة واحدة ، وحادثتنى مرة ثانية ، وقالت صارخة بمجرد أن سمعت صوتى :

ــ اسمع يا ممدوح .. انا مش خدامه .. وعمرى ما كنت خدامه .. مش عايزاك تجيب السيره دى تانى ..

قلت وانا لا ازال اتهكم :

ــ امال كنتى بتعملى ايه فى بيت عصام ..

قالت محتدة :

ــ انا ايامها هربت من بيت أختى الدكتوره .. واضطريت أن اشتغل .. كنت عايزنى أعمل ايه يعنى .. أروح أبيع نفسى فى السكك ..

واحسست انى اميل الى تصديقها .. وارتفع امام خيالى وجهها الأسمر المبتسم .. والغمازتان .. والعينان .. أحسست انى لا ازال أحبها .

وقلت :

ــ يمكن ..

قالت :

ــ اذا ما كنتش مصدقنى ، أنا مستعده اشوفك ..

واتفقنا على أن نلتقى مساء يوم الجمعة ، قبل موعد عودتى الى كلية البوليس ، امام سينما ريفولى .. وقلت لها فى لهجة السيد :

— الساعه سته .. سته ودقيقه حامشى ..

وفى الساعة السادسة الا خمسة وقفت امام سينما ويفولى ، وانا مرتدى بذلتى العسكرية وجاء بعض زملائى ووقفوا معى .. فحاولت أن اتخلص منهم .. حتى لا يروا فيفى عندما تأتى للقائى .. كنت اخاف أن يروها وهى فى ثوبها الذى لا يبدو انه ثوبها ، فيعايرونى بها . ولكنهم ظلوا واقفين حولى ، وقد عرفوا بحاستهم السادسة انى على موعد مع فتاة ..

وفى الساعة السادسة بالضبط ، وقفت سيارة اجرة امام دار السينما وفى داخلها فتاة انيقة .. انيقة جدا .. شعرها .. والروج فوق شفتيها .. وثوبها كأنه مصنوع فى باريس .. و .. و .. فتاة من الطبقة الراقية .. تشير لى .. وارتبكت .. من هذه التى تشير لى .. واذا بها تنادينى بصوت خافت .. ممدوح .. تعال يا ممدوح .. واقتربت منها .. انها فيفى ، فيفى بعينها .. وقد كبرت .. ونضجت .. واكتملت .. كل ما فيها شهى .. لذيذ .. لذيذ جدا ..

لقد كنت واهما .. انها لم تكن خادمة ابدا ..

والتفت الى زملائى الطلبة ، وانا مرفوع الراس . وحييتهم بطرف اصبعى ، ثم ركبت السيارة بجانب فيفى .. وتركتهم أشبه بالمصعوقين ..

وتحادثنا طويلا .. حديثا حلوا .. رقيقا .. وطافت بنـا السيارة الأجرة طويلا .. ونزلنا منها عند كورنيش النيل ، وحاولت أن ادفع الحساب .. ثمانية وخمسين قرشا .. فأسرعت وفتحت حقيبتها واخرجت ورقة من ذات الخمسة الجنيهات .. معها خمسة جنيهات ، وكل ما معى لا يكمل جنيهين ..

وقالت لى فيفى انها تقيم مع امها واختهـا نادية فى مصر

الجديدة .. وقالت لى انى حبها الأول والأخير .. وانها اخلصت لى طول عمرها .. و .. و .. وأعطتنى رقم تليفونها وطلبت منى أن احادثها فى التليفون .. كل يوم .. وفى اى ساعة .. لأتأكد انها دائما فى البيت .. ودائما فى انتظارى .. الى أن نتقابل يوم الخميس عندما اخرج من الكلية ..

وكانت لى طرقى الخاصة فى استعمال تليفون كلية البوليس .. فكنت احادثها فى التليفون كل يوم .. ودائما اجدها فى انتظار حديثى .. الى ان كان يوم الأربعاء .. قبل يوم الخميس الذى سالقاها فيه ، واتصلت بها بالتليفون .. نفس الرقم الذى أستعمله كل يوم .. وردت على امراة يبدو انها عجوز : وسألتها :

— فيفى موجوده ؟

وقالت :

— ما عندناش حد اسمه فيفى ..

وذهلت .. وعدت اتصل بها مرة ثانية .. وثالثة .. ورابعة .. ودائما .. ما عندناش حد اسمه فيفى .. وفى مرة سألت عن اختها نادية .. فرد الصوت العجوز :

— ست ناديه خرجت ..

واذن فان لها أختا اسمها نادية وهى تقيم معها .. انها تكذب على .. ولكن اين ذهبت .. فيفى ..

وكدت اجن .. وانقضى اسبوعان وانا مجنون .. ثم فجأة .. وفى يوم خميس .. اتصلت بى بالتليفون فى بيتى .. وقالت لى ان امها قد غيرت نمرة التليفون تخلصا من المعاكسات .. فسألتها عن النمرة الجديدة .. فقالت ان امها تخفيفا عنها وعن اختها لأنها تتهمهما بأنهما يشجعان الشبان على معاكساتهما .. وقالت انها ستتصل بى دائما ..

وتركتنى وأنا لا أستطيع تصديقها .. كيف تقول ان أمها قد غيرت الرقم ، فى حين انى لما سألت عن اختها ، فى هذا الرقم ، قالوا لى انها خرجت ..

وعشت حائرا .. من هى فيفى .. هل هى خادمة .. هل هى من بنات العائلات .. هل هى ساقطة .. ومن اين تأتى بهذه الثياب الغالية التى ترتديها ، بعد ان كانت ترتدى ثوبا لا يبدو انه ثوبها .. ثم هذه النقود التى تملأ حقيبتها ؟ ..

وكانت تتصل بى دائما .. ونتقابل كل خميس وجمعة .. وعرضت عليها يوما أن نتقابل فى شقة احد اصدقائى ، فغضبت .. واحتدت .. انها فتاة .. فتاة شريفة .. واعتذرت لها .. وبعد بضعة اسابيع قبلت ان تأتى معى الى شقة صديقى ، فقط حتى لا يرانا الناس وأنا أسير بجانبها ببدلتى العسكرية .. وهناك عاملتها على انها فتاة .. فتاة شريفة !

واصبحت احبها .. احبها فعلا .. ولكنى لا زلت حائرا فيها .. من هى .. ما هى .. حتى اسمها لا تريد أن تقوله لى ، وكلما سألتها أجابت ضاحكة :

ـ كفاية عليك دلوقت .. فيفى . وبعدين حاتعرف كل حاجه .

وهرعت الى صديقى عصام ، فقال لى ان اسمها عندما كانت تشتغل عندهم .. كان « نعمت » .. لا بد انه اسم مستعار ..

وفى يوم كنت أسير معها فى الجزيرة ، ومررنا بنادى الجزيرة فقالت :

ـ تيجى نقعد فى النادى ..

قلت :

ـ انا مش عضو ..

قالت :

ـ انا عضو ..

قلت :

ـ مش معقول ..

وابتسمت .. واخرجت من حقيبتها بطاقة عضوية النادى ، وعليها صورتها ، وختم النادى .. وقبل ان التقط منها البطاقة لاقرا اسمها ، اخفتها داخل حقيبتها ، وهى تقول : ضاحكة :

ـ ممنوع ..

لا يمكن ان تكون خادمة .. ولكن لماذا لا تكون خادمة .. ربما ساقطة .. ان الساقطات اللاتى يبعن اجسادهن هذه الأيام .. لا يبدو عليهن السقوط .. و .. انا احبها .. احبها .. أحبها بعدد انفاسى ..

ثم .. ثم اختفت .. وعدت مجنونا .. ابحث عنها .. ولا انام ..

ثم .. ثم بعد شهرين ، ظهرت من جديد ، وعليها بقايا هزال .. وثوبها .. ليس انيقا كما تعودت أن أرى ثيابها .. وتصرفاتها ليست مرحة ولا مسلية .. كأنها فقدت شيئا ..

وقلت لها وانا اكاد أصفعها من غيظى :

ـ كنت فين ؟

قالت فى ضعف :

ـ كنت عيانة ..

وهدأت من غضبى ، وقلت :

ـ اسمعى يا فيفى .. انا باحبك ..

وقاطعتنى وعلى شفتيها ابتسامة خيل الى انها ابتسامة ساخرة :

ـ عارفه ..

ـ انا عايز اتجوزك .. ولازم اعرف عنك كل حاجه قبل ما اتجوزك .. انت مين .. وابوكى مين .. وعايشه ازاى .. و ..

وقالت وقد اتسعت ابتسامتها الساخرة :

ـ صحيح عايز تتجوزنى يا ممدوح ؟

قلت :

ـــ أنا باتكلم جد ..

قالت :

ـــ امتى .. امتى تتجوزنى ؟

قلت :

ـــ بكره .. النهارده .. دلوقت .. زى ما انتى عايزه !

قالت فى تهكم :

ـــ تتجوز خدامه يا ممدوح ؟

قلت كأنى أدافع عنها :

ـــ انتى مش خدامه .. عمرك ما كنت خدامه .. ازاى خدامه وانت عضوه فى نادى الجزيره ! ..

وسكتت قليلا ، ثم قالت :

ـــ سيبنى افكر .. بكره حاقولك رايى ..

ولم ارها فى الغد ..

اختفت ..

لم تعد أبدا الى حياتى ..

ولا زلت احبها ..

لا زلت حائرا .. من هى ؟ !

لم أعـد طفـلا

شاهدت فاتن حمامة لأول مرة ، عندما مثلت اول دور لها فى فيلم « يوم سعيد » .. كانت فاتن حمامة أيامها فى السابعة من عمرها ، وكنت انا فى العاشرة من عمرى ..

واحببتها .. صدق او لا تصدق .. لقد احببتها .. احببتها بكل ما يستطيع الحب ان يحمل الى طفل فى العاشرة من نقاء واوهام .. اصبحت أذهب الى المدرسة واجلس فى الفصل سارحا وراء صورتها .. وقد ضربنى المدرسون اكثر من مرة لعدم انتباهى الى الدرس .. ولكنى كنت أتلقى العلقة ، واعود واسرح وراء صورة فاتن .. وفى الطريق الى البيت .. وفى البيت .. والى ان انام .. دائما فاتن معى ..

واصبحت احرص على ان اشاهد كل فيلم تظهر فيه فاتن .. وأصبحت أحتفظ بكل صورة لها تنشرها الصحف والمجلات .. وكل اهلى يضحكون علىّ ويسموننى « مجنون فاتن » ، ولكنهم لم يحاولوا ان يقاوموا هذا الحب .. بل كانوا يأخذوننى الى الأفلام التى تظهر فيها فاتن .. ويهددوننى اذا أخطأت بحرمانى من مشاهدة افلام فاتن ..

وكبرت .. ولم أفق من حب فاتن .. كبر حبى معى ..

واصبحت اشاهد افلام فاتن اكثر من مرة .. بعضها شاهدته عشر مرات .. واصبحت صورة فاتن تملأ جدران حجرتى فى البيت .. واضعها بين صفحات كتبى ، والصقها فى داخل الدرج الخاص

بى فى المدرسة .. وصورة كبيرة لها فى اطار جميل بجانب فراشى .. وزدت على ذلك ، فأصبحت احتفظ بكل قصاصات الورق التى تكتب عن فاتن .. وخصصت لهذه القصاصات البوما خاصا ، الصقها فيه بعناية .. وأصبح عندى بدل الألبوم ، اثنان .. ثم ثلاثة .. ثم خمسة ..

وكبرت اكثر .. وتبينت حقيقة هذا الحب ..

انى لست مجنونا .. انى أعرف بالضبط حقيقة عواطفى .. انى احب فاتن التى أراها فى الأفلام .. احب فاتن الفنانة .. ولكنه حب .. حب بكل ما فى الحب من معنى .. ولم احاول أن اقاوم هذا الحب .. بالعكس .. ازددت استسلاما له .. اصبحت وانا فى العشرين من عمرى لا ازال اجمع صور فاتن ، والصقها فوق جدران غرفتى .. ثم أجلس كل مساء الى الصورة التى بجانب فراشى ، واحدثها .. احدثها عن كل ما يجرى لى فى يومى .. وعن كل مشاكلى ثم استمع الى رأيها .. واحس بها تبتسم لى او تغضب منى .. ولم يكن هذا ايضا جنونا .. فكل انسان محتاج الى مناقشة نفسه .. وفاتن هى نفسى .. هى الشخص الآخر الذى يعيش فى صدر كل انسان .. وابتسامة فاتن لى هى ابتسامتى لنفسى عندما اكون راضيا عنها .. عن نفسى .. وغضبها منى .. هو غضبى على نفسى عندما يكون ضميرى ثائرا على شىء فعلته .. كانت فاتن هى نفسى اناقشها .. وأروى لها اخبارى .. وعندما انجح فى الامتحان ، اجرى الى غرفتى ، وامسك صورتها وأصيح :

— انا نجحت يا فاتن ..

ثم ادور أرقص فى الغرفة ..

وكان هذا هو حبى الوحيد ..

لم يكن لى حب آخر ..

ظللت حتى وصلت الى الثلاثين من عمرى ، وليس فى حياتى امرأة .. لا حب ، ولا شبهة حب .. لقد حمتنى فاتن من كل النساء .. أو حرمتنى منهن ..

وقد تزوجت فاتن خلال ذلك .. تزوجت عز الدين ذو الفقار ، ثم تزوجت عمر الشريف .. ولكن زواجها لم يكن له أثر فى حبى .. لم يثر غيرتى .. ولم يجعلنى أفيق .. لقد كنت انظر الى زواجها كأنى انظر الى احد افلامها .. واحتفظ بصورتها فى زواجها ضمن الصور الأخرى التى تصورها فى أدوارها .. لم يكن لفاتن فى نظرى حياة خاصة ، حتى يكون لزواجها نفس المعنى الذى يحمله زواج اية فتاة اخرى .. كانت فاتن فنانة .. فنانة .. فقط .. ليست مجرد انسانة ، ولكنها فنانة .. ولو رأيتها بعينى رأسى تأكل لاعتقدت انها لا تأكل كبقية الناس .. او لحاجتها الى الأكل .. ولكنها تقوم بأحد ادوارها كفنانة ..

واصبحت فى الواحدة والثلاثين من عمرى ..

واصرت امى على أن اتزوج ..

وانت لا تعرف أمى .. انها دكتاتورة .. اذا اصرت على شىء فلابد أن ينفذ .. وعبثا حاولت أن اقنعها بأننى لست فى حاجة الى الزواج ، وانى اسعد مخلوق فى الدنيا ولست فى حاجة الى مزيد من السعادة ..

ولكن الديكتاتورة أصرت ..

وزوجتنى من فتاة جميلة ، مثقفة ، ذكية ، طيبة .. ولكنى ما زلت أحب فاتن .. ونقلت معى الى بيتى الجديد كل صورها ، وكل الالبومات التى احتفظ فيها بقصاصات الصحف . شىء واحد تغير .. وهو انى لم اعد استطيع ان احتفظ بصورة فاتن الكبيرة

بجانب فراشى فاحتفظت بها فى غرفة مكتبى ، وكنت اخلو بها كل مساء واحدثها كعادتى .. ثم اذهب الى زوجتى .. ولم تكن زوجتى بالنسبة لى سوى عمل طلبت منى امى ان اؤديه ..

ولاحظت زوجتى منذ الأيام الأولى لزواجنا حبى لفاتن .. ولاحظت عليها انها ربما كانت غاضبة .. او حائرة .. ربما بدات تغار من فاتن .. ولكنها سكتت .. لم تطلب منى ان اتخلص من صور فاتن .. ولم تسالنى عن الساعات التى اقضيها فى غرفة المكتب وحيدا مع صورة فاتن .. لم تحدثنى عن فاتن اطلاقا .. وكنت كلما دعوتها الى مشاهدة فيلم من افلام فاتن ، ذهبت معى دون اعتراض .. بل انها ذهبت معى لمشاهدة فيلم « لا انام » ثلاث مرات ..

الى ان كان يوم .. ودخلت مرة فوجدت زوجتى واقفة فى غرفة النوم تنظر داخل دولابها الخاص الذى تحتفظ بمفتاحه .. وما كادت تحس بى ، حتى ابتعدت عن الدولاب فى ارتباك ، واغلقته بالمفتاح ، ثم نزعت المفتاح من القفل ودسته فى جيبها ، ووقفت امامى مرتبكة ، ووجهها محتقن ..

واثارت هذه الواقعة انتباهى .. ولكنى تلهيت عنها .. ولم احادثها بشأنها .. الى أن مر اسبوع ، وضبطتها مرة ثانية فى نفس الموقف ، تنظر داخل دولابها .. وتكرر منها نفس الارتباك الذى اعتراها اول مرة .. وسكت ..

ولكنى لم اهدا ..

كنت حائرا .. تملؤنى شكوك لا استطيع ان اصدقها ولا استطيع ان اتخلص منها ..

ثم حدث يوما أن كنا فى غرفة النوم ، وتركتنى زوجتى ودخلت الحمام .. وسقطت عينى على دولابها .. فرايت المفتاح فى القفل ،

وكما يفعل اللصوص ، قمت على اطراف اصابعى ، وفتحت الدولاب ..

ووقفت مبهوتا .. لقد وجدت ..
اتدرى ماذا وجدت داخل الدولاب ؟

لقد وجدت صورة عمر الشريف .. !!

واغلقت الدولاب ، ولم ادر ماذا افعل .. لم استطع ساعتها ان اتبين حقيقة عواطفى .. وعادت زوجتى .. ونظـرت فى وجهى وقالت :

ــ مالك ؟ ..

قلت :

ــ ما فيش .. عندى شوية مغص بسيط !

وقضيت بعد ذلك اياما قلقا حائرا .. ان زوجتى تحب عمر الشريف .. وحاولت ان اقنع نفسى بأنها تحبه كما أحب فاتن .. تحبه كفنان .. وبدات اتذكر انها تحرص دائما على مشاهدة كل افلامه .. وانها فى مناسبات كثيرة كانت تبدى اعجابها به كفنان ، وحاولت أن أعطيها الحق فى حبه ، ما دمت أعطى نفسى الحق فى حب فاتن .. ولكنى لم استطع ، وكان علىّ أن اواجه نفسى بالحقيقة .. انى أغار من عمر الشريف .. نعم .. انى أغار منه ..

والمهم انى فى خلال هذه الأيام بدات اهمل حبى لفاتن .. لم اعد اقلب فى صورها التى أحتفظ بها .. واصبحت كلما خلوت الى صورتها فى غرفة مكتبى .. تبتعد عنى الصورة .. تخفيها عنى عواطفى نحو زوجتى وغيرتى عليها من عمر الشريف .. بل انى أصبحت أختصر اوقات هذه الخلوة ، واجرى لأجلس مع زوجتى حتى لا اتركها تخلو مع صورة عمر الشريف ..

ودخلت يوما الى زوجتى ، وكانت جالسة فوق السرير بقميص

النوم وما كادت تلمحنى حتى اخفت تحت الوسادة شيئا كان فى يديها .

انى اعرف هذا الشيء ..

انه صورة عمر الشريف ..

ولم اتكلم ..

ولم استطع النوم ، وصورة عمر تحت وسادتى .. اننى مهما تماديت فى حبى لفاتن ، فلم اضع صورتها ابدا تحت وسادتى ، لا قبل الزواج ولا بعده .. ان زوجتى مجنونة .. ومن يدرى لعلها تحب فى عمر الانسان لا الفنان .. حتى لو لم تكن تتصل به .. غربما تتمناه .. ربما تفضله — كرجل — عنى ..

وكدت اجن ..

احسست بالنار تشتعل فى فراشى .. وزوجتى بجانبى نائمة فى هدوء لا تحس بنارى .. وفى الصباح — ولم اكن قد اغمضت عينى طول الليل لحظة واحدة — لم استطع ان اسيطر على اعصابى .. وقلبت المخدة ، ثم امسكت بصورة عمر ، وقلت وانا افتعل الهدوء :

— انتى بتحبى عمر الشريف ؟

وقالت زوجتى فى حياء :

— ايوه ..

واخذت اروح واغدو فى الغرفة ، وصورة عمر فى يدى وثورتى تخنق صوتى ..

وقالت زوجتى فى براءة :

— انت زعلت ؟ ودى فيها حاجه دى ؟

وقلت صارخا :

— ده لعب عيال .. انتى كبرتى خلاص يا ست هانم ..

وقالت كأنها تتحدانى :

— طيب ما انت كبير ، وبتحب فاتن حمامه ..

وكنت قد نسيت فى تلك الليلة حبى لفاتن :: صدق او لا تصدق ، لقد نسيت حبى .. هبطت من السماء التى عشت فيها طول حياتى ، ووقفت على الأرض تعذبنى الغيرة على زوجتى ..

وصرخت :

— انا باحب فاتن كفنانة .. و ..

وقالت تقاطعنى وهى تصرخ مثلى :

— وانا باحب عمر كفنان ..

وعدت اصرخ :

— فنان واللا مش فنان .. دى مرقعة بنات .. دى قلة احترام لبيتك وجوزك .. اذا كان على فاتن انا مستعد اقطع كل صورها .

واندفعت الى غرفة مكتبى كالمجنون .. وامسكت بصور فاتن وهممت ان امزقها .. ولكن زوجتى لحقت بى ، وامسكت بيدى .. وقالت وهى تبتسم :

— ما تقطعش صور فاتن .. خذ صورة عمر قطعها لو كنت عايز .. اصلى باحب فاتن اكتر من عمر ..

ووقفت انظر اليها مشدوها ، وهى تبتسم لى .. ابتسامة حلوة حانية . واحسست إنى أفقت .. افقت من غيرتى من عمر ، ومن حبى لفاتن .. واحتضنتها ..

واحسست انى اريد ان ابكى على صدرها ..

وانتقلت الى مرحلة اخرى من عمرى .. اجمل ايام عمرى ..

بنت السـلطان

اسمى : فوزى فهمى .. واذا أردت أن تكون دقيقا ، فان اسمى بالضبط هو : فوزى افندى فهمى !!

عمر الآن ٢٥ سنة ..

وانا انسان جاد .. طول حياتى حاولت أن أكون انسانا جادا . ومنذ تسع سنوات نلت شهادة الثقافة العامة ، وعينت موظفا فى مصلحة السكك الحديدية .. درجة تاسعة .. المرتب عشرة جنيهات .. ولم يكن يهمنى أبدا انى لم اتم تعليمى .. أو ان مرتبى ضئيل .. كان كل ما يهمنى ان أكون انسانا جادا .. وكنت قد وضعت لنفسى مجموعة من المقاييس والموازين ، احرص عليها فى دقة .. وكل تصرفاتى ، وكل تصرفات الناس نحوى تدور حول هذه المقاييس والموازين ..

انى أختار ثيابى بحساب ، واسوى شعرى وشنبى بحساب ، وأذهب الى المصلحة بالدقيقة ، وفى الساعة الثانية والربع تماما تجدنى اتناول غدائى فى بيتى مع والدتى .. واستطيع ان احدد لك بالضبط ماذا سيكون غدائى فى يوم الاثنين الأول من شهر يناير عام ١٩٦١ ..

وفى الساعة السادسة مساء اخرج من بيتى ، واتوجه الى شارع خلوصى — بشبرا — واجلس أمام دكان صديقى السيد نظمى هلال البقال وولده .. وولده لا يهمك فى قصتى ، لأنه لا يتجاوز العام الثالث من عمره ..

وكانت جلستى امام دكان البقالة هى نزهتى الوحيدة .. ارقب خلالها الناس المارين فى الشارع ، وارقب صديقى السيد نظمى ، وهو يغازل البنات المترددات على دكانه .. ان السيد نظمى قاموس فى كلمات الغزل ..

ولم اكن اعترض على غزل السيد نظمى للبنات .. ولم احاول مرة أن اشاركه فيه ، فله دينه ولى دينى .. وعلى العكس كنت أجد فيه كثيرا من التسلية ، توفر علىّ الذهاب الى سينما شبرا ..

ولكننى لاحظت أن السيد نظمى يتجرأ على مغازلة كل البنات الا واحدة .. فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها .. بيضاء .. شعرها اصفر .. وعيناها فى لون البرسيم ، ممتلئة القوام قليلا ، وكانت تأتى الى الدكان وتشترى ما تحتاج اليه وهى جادة .. اكثر من جادة .. كأنها غاضبة .. ثم تنصرف دون أن تتكلم او تسمح لأحد بأن يكلمها ..

وسألت السيد نظمى مرة ، لماذا لا يتجرأ على مغازلتها رغم انها أجمل زبوناته ، فأجاب سيادته :

— لا يا فوزى افندى .. ما لناش دعوه بيها .. دى اصلها تركيه وراسها ناشف ..

وضحكت بينى وبين نفسى .. وحمدت الله أن قاموس السيد نظمى لا يستطيع أن يصل الى كل البنات ..

وكان السيد نظمى يغيب عادة عن دكانه فى الساعة السابعة مساء ، ريثما يذهب الى بيته ويعود بعد قليل ، وكان فى هذه الفترة يعهد الىّ بالدكان لثقته بى .. وهى ثقة لا زلت أعتز بها .. وهذه الفترة هى عادة فترة ركود تجارى ، ينقطع خلالها تكاثر الزبائن . ورغم ذلك فلو صادف وجاء زبون ، فانى لا اتردد فى أن أبيع له

ما يريد ، اذا كان ما يريده لا يحتاج الى مهارة خاصة : اسبرين ، باكو شاى ، ابرة وابور جاز .. الخ ..

وحدث يوما ، بينما كنت فى الدكان مكان السيد نظمى أن جاءت الفتاة التركية ، وطلبت فى لهجة حازمة :

ــ اسبرين من فضلك !

وارتبكت .. ولا ادرى لماذا ارتبكت .. ربما لأن السيد نظمى كان قد رسم لها فى مخيلتى صورة قاسـية .. وربما لأنى كنت أعتبرها اجمل بنات الحى .. وناولتها الاسبرين ، واخذت منها الثمن ، وانا لا استطيع أن ارفع عينى الى وجهها ..

وبعد يومين .. وفى نفس الوقت .. جاءت مرة ثانية :

ــ ادينى ربع اقة حلاوه طحينيه !

واعتذرت .. طلبت منها ان تنتظر حتى يعود السيد نظمى وولده .. لانى لا استطيع أن أتحمل مسئولية وزن الربع اقة .. انا فقط ابيع الأشياء التى لا تحتاج الى وزن او مساومة .. ولكنها لم تقبل اعتذارى .. انها تريد الحلاوة حالا .. ثم دخلت الدكان ، ونحتنى قائلة :

ــ اوعى انت ..

وامسكت بالسكين الكبير ، وقطعت فى لوح الحلاوة الطحينية ، ووزنت لنفسها ربع اقة .. ودفعت الثمن .. وانصرفت .. وانا ارتعش .. ووجهى ممتقع .. لا أدرى ماذا اقول ولا كيف اتصرف . ولم يغضب منى السيد نظمى عندما عاد ، بل ضحك قائلا :

ــ انا عارفها .. عقل تركى ..

وتكرر حضور قدرية ــ وكنت قد عرفت اسمها ــ فى المواعيد التى يتغيب فيها السيد نظمى من دكانه .. ولم تحادثنى مرة ، او تبتسم لى .. فقط تطلب ما تريد وتمشى .. الى أن كان يوم جاءت

تطلب شراء اسبرين ، وناولتها قرصين ، وانا صامت ، لا ارفع عينى اليها .. ودفعت الثمن .. ولكنها ظلت واقفة وهى تنظر الى فى ثبات ، ثم قالت :

ــ تفتكر الاسبرين يضيع البرد ؟

ونظرت اليها ، وارتدت نظرتى سريعا .. كأنى خفت من جمالها وخفت من عقلها التركى .. خفت من نظرتى اليها .. وقلت فى تلعثم كأنى اخاطب بنت السلطان :

ــ والله يا افندم .. بذر الكتان أحسن ..

قالت فى لهجة آمرة :

ــ طيب ادينى بذر كتان ..

قلت لبنت السلطان :

ــ مافيش عندنا .. انا آسف .. انما موجود فى الأجزخانه اللى جنبنا .

وقالت الآمرة :

ــ طيب تعال ..

ووقفت مشدوها لا افهم ماذا تريد .. فشخطت فى وجهى :

ــ تعال اشتريه من الأجزخانه ..

وخرجت من الدكان صاغرا ، وسرت وهى بجانبى ، وركبتاى ترتعشان حتى وصلنا الى الاجزخانة .. واشتريت لها بذر الكتان . ودفعت لى الثمن .. ثم أدارت ظهرها .. وانصرفت ..

وعادت مرات اخرى .. والموقف لا يتغير .. ارتجف كلما رأيتها .. وانظر اليها كأنها نجم فى السماء ، يتنازل أحيانا ويطل على الأرض .. ولا أخفى عنك أن اهتمامى قد زاد بها .. وجمعت عنها بعض المعلومات .. انها تسكن فى نفس الشارع .. شارع ذلوصى .. وهى طالبة فى مدرسة الفنون الطرزية .. وجميع شبان الحى يرهبونها ، ولا يجرؤ احد على مغازلتها ..

وفى يوم جاءت الى الدكان .. فى نفس الموعد الذى يتغيب فيه السيد نظمى وولده .. وطلبت شراء « كمون » .. وارتبكت .. فانى لا اعرف مكان الكمون فى الدكان .. فاذا بها تدخل الى الدكان ورائى لتدلنى على مكانه ؛ ثم تدس فى يدى ورقة ، دون ان تتكلم .. وارتعشت يدى فوق الورقة .. وخرجت ..

وانتظرت الى ان غابت عن عينى ، وفتحت الورقة ، وقرات فيها « انتظر غدا ، على محطة ترام التوفيقية ، الساعة السادسة » .

وارتبكت مقاييس حياتى .. فلم يكن من بينها مقياس لمثل هذا الموعد .. وارتبك يومى كله .. وارتبك تفكيرى ، وقلبى .. ولكنى قررت ان احتمل كل هذا ، وان اجازف بكل المقاييس والموازين فى سبيل بنت السلطان .. والواقع انى خفت .. خفت من كل هذه الضجة التى بدات تزحف على حياتى .. وذهبت الى الموعد ، وانا ايضا خائف .. خائف منها ..

وانتظرت .. ربما انتظرت طويلا .. ولكنى لم انتظر الى ما بعد الساعة الثامنة .. ليس اكثر من ساعتين .. ولم تحضر .. وعدت الى البيت ، وقد ضاعت منى — لأول مرة — جلستى امام دكان السيد نظمى وولده ..

ولا اكتمك انى لم انم ليلتها ..

وفى اليوم التالى ذهبت الى دكان السيد نظمى .. ومعدتى ترتعش .. واخذت أتطلع الى الطريق ، فى نظرات مختلسة .. ثم قام السيد نظمى وذهب الى بيته ، وبقيت وحدى فى الدكان ، وفجأة ، رايتها أمامى .. قدرية .. بنت السلطان .. ولم تبتسم ، ولم تتكلم .. لم تطلب حتى شيئا تشتريه كعادتها ، انما دست بيدى ورقة ، وانصرفت ..

انها تعتذر .. لم تستطع أن تغادر البيت .. وهى تحدد اليوم التالى .. نفس الموعد .. ونفس المكان .. وذهبت ..

وانتظرت .. وبعد نصف ساعة جاءت .. ولكنها لم تقف ، ولم تحادثنى .. اشارت الىّ بطرف عينيها وبهزة خفيفة من يدها ان اتبعها .. وتبعتها .. أسير وراءها ، الى ان وصلنا الى اول شارع شبرا .. فتمهلت حتى اقتربت منها .. وقفزت فى احدى سيارات التاكسى ، وهى تهمس :

— تعال ..

ثم استطردت :

— قول له يطلع قوام ..

قلت :

— على فين ؟

قالت :

— اى حته ..

قلت وقد بدا العرق يتصبب من يدى :

— يعنى .. بس قولى حضرتك .. اصل ..

ونظرت الى فى حدة ، ثم قالت للسائق :

— كازينو الحمام ..

وذهبنا الى كازينو الحمام ، وقادتنى الى خميلة بعيدة تظللها فروع تخفيها عن أعين الناس ، وجلست بجانبها وانا لا استطيع أن أتكلم .. كأنى أنتظر منها أن تطلب قرص اسبرين ، أو باكو شاى .. وربما تعمدت أن تكشف عن ساقيها قليلا ، أو تميل علىّ اكثر من اللازم .. ولكنى كنت فى حالة من الارتباك والرهبة بحيث لم استطع ان اقول شيئا ، او امد يدى اليها ..

وانصرفنا بعد ساعتين ، وهى تبدو جادة كما هى ، قاسية .. وانا أسير بجانبها كالدلدول ..

وبعد يومين قابلتها مرة ثانية ، وركبنا سيارة تاكسى ، وقلت كأنى أعرف الطريق :

ـــ كازينو الحمام ..

فقالت فى حدة :

ـــ لا ..

ثم استطردت تخاطب السائق :

ـــ اطلع على الدقى !!

وغاص قلبى فى صدرى .. خفت .. فلم اكن ادرى الى اين تأخذنى .. ولم تكن لى من التجارب ما يؤهلنى لأن احتمل هذه التجربة ..

وبقيت ساكنا .. وكل شىء فى داخلى يرتعش .. الى أن دخلنا فيللا فى الدقى .. كان الجو الذى يحيط بالفيللا يوحى اليك انها اعدت خصيصا لاستقبال هذا النوع من النساء والرجال .. وفتحت لنا الباب سيدة فى حوالى الأربعين من عمرها ترتدى الملابس الغامقة وتضع على وجهها أصباغا فاقعة ، وتطل من عينيها نظرات حازمة .. وقادتنا الى غرفة .. غرفة نوم .. واغلقت الباب علينا .. ثم انصرفت ..

وقالت بنت السلطان :

ـــ معاك جنيه ؟

وكنت مستعدا لمثل هذه الاحتمالات .. احمل فى جيبى كل ما ادخرته .. فأعطيتها الجنيه ، وخرجت به .. وربما اعطته للمرأة التى فتحت الباب .. ثم عادت .. وجلست بجانبى .. ولاحظت انها التصقت بى اكثر من اللازم .. وانها كشفت ثوبها عن ساقيها .. ثم قالت :

ـــ اف .. الدنيا حر !

ثم خلعت جاكت التايير ، وظهر لحم كتفيها وصدرها فى لون القشطة .. ورغم ذلك فلم اكن استطيع أن افعل شيئا .. كانت

الرهبة تهزنى .. والخوف يملأ صدرى .. لم اكن استطع ان اتحرر من احساسى بأنى جالس فى حضرة بنت السلطان .

وبعد فترة قامت من جانبى ، وارتدت الجاكت ، ثم خرجت وهى تقول :

ـــ دقيقة واحده من فضلك !

وبقيت جالسا فى انتظارها .. كم انتظرت ؟

وربما اكثر من ساعتين .. الى ان فتح الباب ، ودخلت المرأة التى فتحت لنا الباب والتى عرفت فيما بعد ان اسمها عزيزة . وخبطت صدرها قائلة :

ـــ انت لسه قاعد .. دى ست قدريه خرجت من زمان .

وازداد ارتباكى ، دون أن احير جوابا ..

وعادت عزيزة تقول :

ـــ ده انت باين عليك خام خالص .. وريني كده ..

ثم اقتربت منى ، واخذت وجهى بين يديها ، ثم انقضت على شفتى تقبلهما .. ولم اكن اشعر نحو عزيزة بنفس الرهبة التى اشعر بها نحو قدرية .. فبادلتها القبلات .. وانسقت معها الى اخر الطريق ..

لقد قلت لك انى رجل جاد .. حياتى كلها تدور حول مجموعة من المقاييس والموازين .. وقد اصبحت عزيزة ضمن هذه المقاييس والموازين ، اذهب اليها كل مساء فى الساعة الثامنة .. وقبل ذلك اذهب لاجلس امام دكان صديقى السيد نظمى هلال وولده .. وانتظر الى ان تأتى قدريّة ، وتقول لى فى لهجة بنت السلطان :

ـــ ادينى اسبرين من فضلك ! .

فأعطيها الاسبرين وقلبى واجف .. لا استطيع النظر الى عينيها .. !!

بــلا كـــرامة

كنت أجلس فى مقهى « ألدونيه » بروما ، وآثار انفلونزا ، مضى عليها عشرة أيام ، لا تزال تنهش فى رأسى ، وتكوى أنفى ، وتثقل جفونى ..

وعندما تجلس فى مقهى « الدونيه » لا ترى ايطاليا وحدها ، ولكنك ترى العالم كله .. انه مقهى يقع فى شارع « فيافنتو » احد الشوارع المشهورة فى أوروبا كلها .. ورواده كلهم من الأجانب أمريكان ، والمان ، وانجليز ، وعرب ، وسنغاليين .. و .. و .. وكلهم من الثراة ، أو من النجوم .. نجوم السينما ، أو السياسة .. أو نجوم المال !

وهى متعة كبيرة أن تجلس فى مقعد ، ترقب العالم وهو يمر من امامك .. وكنت استعين بهذه المتعـــة على مقـــاومة آثار الانفلونزا ، عندما سقطت عيناى على فتاتين تجلسان الى مائدة قريبة .. جميلتان .. لا تزيد عمر كبراهما عن الخامسة والعشرين .. وكل منهما ترتدى ثوبا انيقا .. كل شىء فيهما أنيق .. الحذاء .. السوار .. الابتسامة .. ولفتات العينين .. اناقة ليس فيها ابتذال .. والصغرى منهما لها وجه لا تستطيع ان ترفع عينيك عنه .. وابتسامتها تطل من تحت سنتين بارزتين بروزا خفيفا ، وتتسلل الى قلبك ، وتكاد تأخذه .. والاثنتان منهمكتان فى حديث طويل .. لا ينتهى .. ولا تنظران الى احد كأن كلا منهما قد اكتفت من العالم ، بالأخرى ..

واخذت، احاول ان ارسم لكل منهما قصة من خيالى .. من اين جاءتا .. لعلهما من المانيا .. لعلهما من انجلترا .. لعلهما من اليونان .. ومن يدرى ربما كانت صغراهما ابنة المليونير العالمى اوناسيس .. وعندما احترت فى تحديد جنسيتهما ، قررت — بينى وبين نفسى انهما من امريكا .. فان الشخص الذى لا يبدو على وجهه خطوط واضحة تحدد جنسيته ، غالبا ما يكون امريكيا ..

وتخيلت الصغرى ابنة مليونير امريكى .. عاشت حياتها فى قصر كبير ، وتلقت علومها فى مدرسة داخلية للبنات ، وقضت عاما واحدا فى الجامعة .. ثم خطبت .. وتزوجت منذ اسبوع واحد ، وجاءت الى ايطاليا مع عريسها لقضاء شهر العسل .. لابد أن عريسها ذهب الآن ليبحث عن تذاكر لمباريات الاولمبياد ، بينما هى جالسة فى انتظاره مع صديقتها .. و ..

وقطع خيالى صديق عربى جاء وجلس بجانبى يتحدث الى .. ولاحظ خلال الحديث انى ما زلت انظر من تحت جفونى الثقيلة الى الفتاتين .. وتتبع عينى .. ثم ابتسم ابتسامة ساخرة ، وقال :

— هل معك عشرون الفا ؟

واعتقدت انه يريد أن يقترض ، فقلت على الفور :

— معى ..

ووضعت يدى فى جيبى لاخرج العشرين الف ليرة .. وهو يساوى — بالسعر الرسمى — حوالى خمسة عشر جنيها ..

ولكن صديقى لم ينتظر حتى يأخذ منى النقود .. بل قام على الفور واتجه الى الفتاتين ورايته يصافحهما ببساطة ، ثم انحنى يخاطب الفتاة الصغرى .. ورأيتها بعد لحظة تقوم واقفة ، ثم اتت معه الى مائدتنا ..

ووقفت استقبلها ، وقد رفعت الدهشة جفونى الثقيلة من فوق عينى ، واطارت آثار الانفلونزا من رأسى ..

لقد فهمت ماذا كان يقصد صديقى عندما طلب منى العشرين الف ليرة ..

وقدمها الى باسما :

— روسانا ..

واختصر اسمى وهو يقدمنى اليها :

— حسن ..

وجلسنا .. وانا محرج ، مرتبك ، لا استطيع ان التقط طرف حديث ابداه معها .. وبعد قليل ، غمز لى صديقى بعينه ، ثم قام فورا ، واستأذن ، وابتعد .. وانا الهث وراءه بعينى ، كأنى استغيث به الا يتركنى وحدى .. !

ولكنه تركنى .. معها .. جالسين على رصيف مقهى الدونيه والعالم يمر من امامنا !

وازددت ارتباكا .. مرت لحظات طويلة وانا ابحث فى راسى عن كلمات اقولها لها .. والذين يعرفوننى ، يعرفون انى استطيع أن أثرثر بقلمى ، ولا استطيع أن اثرثر بلسانى ..

وسمعتها تقول :

— هل تريد أن ننصرف من هنا ؟

والتفت اليها وقلت فى ارتباك :

— لا .. ولكن صديقى سيعود الآن .. حالا !

وقالت وابتسامتها الأنيقة الرقيقة تطل من تحت سنتيها البارزتين :

— هل يجب أن ننتظره ؟

قلت بسرعة :

— نعم .. نعم ..

وسكتت وهى تهز كتفيها بلا مبالاة ، وابتسامتها تزداد رقة واناقة ..

وكان علىّ بعد ذلك ان ابداها اى حديث ، والا اعتقدت انى اتعمد اهمالها .

وقلت وسخونة الخجل — لا سخونة الانفلونزا — تشعل وجنتى :

— لقد كنت اتخيل الآن قصة انت بطلتها ..

قالت فى صوت رقيق :

— انا ؟

قلت :

— نعم .. أنت .. لقد تخيلتك ابنة مليونير امريكى ، تربيت فى قصر ، وتزوجت فى الأسبوع الماضى ابن مليونير امريكى آخر ، وجئت الى روما لقضاء شهر العسل .. و ..

ورنت ضحكتها رنينا رقيقا ، وقالت :

— يا ريت ..

قلت :

— هل كذب خيالى ؟

قالت وهى لا تزال تضحك :

— جدا .. انك على الأقل عرفت من اسمى انى ايطالية ..

ومر بنا جرسون المقهى ، فاستوقفته وسألتها ، وقد بدأ الارتباك يزايلنى :

— ماذا تطلبين ؟

قالت :

— الا تريد ان تذهب الى مكان آخر ؟

قلت وقد بدأت ارتبك من جديد :

— ان صديقى على وشك ان يعود .. لقد قال لى بالعربية انه سيعود ..

وهزت كتفيها بلا مبالاة ، ونظرت الى الجرسون ، وقالت :

— برتو ..

وجاء لها بكأس من البرتو الاحمـــر .. وقالت وهى تلمس بشفتيها حافة الكأس :

— هل تتخيل دائما قصصا عن الناس ؟

قلت :

— احيانا .. واحيانا يصدق خيالى ..

قالت :

— ولكنه كذب معى ..

قلت :

— دعينى اسمع الحقيقه .. حقيقة قصتك ؟

قالت :

— ليس لى قصة ..

قلت :

— كل انسان له قصة ..

قالت :

— ولكن قصتى بسيطة .. لا شىء فيها .. لا تصلح حتى لمجرد الحديث عنها ..

قلت :

— لنسمعها ... على الاقل لنقارن بينها وبين خيالها ..

ونظرت الى فى حدة ، وقد بدا وجهها يكسوه الغضب ، وقالت :

— لماذا تريد ن تسمع قصتى .. ؟

قلت ببساطة :

— لانى كاتب قصة ..

وابتسمت ، وقالت :

— ظننتك مجرد ثرثار .. هل تعرف انى من هواة القصص .. انى ذوب فى قصص البرتو مورافيا ..

واخذنا نتحدث عن قصص مورافيا .. تكاد تحفظها كلها عن ظهر قلب .. ثم عدت اقول لها :

— دعينا نسمع قصتك ..

وابتسمت كأنها تشفق على من لهفتى .. ثم قالت :

— حسنا .. اسمع ..

وبدات تروى قصتها .. بسرعة .. واختصار .. كأنها تقرأ اعلانا فى صفحة الاعلانات المبوبة ..

★★★

كنت فى السابعة عشرة .. موظفة فى بنك ، وادرس فى الوقت نفسه لنيل دبلوم من مدرسة التجارة .. وقابلت برونو .. انه طبيب شاب ، تخرج فى نفس العام الذى التقينا فيه .. مهذب .. هادىء .. رائع .. لم يكن فيه عيب الا انه اضعف من امه ..

واحببته ..

لا تتصور كم احببته .. اصبحت حياتى كلها هى برونو ..

ولم يكن يشوب حبنا الا خوفه وخوفى من أمه .. ثم .. ثم اخذنى برونو اليها .. الى امه .. وكان قد مضى عام على لقائنا .

وتبدد خوفى ..

انها ليست كما كنت اعتقد ..

انها حلوة .. رقيقة .. طيبة .. مريحة ..

وابتسمت لى كأنها تبارك حبى ..

واصبحت صديقتها .. اسأل عنها بالتليفون ، وتسأل عنى .. وازورها لاجلس بجانبها اذا مرضت .. وارسل اليها هدايا صغيرة ، وترسل لى هدايا كبيرة ..

وجعلتنى صداقتى لأم برونو ، اعتبر نفسى خطيبته .. انا لم نتحدث عن الزواج .. ولكنه كان شيئا مفروضا بيننا نحن الاثنين .. وكنت امنحه كل حقوق الخطيب .. اسمع كلامه .. واتحدث عنه امام امى واخوتى ..

ومضت اربع سنوات على حبنا !

وفى كل شهر ، سبب يؤجل زواجنا .. سبب اصدقه بسهولة ، وبلا مناقشة ..

ثم .. اتصلت بى احدى صديقاتى صباح احد الأيام ، وصاحت كأنها تنعى الى قلبى :

ــ هل تعلمين ماذا حدث ؟

قلت وانا اتثاءب :

ــ ماذا ؟

قالت :

ــ لقد تزوج برونو !

وقفزت فوق فراشى والهلع يمزقنى :

ــ متى .. وكيف ؟ !

قالت :

ــ امس .. الم يقل لك ؟

ولم اصدقها .. مستحيل ان اصدقها .. لقد كان برونو معى حتى اول امس .

واتصلت به بالتليفون ، وما كاد يسمع صوتى ، حتى قال قبل ان اسأله شيئا :

ــ يستحسن ان نتقابل ..

ولا ادرى كيف ارتديت ثيابى .. ولا كيف ركبت الأتوبيس .. انى الهث .. وامام عينى ضباب كثيف ، لا اكاد ارى من خلاله شيئا ..

ووقف امامى برونو .. وراسه منكس على صـــدره .. لا يستطيع ان ينظر الى .. وفهمت ..

صدقت صديقتى ..

ورفع برونو راسه ، وقال :

ــ ان امى كانت .. و ..

ولم ادعه يتم .. تركته وجريت عائدة الى بيتى .. ودموعى تشدنى وتكاد تلقى بى على الأرض ..

والألم .. انك لا تتصور مدى هذا الألم .. اربع وعشرون ساعة فى اليوم ، وكل شىء فى متقلص .. وجفونى لا تنسدل : كأنى بلا جفون .. ودموعى لا تكف عن عينى .. دموع هستيرية كأنها من قدر يغلى فى داخلى ..

وكنت اعلم ان مبعث هذا الألم ليس حبى ، ولكنه كرامتى .. كرامتى التى مزقها برونو وأمه ..

وكان على أن أحتمل الألم ، او انسى كرامتى ..

ولم احتمل الألم ..

ونسيت كرامتى ..

وعدت الى برونو .. عدت اليه .. وهو متزوج ..

ولم اكن اعتقد انى عندما تنازلت عن كرامتى ، تنازلت ايضا عن ارادتى .. لقد منحته بعد عودتى اكثر مما تمنحه زوجته ..

وكنت احاول ان اقنع نفسى بأنى اسعى لان يطلق برونو زوجته ويعود الىّ وحدى .. لقد تزوجها لانها غنية ولأنها ابنة عمه .. ولكنى سأجعله يزهد فى غناها .. وينسى انها ابنة عمه .. وكنت بذلك اضحك على نفسى .. كنت اخدع كرامتى .. وكنت اعلم انه ما دام قد تزوجها فلن يطلقها ..

ولكن برونو تغير .. لم تعد بيننا هذه الأمسيات الجميلة التى نسير فيها على رصيف النهر .. ولم تعد بيننا هــذه الاحاديث الرقيقة ، لم يعد بيننا امل .. لم يعد ملكى .. اصبحنا كلما التقينا

نختبىء فى شقة .. ويأخذنى متعجلا .. ثم يتركنى سريعا قبل أن نسأل عنه زوجته ..

وكرامتى تذوب ..

واحساسى باللامبالاة يسرى فى كيانى ..

وفى يوم عرفنى برونو بصديقه فيلبو .. شاب رائع هو الآخر .. وتركنى معه .. وكان فيلبو رقيقا ، عاطفيا ، استطاع بحديثه أن يشغلنى عن نفسى وعن برونو .. ذهبت معه .. مع فيلبو ! .

ذهبت معه فى أول لقاء .. ولم أحس بأنى أخون برونو .. ولا بأنى انتقم منه .. كل ما احسست به انى لا اريد ان اعود الى بيتى ، الى وحدتى .. وكرامتى الممزقة ..

وببساطة اصبح لى رجلا اذهب معهما .. برونو ، وفيلبو .. ثم سافر فيلبو .. وحل محله غيره ..

ثم اصبح لى كثير من الأصدقاء .. اصدقاء اذهب معهم .. وكل ما أحس به وانا معهم ، ثم بعد ان اتركهم ، هو .. اللامبالاة !

وفى وسط هذا الزحام ضاع برونو .. ضاع بلا تعمد منــه أو تعمد منى .. فقط ، ضاع ، وضعت ..

وانسقت فى طريق اللامبالاة ..

ان الخطيئة كالرمال المتحركة ، عندما تقف على أرضها تغوص فيها شيئا فشيئا ، حتى تختفى ..

وقد غصت فى ارض الخطيئة .. وأهملت دراستى فى كلية التجارة ، واكتفيت بوظيفتى فى البنك ..

واصبحت أبيع الخطيئة ..

ابيعها للسواح الاغنياء الذين يأتون الى روما .. انهم يدفعون كثيرا ويأخذون قليلا .. انهم خير من الرجال الايطاليين ..

★★★

وابتسمت روسانا ، ابتسامتها الرقيقة المهذبة ، وقالت :

ــ الا تريد ان تذهب الى مكان آخر ؟

قلت :

ــ لا .. ان صديقى سيعود ..

قالت :

ــ لا اظن انه سيعود ..

ثم قامت لتنصرف .. ووضعت يدى فى جيبى وأخرجت العشرين الفا .. وقلت فى تردد وارتباك :

ــ هل استطيع .. لقد أخذت من وقتك كثيرا .. وأخذت قصة !

وكنت أعتقد أنها سترفض ..

ولكنها اخذت النقود بحركة رشيقة ، لم يلحظها احد من الجالسين .. وهمست :

ــ جراتيسيا ..

اى متشكرة ..

ثم تركتنى ، وعادت تجلس الى المائدة المجاورة مع صديقتها انيقة .. رشيقة .. ارستقراطية ، كأنما ابنة مليونير ..

لست مغفـــــلا

لا ادرى بالضبط متى قررت ان أتزوجها .. والواقع انه لم يكن هناك اى داع لأتزوجها .. كانت قد مضت ثلاث سنوات وهى معى .. تأتى الى وتقضى الليل بين ذراعى .. وكنت أعلم أنى لست الوحيد الذى تطرق بابه فى الليل .. كان فى حياتها كثير من الرجال .. وكنت اعلم .. ولم تكن تخفى عنى .. وكان يجب ان ارضى بها على حالها .. ولكنى احببتها .. صدق او لا تصدق .. لقد احببتها .. احببت واحدة من هذا الصنف من النساء ..

وعندما احببتها فقدت ربع عقلى .. فبدات اغار عليهـــا .. وكنت اكذب غيرتى عليها .. كنت احاول ان اقنع نفسى بأن هذه الغيرة ليست سوى مجرد ادعاءات وحركات تمثيلية اقوم بهـــا لاكتسب قلبها ، لعلها تعطينى شيئا آخر غير ما تعطيه لبقية الرجال .. ولكنى كنت اغار عليها .. ولانى اغار عليها بدات اتعمد أن ألتقى بها كل ليلة حتى لا تذهب الى احد غيرى من الرجال .. كل لياليها يجب أن تكون لى .. لى انا وحدى .. والنهار ؟ لعلها تذهب الى الرجال الآخرين فى النهار .. فبدات أدعوها الى الغداء معى .. وبعد الغداء نذهب الى السينما .. وبعد السينما .. الى البيت ! ..

وبدات غيرتى تشتد .. كنت اقرصها فى ذراعها اذا حادثت رجلا آخر .. واضربها اذا اعترفت لى أن احدا لمس جســـدها ، وكانت تصرخ فى وجهى :

ــ انت مالك يا بايخ .. انت حاتستعبدنى .. انت فاكر نفسك حاتجوزنى ! ..

لماذا لا أتزوجها ؟ ! ..

انى أستطيع لو تزوجتها ان استريح .. أستريح من كل الرجال .. واحتكرها .. تصبح لى وحدى ..

وفقدت نصف عقلى .. وتزوجتها ..

ومنذ تزوجتها ازداد عدد الرجال الآخرين امام عينى .. اصبح كل رجل يمر أمامى عشيقا لزوجتى ، او كان عشيقا لها ، اصبحت انظر الى زملائى المحامين كلما ذهبت الى المحكمة ، كأنى ابحث فى وجوههم عن آثار شفتى زوجتى .. واتساءل باستمرار .. منّ منهم رنها .. ومن منهم استضافها ذات ليلة .. ؟

وحبستها فى البيت ..

كنت اخرج فى الصباح الى عملى ، واغلق الباب عليهـــا بالمفتاح ، مفتاح واحد للبيت ، احتفظ به فى جيبى ..

واستسلمت هى .. لم تحاول أن تعترض ..

ولم تكن ترى الطريق الا فى صحبتى .. فاذا نظر اليها رجل ، اعتقدت أنه كان أحد المترددين على جسدها ، وكتمت ثورتى الى أن نعود الى البيت ، وضربتها .. اما اذا التفتت هى الى رجل ، فلا أمهلها .. اصفعها ونحن داخل السيارة أو أمام الناس ..

وهى دائما مستسلمة ..

ومرضت .. مرضت بالسل .. فجلست بجانبها اعالجها .. لم اكن انام .. دائما بجانبها .. وكنت اشعر بالراحة وانا اراها مريضة ، هزيلة ، صفراء .. كانت غيرتى تكف عنى .. كأنى ضمنت انها لى وحدى ، ما دامت مريضة .. انه شعور خبيث قاس ، ولكنى كنت ارتاح له ..

وشفيت .. وبعد شفائها حملت .. وانجبت لى ولدا ..

وانا لا اكف عن حبها ..

ولا اكف عن غيرتى عليها .. غيرة صفراء مدمرة ..

وهى دائما مستسلمة .. مستسلمة وهى حبيســة البيت والباب مغلق عليها بالمفتاح .. مستسلمة وانا أضربها .. مستسلمة وانا اصرخ فى وجهها ..

ومرت سنوات ..

مرت خمسة عشر عاما ، انجبنا خلالها ولدا آخر ، وبنتا ..

ولم يهفت حبى يوما ..

ولا هفتت غيرتى ..

وهى دائما حبيسة البيت .. والمفتاح فى جيبى .. وعندما كبر اولادنا اصبحت انا الذى آخذهم الى المدرسة ، وانا الذى أعود بهم ، حتى لا يفتح الباب غيرى ..

وفى يوم اخذتها لزيارة عمتى ، وتركتها هناك ريثما اذهب لاداء عملى .. وعدت واخذتها للبيت .. وقالت لى ونحن فى الطريق ، انها سمعت عمتى تقول ان فى الحى « فيللا » معروضة للايجار .. واسعة .. ست غرف .. وايجارها خمسة عشر جنيها .. وكنت ايامها افكر فى الانتقال من مسكنى .. فذهبت لأشاهد « الفيللا » التى قالت لى عنها .. فأعجبتنى واستأجرتها وانتقلنا اليهــا ..

انها نصف فيللا .. الدور الأول سكنا فيه .. والدور العلوى يسكنه ناس لا اعرفهم .. من هم ؟ .. ورفعت راسى يوما ورايت شابا وسيما يقف فى شرفة الدور العلوى .. وفجأة تنبهت .. اكتشفت المأساة .. ان زوجتى ارادت ان تسكن فى هذا البيت لتكون قريبة من هذا الشاب .. من عشيقها .. ان خمسة عشر

سنة لم تطهر جسدها من الدنس .. ان اولادها لم يثيروا فيها كرامة الأمومة ، وعزتها .. انها الآن فى الأربعين من عمــرها ، ولا تزال كما كانت .. امراة نين .. ودخلت البيت كالمجنون .. .. وانهلت عليها صفعا .. وركلا .. اعترفى . اعترفى ايتهــا الخاطئة يا مجرمة !

ولكنها لم تعترف ..

انها تصرخ فى وجهى :

ــ يا مجنون .. يا مجنون !

قد اكون مجنونا .. لكننى لست مغفلا .. وظللت اضربها ثلاثة ايام متوالية .. واولادى يصرخون .. وهى تصرخ .. ثم .. ثم غيرت قفل الباب .. فلابد انها صنعت مفتاحا للقفل القديم ..

وانا اضربها .. واصفعها .. وصرخت ذات يوم :

ــ طلقنى ..

وبهت ، انها اول مرة تطلب فيها الطلاق .. من اجل هذا الشاب الرقيع .. لا .. لا .. لن اطلقك .. وانهلت عليها ضربا وصفعا ..

ولكن .. لعلنى مغفل .. انى اغلق الباب عليها بالمفتاح ، فى حين اننا نسكن فى الدول الأول ، والنافذة قريبة من الأرض .. كم انا مغفل .. انى اخرج الى عملى ، وهو ــ بكل بساطة ــ يتسلل اليها من النافذة .. ويأخذ جسدها .. يأخذه فى بيتى .. يا مجرمة .. وانهلت عليها ركلا وصفعا .. وهى تصرخ :

ــ طلقنى .. طلقنى ..

لا .. لن اطلقك . وجئت بنجار سد نوافذ البيت بالواح خشبية ، مثبتة بالمسامير .. واصبحنا نعيش فى ظلام .. ولكن هذا ارحم من ان أعيش انا واولادى فى الخطيئة ..

ولكن .. ان هذا الصنف من النساء لا يعجز ابدا عن الخطيئة .. ان الجسد الملوث يستطيع دائما ان يجد طريقا الى الخطيئة .. وقد تعودت كل مساء قبل ان انام ان اشرب فنجالا من الشاى .. وقد لاحظت ان النوم يغلبنى بمجرد ان انتهى من قدح الشاى .. ثم أنام نوما عميقا كالموت . وأصحو متعبا وصداع عنيف يضج فى رأسى .. انها تضع لى مخدرا فى الشاى .. حتى اذا نمت .. او على الأصح مت .. سرقت مفتاح الباب من جيبى ، وفتحته ، وتسللت الى عشيقها .. يا مجرمة .. انى لست مغفلا الى هذا الحد .. وانهلت عليها ركلا وصفعا .. وامتنعت عن تناول الشاى قبل النوم . لم أعد اشرب ماء ، الا من الحنفية .. ولم أعد آكل الا طعاما اشتريه من احد المطاعم واحمله معى الى البيت .. واكثر من ذلك .. لقد استدعيت مهندسا كهربائيا ، فوضع فى باب البيت جهازا ، من شأنه اذا فتح الباب ان تنطلق فى كل انحاء البيت رنات أجراس صاخبة ، توقظنى من النوم ، اذا كنت نائما ..

ورغم ذلك . من يدرى ما تستطيع أن تفعله هذه المرأة .. قلت لك ان الجسد المسموم يستطيع ان يجد طريقه دائما الى الخطيئة .

وكنت عائدا الى البيت .. اقود سيارتى ، والغيرة تعمينى .. وفجأة ، وقبل ان اصل الى البيت ببضعة أمتار .. لمحت هذا الشاب الرقيع يسير فى الطريق .. لماذا لا اقتله واستريح .. ولم افكر طويلا .. برهة واحدة مرت بى .. ثم انحرفت بالسيارة ناحية الشاب وانا اقودها بأقصى سرعة .. سأدهمه .. سأقتله .. ولكن اللعين تنبه قبل أن اصل اليه ، قفز الى الرصيف ، واحتمى خلف سور احد البيوت .. واوقفت السيارة ونزلت اصرخ فى وجهه .. يا جبان .. يا نذل .. اتظن انك تستطيع ان تنعم بزوجتى .. اتظن انك دون جوان ؟ انا دون جوان اكثر منك ومن ابيك .. وسأقتلك .. سأقتلك يوما ما ..

وهجم على الملعون ، وأمسك بى ، واخذ يصرخ .. وكان الناس قد التفوا حولنا على صوت فرملة السيارة . وصوت صراخنا .. وصمم الشاب الرقيع على ان اذهب الى القسم . وهناك اتهمنى بالشروع فى قتله ، لانى اتهمه بأنه على علاقة بزوجتى ..

لماذا لا يباح قتل مثل هذا الشاب ، حتى يستريح المجتمع .. ولكنى طبعا انكرت التهمة امام البوليس .. ثم احلنا الى النيابة وأعاد اتهامه لى .. واستعملت كل لباقتى كمحام فى صدد الاتهام .. واستدعت النيابة زوجتى لأخذ اقوالها .. وقلت لوكيل النيابة بصراحة ، ان زوجتى لا تستطيع أن تأتى .. لماذا ؟ لأنها حبيسة البيت والمفتاح فى جيبى .. وأقنعنى وكيل النيابة بأن افرج عن زوجتى ريثما تدلى بأقوالها .. وبما أنى محـــام وأعرف هذه الاجراءات ، فقد ذهبت مع الضابط ، وفتحت الباب ، وعدت الى النيابة بصحبة زوجتى ..

أتدرى ماذا قالت زوجتى امام النيابة ؟

ايدت الاتهام .. قالت انها سمعتنى عدة مرات اهدد بقتل هذا الشاب .. وانها رأتنى من خلال النافذة وأنا أهجم عليه بالسيارة .

الكاذبة .. المجرمة ..

لولا النيابة لانهلت عليها ركلا وصفعا ..

انها تريد ان تسجننى حتى يخلو لها الجو ولعشيقها .. حتى تتخذ من بيتى وكرا لجسدها الدنس المشرب بالخطيئة .. وتعدك سوداء ..

وانتهت زوجتى من الادلاء بأقوالها ، وسمح لها بالانصراف .. وطلب منى وكيل النيابة ان اعطيها المفتاح لتعود الى البيت ..

وكنت فى موقف حرج .. كنت مهددا بالسجن بتهمة الشروع فى قتل ، فلم ارد أن اجادل وكيل النيابة ، وأعطيتها المفتاح ..

وذهبت زوجتى ، وهى مطمئنة الى انها تخلصت منى .. انها لن ترانى بعد اليوم .. ولكن وكيل النيابة أفرج عنى بكفالة خمسين جنيها .. وشكرا للباقتى كمحام .. وعدت الى البيت وانا اغلى .. ودماغى تغلى ، ورأسى يغلى ، وقلبى يغلى .. وانهلت عليها ركلا .. وهى تصرخ :

ــ طلقنى .. طلقنى .. انت مجنون .. والله لاجننك .. والله لاوديك فى داهيه ..

ــ لا .. لن اطلقك .. الآن وقد ثبتت جريمتك لن اطلقك .. سأكون أنا قضاءك .. أنا عقابك ..

وفى ثانى يوم جمعت أثاث البيت ، وحملتها هى وأولادى واقمنا فى حجرة بمكتبى ، حتى تكون دائما بجانبى .. فى متناول يدى لأصفعها ، وفى متناول يدى لاركلها ..

ولكنى لم استطع ان أعمل ..

بدا زبائنى ينصرفون عنى ..

وجلست يوما أفكر فى هدوء .. ماذا افعل ؟ انى لا استطيع ان اطلقها .. فأنا الآن متهم فى جناية شروع فى قتل ، وهى شاهد الاثبات فيها ، ولو طلقتها فستكون شهادتها أقوى تأثيرا على القضاء .. فماذا افعل ؟ هل اقتل نفسى واستريح ؟ انى لو قتلت نفسى .. لو انتحرت .. فكأنى أقدم لها ولعشيقها فراشا على جثتى .. هل اقتله هو ؟ انى سأشنق او قتلته .. او على الأقل سأسجن مؤبد .. واتركها هى تمرح بجسدها ، وتشين به اولادى .. وذكراى ..

لم يبق الا حل واحد ..

ان اقتلها ..

وفى هدوء قمت اليها والمسدس فى يدى ..

وانطلقت الرصاصة ..

ورأيتها تحت قدمى ، والدم ينزف من راسها ..

وفجأة .. احسست كأنى خرجت الى النور .. انزاحت غمامة من امام عينى .. وسقطت فوقها ، اقبلها .. وأبكى ..

انى لا زلت أحبها ..

ولم اعد اغار عليها ..

وعندما ساقونى الى المحكمة اعترفت .. ولكنى لم اقل انها خانتنى ..

وحكم علىّ بالسجن المؤبد ..

وانا الآن فى السجن .. وكل يوم يمر ، تنزاح غمامة أخرى عن عقلى .. لأزداد تأكدا من ان زوجتى لم تخنى ..

كانت اشرف الزوجات ..

يرحمها الله .. ويرحمنى ..

خلف العبـــاءة

عزيزى احسان ..

اكتب اليك من بعيد .. من الصحراء .. وحياة البحر الواسع تغسل الرمال .. والسنة اللهب المنبعث من آبار البترول تزغرد فى الليل .. وبيتنا فى المدينة بيت كبير ، على الطرز الشرقى القديم . جدرانه عالية .. وكل نوافذه تطل على الداخل .. على فناء يتوسط الدار .. وليس فيه شباك ولا ثقب يطل على الشارع .. وبابه ضخم .. كباب السجن .. كتلة من الخشب .. وله فتحة صغيرة نسميها « خوخة » ..

وابى رجل عجوز ثرى .. لعله تجاوز الستين .. وله اربع زوجات .. امى وثلاث اخريات .. اثنتان منهن لا تتجاوزان العشرين من العمر .. واخوتى عددهم أربعة عشر بين بنات وصبيان .. وكلنا نقيم معا فى البيت الكبير ..

وعندما كنت صغيرة .. فى السادسة من عمرى .. اخذونى الى « المعلماية » اى الى المدرسة .. مدرسة على الطراز القديم خاصة بالبنات ، ولا يدرس فيها سوى القرآن ومبادىء الدين .

وحفظت جزءا من القرآن عن ظهر قلب .. وقراته كله .. ثم .. « جودت » اى اعدت قراءته .. وعند هذا الحد .. ختمت .. اى انتهت دراستى .. كأنى نلت الليسانس ، أو الدبلوم ..

وعندما « ختمت » ، اخذتنى زميلاتى الى بيت واحدة منهن

والبسونى ثيابا فخمة من الحرير الغالى ، وزيننى بحلى كثيرة من الذهب والماس واللؤلؤ .. ثم طافوا بى شوارع المدينة ، وعلى بيوت كبرائها .. هو احتفال يسمونه « الزفة » كانت تقضى به التقاليد عندنا .. تماما كزفة العروس ..

وعدت الى البيت الكبير .. وكان مقضيا على أن ابقى بين جدرانه الى أن انتقل الى بيت زوجى ، لولا ان فجر الله البترول فى بلادنا العزيزة .. وافاض نعمه .. ففتحت المدارس الابتدائية والثانوية ..

★★★

والتحقت بالمدارس الثانوية ..

ولم ارسب ابدا فى امتحان .. كنت اقبل على العلم كأنى اقبل على الحياة .. كانت السطور تتسلل الى عقلى كأنها اشعة الشمس .. تضيئه ، وتشعرنى بالدفء .. دفء الشخصية الجديدة التى يصنعها العلم لى ..

وختمت .. اى انتهيت من دراستى الثانوية . وكنت اطمع فى ان التحق بجامعة القاهرة .. ولكن والدى رفض .. ولا نقاش .. فالنقاش مع الآباء جريمة عندنا .. وودعت المدرسة ، والشارع والنور ، وانغلقت خلفى أبواب السجن ، وانا لا زلت فى السابعة عشرة من عمرى ..

وبدا الفراغ يزحف على ..

ولم اكن اخرج من البيت الا مع بقية سيدات وبنات العائلة وكل منا ترتدى عباءتها .. ولا نذهب الا الى زيارة مملة لبعض العائلات ..

وحاولت ان ابدد فراغ حياتى بالمساهمة فى اعمال البيت .. ولكن .. اى بيت هذا الذى استطيع ان اساهم فى اعماله .. اربع

زوجات .. وجيش من الصبيان والبنات .. انه ليس بيتا : انه قشلاق .. سجن !!

ولم أجد ما افعله الا ان اقرا المجلات والقصص .. كثير من القصص .. واستمع الى اغانى عبد الحليم حافظ ، وفريد الأطرش ، وآكل الحلوى والشيكولاتة .. وأتنفس الفراغ الذى يطبق على صدرى ..

ثم .. سكن فى حينا ، وفى البيت المقابل لبيتنا ، شباب من مهاجرى البلاد العربية الأخرى ، الذين ازدحمت بهم بلادنا بعد اكتشاف البترول ..

وتحت الحاح الفراغ ، والكبت ، بدات اتطلع اليهم من ثقوب الباب الكبير .. وبدا كل منهم يثير فى راسى ذكرى قصة قراتها ، او اغنية سمعتها .. واتخيل كلا منهم وقد اختطفنى وتزوجنى ، وعشنا العمر كله فى قصة حب ..

الى أن التقت عيناى بعينى واحد منهم .. ولا ادرى كيف اعتقدت أنه ينظر الىّ .. وعيناه الصارختان بالرجولة ، تأسر عينى ، مع أنى لم اكن أنظر اليه الا من ثقب الباب !!

واحببته .. نعم .. أحببته .. من وراء ثقب الباب !! ..

★★★

وكان من عادة أبى أن يخرج بعد صلاة الفجر ، ولا يعود الا فى الظهر لتناول غدائه . .فكنت أقضى كل هذه الفترة ، وعيناى ثابتتان على ثقب الباب .. فاذا عاد ابى اختبأت فى حجرتى استمع الى اغانى عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش .. وابكى ! .

وفجأة اكتشفت أن أختى التى تكبرنى ــ وهى من زوجة اخرى تحب هى الأخرى واحدا من الشباب الذين سكنوا قبالتنا ، وانها استطاعت أن تصل اليه ..

وسألتها فى لهفة :

ــ كيف ؟

قالت لى :

ــ امى ساعدتنى !!

قلت :

ــ كيف تساعدك أمك ؟

قالت :

ــ لعلها ارادت الا تحرمنى مما حرمت منه !!

وانا .. انا .. هل اقضى عمرى محرومة كما حرمت امى .. اقضى عمرى فى هذا الفراغ الى ان اتزوج رجلا عجوزا كأبى ؟ !

وساعدتنى أختى ..

اصبحت انسلل معها الى البيت المقابل .. هى الى حبيبها .. وانا الى حبيبى .. وكنت أخاف ، ارتعد .. ولكن ما لبث الخوف ان تبدد ، ولم يعد الا الحب ..

ثم اختلف حبيبى مع حبيب اختى .. وكان الخلاف بسببنا .. وترك حبيبى البيت الذى يقع قبالتنا ، وسكن فى بيت ملاصق لبيتنا .. الحائط فى الحائط ..

وبدات حياة جديدة ..

كنت بعد ان يخرج ابى ، اصعد الى سطح بيتنا ، واقفز الى سطح بيته ، وأتسلل اليه حاملة له فطوره وغداءه .. وانظف له مسكنه .. ونقضى لحظات هنية .. ثم أعود عن طريق السطح الى بيتنا قبل ان يأتى ابى ..

وفى الليل .. بعد أن ينام كل من فى السجن الكبير ، أصعد حافية القدمين الى السطح ، واقفز الى مسكن حبيبى .. حتى فى ليالى الشتاء ، والبرد ، والمطر .. لم يكن شىء يحول بينى وبين حبيبى .. وعشت .. لم يعد فى حياتى فراغ ! .

★★★

وذات ليلة .. بينما كنت عائدة من عند حبيبى .. وبعد أن قفزت الى سطح بيتنا ، وبدأت أنزل السلم المبنى من الطين .. زلت قدمى .. وتدحرجت حتى وصلت الى فناء البيت .. وأنا اصرخ .

واستيقظ والدى .. وخرج الى مهرولا .. لم يسأل ماذا جرى لى .. ولكنه صرخ :

ـــ ماذا تصنعين فى الليل ؟ أين أنت ذاهبة ؟ اين كنت ؟

وتمالكت نفسى ، وقلت :

ـــ كنت فى طريقى الى الحمام .. ومر بين قدمى فأر .. فذعرت ، وسقطت !

وصدق والدى .. وشكرا لظلام الليل الذى اخفى آثار سقوطى من فوق السلم ..

وقضيت يومين ، وانا اجبن على أن اذهب الى حبيبى .. ولكن حبى ما لبث أن انتصر على جبنى .. وعدت اتسلل واقفز سطح البيت اليه ..

وقامت امى ذات ليلة من نومها فلم تجدنى فى فراشى .. واعتقدت انى فى الحمام الذى يقع فى الناحية الشرقية من البيت بعيدا عن الغرف .. وانتظرت .. وانتظرت طويلا .. ولم أعد .. فقامت تبحث عنى .. ثم بدأت تنادينى بصوت عال .. واستيقظ والدى .. ماذا جرى ؟ ..

ـــ ابنتك ليست فى فراشها ، ولا فى البيت كله ..

وقامت الضجة .. وبدأوا يبحثون عنى .. وينتظرون .. وتنبهت زوجة ابى الثانية الى انى قد أكون فى بيت حبيبى .. فغافلت بقية العائلة ، والقت حجرا على النافذة .. نافذة الغرفة التى تضمنى معه .. وأفقت من نشوتى .. وشعرت بالكارثة .. والتقطت اذنى صدى الضجة التى تدور فى بيتنا ..

ماذا افعل ؟ .. يا ربى ! ..

سيقتلوننى !! ..

***

وحبيبى بجانبى يرتعش .. ولونه باهت .. انه خائف .. وبلا وعى منى خرجت .. خرجت من الباب الرئيسى الى الشارع .. انى اريد ان اكون فى اى مكان الا هذا المكان .. مكان فضيحتى ..

وما كدت اصل الى باب بيتنا ، حتى خرجت الى زوجة ابى ، وجذبتنى بسرعة الى الداخل ، وهمست فى أذنى بكلمات سريعة ، لقنتنى بها ما يجب ان افعله .. ثم وضعت على عباءتها السوداء وتسللت كالشبح الى الحمام الخارجى الذى يقع فى فناء الدار ..

وانتظرت قليلا فى الحمام ، وانا أرتجف ، واستعيد الدرس الذى لقنته لى زوجة ابى .. ثم خلعت العباءة وخرجت فجأة ، وواجهت الجميع ، وصرخت فى وجوههم .. وفى وجه ابى بالذات :

ـــ سمعت صياحكم .. ماذا تظنون بى ؟ لابد انكم تظنون بى سوءا ، والا لما اقمتم كل هذه الضجة .. هل حرام أن أذهب الى الحمام ؟ هل من العار أن اضطر الى الذهاب الى الحمام ؟

وظللت اصرخ فى وجوههم .. واستعمل الفاظا بذيئة ، دون ان اراعى احترام ابى ، وهيبته .. والجميع ساكنون .. وابى ينظر الى بعين حائرة بين الشك واليقين ..

وانصرفوا عنى .. وحاولت ان اعود الى غرفتى .. ولكن امى جذبتنى من يدى ، وقالت فى همس غاضب :

ـــ لا .. من اليوم ستنامين معى .. وفى فراشى ! .

وذعرت :

ـــ ولكن يا امى ان ..

وقاطعتنى :

ــ لقد بحثت عنك فى الحمام الخارجى .. ولم تكونى فيه !!

ومن يومها ، وانا انام بجانب أمى .. ناحية الحائط .. وأعيش تحت عينيها .. لا تتركنى لحظة افلت من رقابتها .. وحبيبى خائف .. هرب .. انتقل من الحى كله .. لا أدرى الى اين ذهب ؟ .. والبيت سجن كبير .. والعباءة السوداء تغطينى من راسى الى اطراف قدمى ..

لـــم أمـــد يـــدى

أنا تعيسة .. انا سيئة الحظ ..

لا .. إنا ضعيفة .. انا غبية ..

لا .. لا ادرى .. لا أدرى ما هو الفرق بين التعاسة والضعف ؟ ولا ما هى العلاقة بين سوء الحظ والغباء ..

ربما كان هناك ناس يولدون تعساء بلا حظ فى الحياة ، وناس يولدون سعداء محظوظين ..

وربما لم يكن هذا صحيحا ، انما النـــاس يولدون جميعا سواسية ، ثم يجر كل منهم على نفسه الشقاء او السعادة ، والحظ أو اللا حظ ، بتصرفاته .. التصرفات التى تعتمد على مدى ذكائه ، ومدى قوته .. أو على الأصح مدى قوة ارادته ..

وهذه هى قصتى :

انا لست جميلة .. ولكننى استطيع ان اجتذب الرجال .. لا ادرى كيف .. ربما كان فىّ شيء يجذبهم الىّ ، دون تعمد منى فلم اشك يوما من الحرمان .. لم اشك يوما من حاجتى الى رجل .

وقد خطبت وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ..

وكان خطيبى شابا رائعا ، وسيما ، ذكيا ، مرحا ، تنبض كل دقائق عمره بالحياة .. ان كل دقيقة من عمره تحمل حياة ساعة .. لا .. حياة يوم كامل ..

وكان طيارا .. واحببته ..

لم يعد يهمنى انه خطيبى .. لم يعد يهمنى الزواج .. كل ما

يهمنى أنه حبيبى ، كل ما يهمنى اللحظة التى اجلس فيها اليه .. اللمسة التى تجمع أيدينا .. القبلة التى نتبادلها ، ولم يحتمل حبى أن ينتظر حتى تتم اجراءات الزواج .. كانت لهفة احدنا على الآخر جارفة .. عارمة .. لا تطيق الانتظار .. فأسلمته نفسى ..

أسلمته نفسى قبل ان نكتب الكتاب ..

ولم نشعر اننا ارتكبنا اثما .. انه خطيبى .. انه زوجى .. ثم انه حبيبى .. ورغم ذلك .. رغم اقتناعنا أننا لم نرتكب اثما ، فقد اخفينا الخبر عن اهلنا .. لم اقل شيئا لأمى .. بل انى لم استعجل كتب الكتاب !!

ثم .. مات .. سقطت به الطائرة .. هل انا سيئة الحظ لانه مات ؟

ام هل انا غبية ضعيفة لانى اسلمته نفسى قبل كتب الكتاب ؟
لا ادرى ..

كل ما ادريه انى تعذبت كثيرا .. واختلط عذابى بموته مع عذابى بحالى .. وطال عذابى .. شهور طويلة قضيتها منطوية ابكى .. اذكره فأبكى .. واذكر حالى فأبكى ..

ثم بدأت أخرج الى الحياة من جديد لعلى انسى .. وبدأ هذا الشىء الغامض الذى أمتاز به يجذب الىّ الرجال .. تقدم الكثيرون الىّ .. بعضهم يطلب قلبى .. وبعضهم يطلب يدى .. وكنت استطيع ان اختار واحدا منهم ، واهبه قلبى ، أو على الأقل اهبه يدى ..

ولم يكن ما جرى لى يشغلنى .. لم تكن حقيقة انى لست عذراء تخيفنى .. انى استطيع ان اعترف للرجل الذى يتزوجنى ، او – على اسوأ الفروض – أستطيع ان اجرى هـذه العملية الجراحية التى تعيدنى مرة ثانية .. عذراء .. عذراء مزيفة ! ..

ولكن .. لم تكن هذه مصيبتى ..

كانت مصيبتى انى اخترت من بين كل هؤلاء الرجال المتزاحمين حولى ، واحدا ..

اسمه رمزى .. ورمزى قبطى .. واحببته ..

احببته بهوس وجنون .. احببته اكثر مما احببت خطيبى .. لا .. ليس اكثر .. ولكنه نوع آخر من الحب .. حب اكثر نضوجا ، واكثر قوة ، واكثر عنفا .. حب فتاة ليست عذراء ..

هل انا سيئة الحظ ان حبيبى قبطى ، وبينى وبينه حائط عال يحول دون زواجنا ؟

ام أنا غبية ضعيفة ، لأنى لم اغلق قلبى دونه ، ولم أقاوم حبى قبل ان يتمكن منى ؟ لا ادرى ..

ولكنى انسقت فى حبى الى آخره .. كان احساسنا يتحدى المجتمع ، ويتحدى القساوسة والشيوخ ، ويتحدى آلاف السنين من التقاليد .. كان هذا الاحساس بالتحدى يزيد حبنا وهجا وعنفا ..

وكان هناك دائما امل .. امل فى ان يعلن اسلامه ويتزوجنى .

ومرت خمس سنوات ، والأمل يتجدد كل يوم ، ولكنه لا يعلن اسلامه ويتزوجنى ..

لقد كان يحبنى ، وكان متحررا ، وكان يريد ان يعلن اسلامه فعلا ، ويتزوجنى فعلا .. ولكنه كان يخاف على ابيه وأمه من أن تقتلهما الصدمة .. وربما كان اعجز من ان يقتلع من صدره صفة التصقت به منذ ولد ..

وتعبت .. تعبت من هذا الحب .. وتعبت من ألسنة الناس التى تلاحقنى .. ومن ضغط أمى وثورتها التى تلقيها فى وجهى .

وتركته .. تركته فعلا ..

وكاد يجن .. اصيب فعلا بحالة عصبية كأنها الجنون .. وارسل الىّ كى أعود اليه ، واقسم انه سيتزوجنى ..

وعدت اليه .. ولكننا ما كدنا نلتقى حتى عدنا الى خلافنا من جديد .. يبدو اننا لا نستطيع ان نقدر مدى التصاق الدين بنا الا عندما نفكر فى التخلى عنه .. تماما كما لا نحس بأننا عرايا الا عندما نهم أن نخلع ثيابنا ..

ولم يستطع أن يخلع دينه ..

وقررت مرة ثانية أن اتركه .. وتركته فعلا ..

وقبل أن تجف دموعى تقدم الىّ رجل آخر يخطبنى ..

وكان يجب أن اتزوج .. اتزوج اى رجل ، حتى احمى نفسى من ضعفى ، واخفف عن حياتى عذاب فشلى ..

ولكن محمود لم يكن اى رجل .. انه رجل كامل .. هادىء ، محترم ، راجح العقل .. يتكلم فتقتنع أسير منطقه ..

التقيت به فى جلسة عائلية .. ولم احبه .. ولكنى ارتحت اليـــه ..

وخرج يُسأل عنى .. انه كبقية الرجال المحترمين لا يتزوج الا بعد ان يسأل ، ويجمع المعلومات ..

وقال له الناس .. لا تتزوجها .. انها فاسدة .. انها ليست عذراء .. انها تحب شابا قبطيا اسمه رمزى .. و .. و .. وحتى اختى وقفت ضدى .. قالت له عنى اكثر مما قاله الناس ..

ورغم ذلك عاد الىّ .. قال لى انه يريد أن يتزوجنى رغم كل ما سمعه عنى .. ولكنه فقط يريد أن يسمع الحقيقة منى ..

وقلت له الحقيقة .. كل الحقيقة ..

قلت له انى لست عذراء .. وانى عشت مع رمزى خمس سنوات .

★★★

وانحنى رأسه واخذ ينظر فى يديه طويلا ، ثم رفع عينيه الىّ وسلطهما على وجهى ، وسمعته يقول فى صوت عميق :

ـ لا يهمنى جسدك .. لا يهمنى انك لست عذراء ، او انك كنت لرجل آخر .. كل ما يهمنى هو ان اعرف .. هل لا زلت تحبين هذا الآخر .. هل لا زلت تحبين رمزى ؟

وارتبكت .. احسست انى لا استطيع ان اجيب على هذا السؤال .. انى اعرف بصمات الحياة على جسدى .. ولكنى لا اعرف بصمات الحياة على قلبى . لا اعرف اذا كنت لا زلت احب رمزى .. ولا اعرف اذا كنت استطيع أن احب محمود ..

وقلت وأنا أخفى عنه عينى :

ـ لو تزوجت .. فثق انى استطيع ان اكون زوجة مخلصة ..

قال وصوته يزداد عمقا :

ـ اخلاص الزوجة بجسدها . سهل .. والصعب هو أن تخلص بقلبها وروحها .. وانا أريد الصعب .. اريد ان اتأكد من أن قلبك وروحك اصبحا لى ، انى اتزوج قلبا وروحا ..

وعدت الى ارتباكى .. انى لا استطيع ان اعده بقلبى وروحى الا اذا كذبت عليه ..

وكذبت .. قلت وأنا اشعر بدمائى تصهر وجنتى :

ـ انى لم اعد أحب رمزى .. بل انى اكرهه .. لقد خرج من حياتى ..

قال :

ـ كيف اصدق .. لقد عشت فى حبه خمس سنوات فكيف تنسينه فى خمسة شهور ؟

قلت :

ـ ربما بدأت انساه قبل أن اتركه . اننا فى العام الأخير كنا نعيش كغريبين ..

قال :
ـــ كيف اتأكد ؟
قلت :
ـــ لا ادرى .. ليس لقلبى دليل مادى استطيع أن أقدمه اليك .. كل ما استطيع ان اقدمه لك هو ان اتزوجك ..
ولم يكف عن النقاش ..

★★★

ومضت اسابيع طويلة وهو لا يكف عن النقاش .. ولم يكن يذكرنى بجسدى .. لم يكن يلومنى لانى لست عذراء ، او لانى اعطيت نفسى لرمزى .. كان كل ما يريد أن يتأكد منه ، هو انى احبه ، او على الاقل انى لا أحب غيره ..

وكان يتعذب .. يتعذب بحيرته وشكوكه !

انه يحبنى .. وانا .. لا احبه ، ولكنى أستريح له ، واحترمه ، وأريد ان أتزوجه ..

ولم يكتف محمود بنقاشى بل ذهب ليناقش رمزى ايضا ! سأله :

ـــ هل لا تزال تحبها ؟ ..

وكذب رمزى .. انكر انه لا يزال يحبنى .. واصر على الانكار .. أصر الى حد ان ثار محمود فى وجهه واتهمه بالنـــذالة والسفالة .. وصرخ فى وجهه :

ـــ كيف تعيش مع فتاة خمس سنوات ثم تذكر أنك لا تحبها ..

ورمزى لا يزال يصر على الانكار ..

ربما جبنا منه .. ربما لأنه خاف من محمود ..

وأخيرا .. واخيرا خرج محمود من حيرته وتزوجنى ..

وشعرت لأول مرة فى حياتى بالاستقرار .. شعرت لأول مرة

ى بيتا .. وان لى رجلا .. وبدأت اتمنى ان يكون لى أولاد ..

وبذلت كل ما استطيع لأسعد محمود ..

انى لا زلت احب رمزى .. انى لا استطيع ان انكر هذا الحب .. ولكنى اقاومه .. اقاومه بكل ارادتى .. لم أحاول ان اتصل به بعد زواجى .. وكنت أشغل نفسى عنه طول يومى بأعمال البيت .. وكنت متأكدة انى خلال شهور سأنساه .. سيبرا منه قلبى ، وتبرا منه روحى .. وبعد ذلك استطيع ان احب محمود .. احبه بكل قلبى وكل روحى .. ومحمود سعيد ..

ومن خلال سعادته ، احس انه يراقبنى .. يراقب قلبى وروحى ليتأكد انهما اصبحا له ..

★★★

الى ان كان يوم ..

وكان قد مضى ثلاثة شهور على زواجنا .. وكنت واقفة فى المطبخ اعد الطعام ، وعقلى سارح وراء قلبى .. وراء حياتى كلها .. وراء ذكرياتى .. ذكرياتى مع رمزى ..

وعاد محمود من عمله ..

ودخل دون أن أشعر به ..

وتسلل على اطراف أصابعه ووقف خلفى ، وانا امام الموقد وعقلى سارح وراء قلبى ، ثم لف ذراعيه حولى ..

ـــ ايه ده يا رمزى !!

وخرست مرة واحدة !!

خرست وقد شعرت باسم « رمزى » يكوى لسانى ..

وارخى محمود ذراعيه عنى .. ووقف ينظر الى وفى عينيه ذهول .. ثم انهارت عيناه ، وانهارت كل ملامح وجهه ، ونكس

راسه .. واستدار لى وخرج فى خطا بطيئة .. كأنه يمشى فى جنازة ..

وانا واقفة .. عيناى مذعورتان .. وشهقة تشق قلبى .. واطرافى ترتعش .. ثم جريت وراءه وانا اصرخ :

— محمود .. محمود ..

ولكنه لم يلتفت الىّ ..

خرج من البيت .. وانا اصرخ واشد شعرى .. ثم انكفأت ابكى ..

وفى اليوم التالى .. وصلتنى ورقة الطلاق ..

★★★

هل انا سيئة الحظ لان اسم حبيبى السابق انطلق على لسانى رغم ارادتى !!

ام انا ضعيفة غبية لانى تركت عقلى يسرح وراء قلبى ، وتركت لسانى يفلت منى ..

لا ادرى .. كل ما ادريه انى لا زلت ابكى ..

وانى احب محمود .. ربما لم احب ابدا ، قبل ان احب محمود .

رجـل ينفـخ البـالونات

كانت هوايته : صناعة الاسماء الكبيرة .

انه فنان .. مخرج سينمائى ، وصاحب شركة انتاج ، واحيانا يكتب القصص ، واحيانا يرسم ، واحيانا يؤلف قطعا موسيقية .. والى . ظلت هوايته الاولى : صناعة الاسماء الكبيرة ..

كان يبحلق فى كل وجه يقابله .. وجوه بائعات اليانصيب ، وجوه الخادمات ووجوه فتيات الكومبارس ، ووجوه الطلبة والطالبات .. و .. و .. و .. يبحلق فيها بعين خبيرة ، كأنه يبحث عن قطعة من القماش يصنع منها ثوبا جديدا .. فاذا وجد قطعة القماش وضع كل فنه .. كل حماسه .. كل ما يملك .. حتى يجعل منها نجمة او نجما سينمائيا مشهورا .. ذا اسم كبير !

ولم يكن يلقن الوجه الجديد اصول الفن وحده .. كان يلقنه الحياة نفسها .. كان يعلمه كيف يأكل ، وكيف يتكلم ، وكيف يفكر .. كان يخلق له شخصية جديدة يواجه بها النـاس .. شخصية من صنعه هو ..

لقد عرفته عندما التقط احدى الخادمات .. كان يدخلها بنفسه الى الحمام ، ويقف على الباب الى أن تستحم .. ثم يصحبها الى الحلاق والخياطة .. ويجلس امامها وهى تأكل ، ويعلمها كيف تستعمل الشوكة والسكين .. وكيف تقفل شفتيها وهى تمضغ الطعام .. وكيف ومتى تتكلم .. ثم يأتى لها بمدرس ليعلمها اللغة الفرنسية او الانجليزية .. ويختار لها الكتب التى تقرؤها .. و ..

انه يخلق شيئا جديدا .. انه ينفخ من انفاسه روحا من الجسد الذى اختاره ..

ولم يكن يريد شيئا من الاسماء التى يصنعها ..

لم يحدث مرة ان قامت بينه وبين بنت من البنات اللاتى يصنعهن ، علاقة غرامية .. ولم يحدث أن استغل اسما من الأسماء الكبيرة التى خلقها فى فيلم من افلامه ، بل كان دائما يعطى اجرا على العمل فى افلامه اكبر من الأجر الذى يعطيه اى منتج آخر ..

كان كلما يريده هو أن يتباهى بالشىء الذى خلقه ..

كانت كل سعادته أن ينظر الى الاسم الكبير المعلق فى اعلانات الحائط ، ويهمس : هذا من صنعى .. وعاش هكذا طويلا ..

كان كبائع البالونات ، ينفخ فيها انفاسه حتى تكبر .. وتكبر .. ثم يعلقها بخيط يقبض عليه بيده ، ويدور متباهيا بين الناس .. هذه البلونات كبرت بأنفاسى !

واحيانا كانت تطير بالونة بعيدا عنه .. فينظر اليها وهى تحلق فى السماء ، جزعا ملهوفا .. كالطفل .. ويتعذب .. يكاد يبكى .. كان لا يصدق أن هذه البالونة تستطيع ان تعيش بغيره .. كيف تستطيع وهى تحمل انفاسه .. ورغم ذلك فبعض البالونات عاشت بغيره .. ظلت محلقة فى السماء .. صحيح أن بعضها سقط ، ولكن البعض الآخر ظل معلقا !!

ثم كان يعود الى هوايته .. صناعة الأسماء الكبيرة ..

ورايته وقد التقط طالبة مجهولة .. كانت انسانة ضائعة الشخصية .. ربما كانت ذكية .. ولكنها كانت ضائعة .. لا تدرى ماذا يمكن ان تكون .. ماذا يمكن ان تصنع فى الحياة ..

وبدا الفنان يزيح عن شخصيتها الضياع ، ويمسح الاتربة عن

قلبها وعقلها .. وينفخ فيها حتى كبرت .. وكبرت .. اصبحت اسما كبيرا ..

وفرح بها .. كان يزهو بها ..

وفجأة .. وقفت تتحداه .. صرخت :

ـ سأتحرر منك ..

قال جزعا :

ـ مستحيل .. انك لا تستطيعين أن تتحررى من نفسك .. وانا نفسك ..

وصرخت :

ـ انت لا شىء .. انا أكبر منك ..

قال فى هدوء :

ـ أن الله لا يصنع شيئا أكبر منه ..

قالت :

ـ انت مغرور .. انك لست الها .. انت تجربة .. مجرد تجربة استفدت منها .. انت عكاز استندت عليه عندما كنت ضعيفة .. ولست الآن فى حاجة الى عكاز ..

وصرخ :

ـ سأحطمك ..

وصرخت وعيناها فى عينيه :

ـ لن تستطيع لانك لست الها .. جرب ان تحطمنى ، وستعلم انك لست الها ..

وطارت البالونة .. طارت بأنفاسه التى نفخها فيها ..

ولم تكتف بأن تتحرر منه ، بل أخذت تحاربه .. تحاربه فى فنه .. وفى سمعته .. بدأت تحاول تحطيمه ..

ووقع صريع حالة نفسية عنيفة .. انه لا يستطيع ان يحاربها

كما تحاربه .. انها من صنعه ولا يستطيع ان يتبرا منهـا .. لا يستطيع أن يخرج الى الناس ويقول لهم انه صنع شيئا قذرا ، انانيا ، انتهازيا .. لا يستطيع .. انه يريدها ان تبدو دائما جميلة .. دائما كبيرة .. دائما محبوبة .. لأنها من صنعه ..

ولكنها تحاربه .. تتجرا عليه .. تنهشه ..

وصراعة مع نفسه يشتد .. ويكاد يقضى عليه ..

وقلت له :

ـ الحق عليك ..

قال :

ـ كيف ؟ ..

قلت :

ـ لانك لم تكن تنظر اليها ، بل كنت تنظر الى نفسك فيها .. ولم تكن تعجب بها ، ولكنك كنت تعجب بصنعك !

قال :

ـ انها لا تستطيع ان تنكرنى من وجودها ..

قلت :

ـ انها فى حاجة لمن ينظر اليها كما اصبحت ، لا كما كانت وانت كنت تراها مجرد طالبة مجهولة .. كنت كالأب الذى يرى اولاده انهم فى حاجة لمن يعاملهم ككبار .

قال :

ـ انى اكثر من اب .. انا الذى خلقتها .. انا ربها ..

قلت :

ـ لا .. انت مجرد فنان .. والفرق بين الفنان والاله .. ان فضل الفنان على عمله ينتهى بمجرد ان يفرغ منه .. اما الاله فتظل صلته قائمة بينه وبين خلقه ، يأمرهم ، ويحدد مصائرهم ، ويميتهم ليستعيدهم اليه ..

قال :

ـ انى لم اطالبها بأن تعبدنى .. فقط تعترف بفضلى ..

قلت :

ـ انها لن تعترف بفضلك الا اذا اصبحت اكبر منك .. اذا لم تعترف لك بالفضل فأنت لا زلت أكبر منها .. واحمد الله ..

قال :

ـ انك لا تدرى ماذا صنعت لها .. لقد كانت بالونة فارغة .. ونفخت فيها من انفاسى حتى اصبحت كبيرة كما تراها الآن ..

قلت :

ـ انفاسك هواء .. والناس ترى البالونة ولا ترى الهواء داخلها ..

قال يائسا :

ـ خسارة ..

قلت :

ـ انك لم تخسر شيئا .. لانك فنان .. ولانك فنان تستطيع ان تصنع بالونة اخرى ..

قال :

ـ لتطير منى ؟ !

قلت :

ـ لتطير منك .. لتملأ السماء بالونات ..

وسكت .. سكت شهورا ..

وبدا ينفخ فى بالونة اخرى ..

بــلا مطبــخ

عرفت زينب هانم منذ كنت طالبا فى الجامعة .. انها عمة زميلى فى الدراسة ممدوح عاصم ، وكان يقيم معها منذ توفى زوجها ، وتركها بلا اولاد ..

كنت اناديها .. طنط زينب ..

وكنت ارتاح للجلوس معها .. كنت احس بجانبها كأن الدنيا كلها هادئة .. وكأن الناس كلهم طيبون .. وكانت تنقلنى بابتسامتها الحلوة ، وعينيها الحالمتين ، وشعرها الذى اختلط فيه البياض بالسواد ، وحديثها الممتع ، تنقلنى الى عالم قديم .. عالم غير عالمنا .. عالم تفوح فيه رائحة بخور معطر ..

وكان أغلب حديثها عن زوجها المرحوم .. لا تكف ابدا عن الحديث عنه . ان كل ما حولها ، يذكرها به .. وكل موضوع يثيره الحديث ينقلها اليه .. وكانت عندما تتحدث عنه المح فى عينيها لمعة قوية كأنها استردت كل شبابها ، وكأنها تحاول ان تخترق الحجب بعينيها لتصل اليه وتراه ..

وقد بلغت الأربعين من عمرى ولا زلت اذهب اليها كل اسبوع مرة ولا زلت اناديها .. طنط زينب .. واجلس معها ، واستمع الى حديثها .. حديثها عن زوجها .. وارى اللمعة القوية تنطلق من عينيها .. وفى مرة قلت لها :

ـ انك لم تحدثينى ابدا عن قصة حبك للمرحوم ..

ورفعت طنط زينب عينيها ، ثم أرختهما ، وقد تضرجت وجنتاها

الـ..دتان بحمرة الخجل ، كأنها فتاة صغيرة فوجئت بسؤال يفتح بابا .. ثم سكتت .. لم ترد على سؤالى ..

وعدت الح عليها ، وأسألها :

ـ وهل احببته قبل ان تتزوجيه ؟

وسكتت وهى تتنهد ، وظل ابتسامة يطوف حول شفتيها .. ..ت كأنى اتوسل اليها :

ـ طنط .. لا تبخلى على .. انك لم تعودينى على البخل .. ..صوصا عندما تتحدث عن المرحوم ..

وقالت زينب هانم فى صوت هامس كأنها تحدث نفسها :

ـ لا .. لم احبه قبل الزواج .. ولم اره قبل زفافى اليه ولم احبه ايضا فى السنوات الأولى من زواجنا .. مضى اكثر من خمس سنوات وانا زوجة له .. بلا حب .. ثم أحببته .. احببته الى حد انى لم أعرف من عمرى يوما لم احبه فيه ..

وسألتها فى لهفة :

ـ كيف .. ؟ احكى لى يا طنط ..

ونظرت الىّ كأنها تعذرنى فى لهفتى ، وهى تعلم انى كاتب ..صى .. ثم اطلقت عينيها خارج النافذة كأنها تلتقط ذكريات من ..ماء ، وبدأت تتحدث فى صوت خفيض هامس .. كأنها تعترف .. تعترف لربها ، أو لزوجها ..

ـ لقد وضع زوجى نظاما غريبا لحياتنا منذ اليوم الأول ..اجنا .. كان يخرج من البيت فى الساعة الثامنة صباحا تماما .. ويذهب الى الوزارة ، ويخرج من الوزارة فى الساعة الثانية ..د الظهر ، ويتجه مباشرة الى النادى ، ويتناول غداءه فيه ، ثم ..ى مع اصدقائه حتى الساعة الثانية عشرة .. منتصف الليل .. ..ى الساعة الثانية والنصف ، اسمع صوت مفتاحه يدور فى قفل

الباب .. ويدخل الىّ ! ولم اعترض على هذا النظام .. لم يكن لى حق الاعتراض ..

ثم انى لم اكن اريده ، او اريد منه شيئا ..

واصبحت بعد أن يخرج زوجى فى الصباح ، اذهب الى والدتى ، وابقى معها ، الى أن اتناول طعام الغداء .. ثم اعود الى البيت فى الساعة السادسة مساء .. وانتظر زوجى .. لم يكن بيتى بيتا .. كان مجرد لقاء بينى وبين زوجى ..

وكان بيتى يبدو غريبا بين البيوت الأخرى .. لم يكن فيه مطبخ .. أعنى أننا لم نكن نستعمل المطبخ .. لم يكن عندنا طباخ ولم نكن نطهو طعاما .. حتى أن صديقاتى كن يطلقن علىّ لقب : « الست اللى من غير مطبخ » !

ومرت الشهور وانا محتملة هذه الحياة دون أن اضيق بها .. بل ربما حمدت الله على تحررى من مسئوليات زوج يشغل كل وقتى بمطالبه .. ولكنى شيئا فشيئا بدأت احس بالملل والضيق .. خصوصا وقد مر عامان دون أن انجب اطفالا يملئون بيتى بالحياة .. وكان أول ما شعرت به هو مطبخى .. المطبخ الصامت النظيف الذى لا يضج بصوت بوابير الجاز ، ولا تفوح منه رائحة السمن والتقلية . وقد حاولت ان ابعث الحياة فى مطبخى .. كنت ادخل اليه انا وخادمتى نعيمة ، وأحاول ان اطبخ .. وكنت اطبخ فعلا .. ولكن ما قيمة ما اطبخه ما لم يقدم لرجل يتذوقه !

ويئست .. وعدت اتناول غدائى عند والدتى .. ولكنى اتجهت بحياتى اتجاها جديدا .. اخترت نوعا جديدا من الصداقات .. نوع اشتهر فى ضاحية مصر الجديدة بالمرح والمغامرات .. واصبحت اقضى معهن كل وقتى .. اتناول غدائى معهن ، واسهر معهن حتى الساعة العاشرة ، وأحيانا الى الثانية عشرة .. واحيانا

[اعو]د الى البيت بعد عودة زوجى .. فلا يحاسبنى ، فقد كان مطمئنا [الي] .. مطمئنا الى صديقاتى .. وفى احدى هذه الليالى تعرفت [با]لمطرب الذى كان معروفا على ايامنا .. الاستاذ ابراهيم عزوز .

ولا ادرى ماذا حدث لى .. ولكنى وجدت نفسى انساق مع [ص]وته .. ثم انساق مع همساته .. ثم أنساق مع ضغطة يده على [ي]دى ..

وعرفت صديقاتى سر الاعجاب المتبادل بينى وبين الأستاذ ابراهيم .. ولكنه كان مجرد اعجاب .. وربما تطور الى شىء اكثر قليلا من الاعجاب .. ولكنى بقيت حريصة على أن أكون زوجة نظيفة مخلصة لزوجى .. لم يكن بينى وبينه أكثر من هذه الهمسات واللمسات التى نتبادلها فى السهرات ، خفية عن العيون التى تحيط بنا .. الى ان قال لى ابراهيم مرة :

ــ مش حاتعزمينى عندك يا زينب هانم ؟

قلت دون ان اعنى ما اقول :

ــ اهلا وسهلا ..

قال فى بساطة :

ــ بكره حاجى اتغدى عندك !

ورنت فى اذنى كلمة « الغداء » .. رجل سيتغدى عندى فى [بيت]ى الذى لم يتناول فيه رجل من قبل طعام غدائه ..

وقبلت ان ادعوه الى الغداء .. احسست كأنى اشترى الحياة [ل]بيتى ..

ولم يكن ابراهيم يعرف ظروف حياتى ، ولا النظام الذى نعيش [ع]ليه .. انما دعا نفسه وهو يعتقد انه سيقابل زوجى .. وكان من [ع]ادته ان يقابل ازواج كل السيدات حتى عشيقاته !!

وصحوت فى اليوم التالى مبكرة .. ربما لم انم طول الليل ..

ولم اقل لزوجى عن دعوتى للأستاذ ابراهيم .. انما انتظرته الى أن خرج ، وجريت الى المطبخ .. وارسلت الخادم يشترى الطعام .. وافنيت نفسى انا ونعيمة فى طبخ اشهى طعام يمكن أن نطبخه ..

وجاء الأستاذ ابراهيم .. وفوجىء عندما لم يجد زوجى .. ولكنه لم يهتم .. وجلس معى الى المائدة .. لأول مرة اجلس مع رجل على مائدتى فى بيتى .. ولأول مرة احس ببيتى .. واحس انى زوجة .. زوجة من ؟ لا يهم ؟ .. المهم انى زوجة ..

واصبح ابراهيم يتناول غداءه فى البيت كل يوم ..

واستأجرت طباخا .. قلت لزوجى اريد طباخا . فلم يعرض .

ولا حاجة لى لأن أقول لك .. انى انسقت مع الأستاذ ابراهيم الى آخر الطريق .. زوجة خائنة .. ولكنى لم احســـه .. كل ما احببته فيه انه رجل يتناول غداءه فى البيت .. بيتى !

ثم .. حدث يوما ان كنت جالسة مع ابراهيم فى صالون البيت بعد تناولنا الغداء .. نتحادث فى هدوء واطمئنان .. وكيف لا نطمئن وزوجى لا يعود الا بعد منتصف الليل .. ولم يحدث مرة ان اخلف موعده ..

ولكن .. فجأة — وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر — سمعت صوت المفتاح يدور فى القفل .. انه زوجى ..

ولا ادرى كيف اعاننى ذكائى ، وشجاعتى على التصرف .. ولكنى دفعت ابراهيم دفعا الى باب المطبخ ليخرج منه .. ثم هرعت لاستقبال زوجى عند الباب .. ولكن ابراهيم كان قد خلع سترته وتركها على المقعد الذى بجوار الباب .. فجلست فوقها على المقعد بسرعة ، واستقبلت زوجى ، وانا جالسة .. فوق سترة عشيقى ! وربما كنت ارتعش ..

ربما كانت رموشى تهتز فوق عينى .. ربما كان صدرى يتهدج .

ولكن زوجى صافحنى مبتسما ، ثم خلع طربوشه وتركه على المشجب المجاور للباب فوق المقعد الذى اجلس عليه .. ثم ادار ظهره ودخل الى غرفة النوم .. وهو يقول :

— انا نسيت المحفظة بتاعتى وانا نازل الصبح ..

وانتظرت الى ان دخل غرفة النوم ، ثم قمت من فوق سترة عشيقى ، وامرت نعيمة الخادمة ان تحملها الى الأستاذ ابراهيم المنتظر فى اسفل سلم المطبخ ..

ثم جريت وراء زوجى ، الى غرفة النوم ..

واخذ زوجى المحفظة ، ثم تبادل معى كلمتين .. وهم بالخروج عائدا الى النادى .. وعند الباب بحث عن طربوشه .. لقد اختفى الطربوش ..

وادركت ما حدث .. لقد اخطأت نعيمة ، وظنت فى ارتباكها انه طربوش الأستاذ ابراهيم ، فحملتــه اليه مع الســترة .. وارتبكت ..

ولا شك ان الارتباك قد بدا واضحا فى عينى ، وفى رعشــة جسدى ، ولعثمة لسانى .. ولكن الابتسامة لم تسقط من فوق شفتى زوجى .. ظل ينظر الى طويلا .. دون أن يتكلم .. ثم خرج ! .. وقضيت اتعس ايام عمرى ..

ولم اخرج من البيت ليلتها .. بقيت فى انتظار زوجى ، وقلبى يضرب ضلوعى كأنه يصفعنى ، وذكائى ينشط بحثا عن دفاع يمكن ان ارويه له اذا فاتحنى زوجى فى حكاية الطربوش .. وعاد زوجى فى موعده تماما ..

ولم يذكر شيئا عن الطربوش .. انما اخذ يتحدث معى كعادته : وربما كان ليلتها اكثر اقبالا علىّ ، واكثر رقة من عادته .. الى

ان فاتحته انا فى حكاية الطربوش .. وقلت له انه كان قد وقع من على المشجب ووجدناه تحت الأريكة .

ولم يبد زوجى اهتماما .. وفى صباح اليوم التالى ، وقبل ان يخرج ، استدار الى ، وامسكنى من كتفى فى رقة ، وقال باسما :

ــ انا حاتغدى هنا النهارده يا زوزو .. اصلى افتكرت ان عندنا طباخ !

وخفق قلبى .. وشعرت بوجنتى يضجان باللهب ..

وقبلنى فى جبينى قبل أن يخرج ..

واحببته !! وعاد ليتناول غداءه ..

كل يوم يتناول غداءه معى .. فى بيته .. لقد عرفت الآن زوجة من انا .. انا زوجته .. واحببته !!

هـذا البريق

اسمى : عباس محمد ..

وهو كما ترى اسم عادى ، كالقرش الممسوح .. ليس له رنين ، ولا يثير انتباهك ، ولا يثير حتى اشمئزازك .. انه مجرد اسم من ملايين الأسماء .. اسم ، والسلام !

وشكلى ايضا .. مجرد شكل عادى .. لى عينان ، وانف ، وفم .. لا ينقصنى شىء .. ورغم ذلك فاذا مررت بى ، فانك لا تكاد ترانى .. كأن ليس لى شكل .. كأنى لست موجودا .. فلست قبيحا حتى تقف وتشفق علىّ من قميصى .. وانفى ليس كبيرا وملتويا كأنف البلياتشو ، حتى تقف وتضحك علىّ .. ولست وسيما كنجوم السينما ، حتى تقف وتمتع عينيك بوسامتى ، وتعجب بى ، او تغار منى .. انى مجرد شكل .. مجرد رقم من ملايين الأرقام ..

وشخصيتى كذلك .. لا تثير اعجابك ، ولا تثير احتقارك .. لا تثير فيك شيئا ابدا .. فاذا جلست مع اصدقائى فهم لا يتأذون منى ، فلست ثقيل الظل ، ولست سخيفا .. واذا غبت عنهم لا يفتقدوننى ولا يسألون عنى ، فلست خفيف الدم ، ولست محدثا لبقا ، حتى يحسوا بغيبتى ..

وذكائى .. ايضا .. لست لامع الذكاء ، ولست غبيا .. وفى جميع مراحل الدراسة لم يكن ترتيبى بين زملائى الأول .. ابدا .. ولم يكن ترتيبى الأخير .. ان مكانى دائما حيث لا اثير انتباه احد .. السابع عشر ، او الثامن عشر ، او التاسع عشر ، فى ترتيب الناجحين .. وحتى فى الألعاب التى هويتها كنت واحدا والسلام

.. كنت احب ان العب كرم القدم ، وكنت انضم الى فريق الكرة فى كل مدرسة ادخلها ، ولكن لم يحدث مرة ان اصبت المرمى ، كما لم يحدث ان اخطأت فى اللعب ولكن لم يحدث ان صفق لى الجمهور ، او صفر لى ..

واخلاقى .. انك لا تستطيع ان تعتبرنى فاضلا ولا ان تعتبرنى سافلا .. انى اشرب الخمر ، ولكنى لا اسكر .. واغازل البنات ولكنى لا اصل اليهن .. و ..

هذا هو انا .. انى اعرف نفسى جيدا .. وصدق بعد هذا انى فنان ..

رسام .. وقد هويت الرسم من صغرى .. وكبرت معى هوايتى .. وكنت ارسم كثيرا .. كنت ارسم شجرة مثلا .. وتنظر اليها فتعرف انها شجرة .. ليس فيها شىء ناقص .. الفروع متكاملة ، واوراقها مرسومة ورقة ورقة بكل ما فيها من تفاصيل .. والالوان ليس فيها خطأ .. ورغم ذلك فلم يكن احد يبهر بما ارسمه .. كانوا يكتفون بابتسامة صغيرة ، وكلمة تشجيع ، وتبقى عيونهم مطفأة ، ليس فيها دهشة ولا انبهار ..

وكنت اعرف ما ينقصنى .. ينقصنى هذه اللمعة التى يتميز بها الفنانون .. هذا البريق الذى ينطلق من نفس الفنان ويسرى فى يده الممسكة بالفرشاة .. كان ينقصنى هذا البريق لأكون واحدا من كبار الفنانين .. مايكل انجلو .. روفائيلى .. يوسف كامل .. محمود سعيد .. جمال قطب ..

وقررت ان اقضى حياتى كلها بحثا عن هذا البريق ..

والتحقت بكلية الفنون الجميلة .. وقبلونى بين طلبتها ، لانهم لم يستطيعوا ان يرفضونى .. لا لانى اثرت اعجابهم ..

وفى هذا الوقت سكنت سنية مع عائلتها فى الشقة التى تعلو شقتنا فى الدور العلوى .. فتاة لم تتم تعليمها .. يبدو عليها

الغباء .. وبدأت تتردد علينا لزيارة اختى .. ورأت لوحاتى لأول مرة ، فاذا بها تصيح :

ــ الله حلوه قوى يا عباس .. انت مدهش !

ونظرت فى وجهها .. ولمحت غباءها .. ولم اقتنع برايها .. عددتها منافقة .. لعلها جاهلة .. ورغم ذلك فان صيحتها اثارت فى لأول مرة نوعا من الغرور الخافت الضئيل .. غرور لم يستطع ان يقنعنى بأنى لامع ..

واصبحت اذهب الى الكلية كل يوم ، واعود الى البيت لأرسم .. واترك سنية الغبية .. الجاهلة .. تبدى اعجابها بما ارسمه ..

واهتممت اهتماما كبيرا بدروسى .. اصبحت اعرف كل شىء من فنون الرسم .. واصبحت ارسم لوحات ، لا يمكن ان تجد فيها خطأ واحدا من الناحية الفنية .. والتكنيك .. ورغم ذلك فلم يكن بينها لوحة واحدة تثير اعجاب اساتذتى او زملائى .. او تثير نقدا يمكن ان يواجهونى به .. لم اسمع من واحد منهم هذه الصيحة التى اسمعها من سنية .. فقط ابتسامة صغيرة ، وكلمة تشجيع وعيون مطفأة ليس فيها دهشة ولا انبهار ..

ثم .. ثم احببت سوسن ، زميلتى فى الكلية .. ولا تسألنى كيف احببتها .. لقد وجدت نفسى ذات يوم احبها ، ربما لانها ابدت نحوى من الاهتمام ما لم اجده من اى فتاة اخرى .. وربما كان اهتمامها مجرد مجاملة ، تنبع من رقتها ، واحساسها المرهف .. ولكنى لم اشعر وقتها انها تجاملنى .. وتركت نفسى احبها .. وانتشيت بالحب .. وخيل الى انى على وشك ان اكون انسانا جديدا .. انسانا هاما .. ان فى صدرى عواطف واحاسيس زاخرة غنية ، لم تكن فى صدرى من قبل .. ولعل هذه العواطف والاحاسيس تسرى فى فرشاتى فأستطيع ان ارسم اللوحة التى انتظرها .. اللوحة التى تثير البهرة والدهشة ..

واصبحت ارسم كثيرا .. اقف امام لوحاتى حتى الفجر .. ثم انظر من بعيد ، فلا اجد فيما رسمته شيئا جديدا .. وترى سوسن اللوحة وتقف امامها طويلا ، ربما مجاملة لى ، ثم لا اجد فى عينيها شيئا من الانبهار والدهشة .. عينان مطفأتان ، وابتسامة صغيرة وكلمة تشجيع ..

فقط سنية ، هى التى تصيح من الدهشة أمام لوحاتى ..

ومرت شـــهور .. وانا اعيش فى حبى الموهوم .. وفجـــأة اكتشفت شيئا لم الحظه من قبل . ان سوسن تحب عبد الرءوف المع طلبة الكلية فى الرسم .. كل الطلبة يعرفون انها تحبه ، وأنا آخر من عرفت .. وعرفت لماذا تحبه .. لأنه المع الطلبة .. لأنه فنان ذو بريق ينعكس على لوحاته .. وكما تحب بنات الكليات الاخرى ابطال الرياضة ، فان البنات فى كليتنا يقعن فى غرام ابطال الفن ..

وكان يجب ان اكون بطـــلا فى الفن ، اذا اردت ان تحبنى سوسن ..

وبدات اقف امام لوحات عبد الرءوف لاكتشف كيف اصبح بطلا .. ان لوحاته مليئة بالأخطاء الفنية .. انى استطيع ان اشير فى كل لوحة الى اكثر من عشرة اخطاء .. ورغم ذلك فان البريق الذى ينطلق من فرشاته يطغى على اخطائه ، حتى لتبدو هـــذه الأخطاء متعمدة .. ان البريق يعفى الفنان من التقيد بالأصول الفنية .. ولكن الأصول الفنية لا تعفى الفنان من البريق ..

وحاولت ان اقلد عبد الرءوف .. حاولت ان اتجـــرا على الأصول الفنية .. فربما كانت هذه الجراة هى التى تشحذ عبقرية الفنان حتى ينطلق منه البريق .. ولكنى لم استطع .. هل تصدق انى لم استطع ان اخطىء خطأ فنيا واحدا وانا ارسم . لقد وجدت

نفسى سجينا بين قضبان الأصول الفنية .. سجينا لا استطيع الفكاك .. وظلت لوحاتى بلا بريق ..

ثم .. ثم تزوجت سوسن من عبد الرءوف .. تزوجا وهما لا يزالان ضمن طلبة الكلية .. ولم احتمل الصدمة .. كان يجب ان افعل شيئا حتى انقذ نفسى من هاوية اليأس والضياع ..

لماذا لا اتزوج انا الآخر .. اتزوج سنية .. انها على الاقل تعتبرنى فنانا عبقريا .. انها تصيح امام لوحاتى .. حتى لو كان صياحها مجرد غباء او نفاق ، فربما استطعت بهذه الصيحات ان استعيد ثقتى بنفسى .. واستمر فى محاولتى للوصول ..

وتزوجت سنية .. لم افرح بزواجها ، ولم اتضايق ..

وفى الاسبوع الاول من زواجنا ، رسمت صورة لها وهى فى ثوب الزفاف ، وبعد ان اتممتها ناديتها لأسمع صيحاتها .. وجاءت ، وقبل ان تتمعن فى اللوحة ، قالت كأنها تؤدى واجبا :

ــ حلوه قوى يا عباس .. قول لى ، نطبخ ايه النهارده ..

ونظرت فى عينيها .. عيناها مطفأتان .. لا دهشة ولا انبهار كعيون كل الناس الذين ينظرون الى لوحاتى ..

وتحملت .. وبدأت مسئولياتى الزوجية تسقط على رأسى .. سنية تريد زيارة امها ويجب ان أكون معها .. وسنية تريد ان تصلح وابور الجاز .. وسنية حامل .. وسنية تريد ان تذهب الى الطبيب .. والخادمة خرجت ، وسنية تريد خادمة اخرى .. و .. وأنا لا احب ان اخل بمسئولياتى .. انا رجل الأصول .. الأصول الفنية ، واصول الحياة الزوجية ..

وبدا وقتى يضيق عن مزاولة فنى .. وازدادت اعبائى المالية .. حتى لم يعد الدخل القليل الذى ورثته عن والدى يكفينا ..

ثم اكتشفت سنية شيئا لم تكن تعرفه .. اكتشفت انى لا ابيع

لوحاتى .. او على الأصح لا احد يشتريها .. فلم تعد تكتفى باهمالى عندما ترانى أرسم .. اصبحت تصرخ :

ـــ يا خويا بدل الهم ده ، ما تروح تدور لك على شغله تكسب منها قرشين ، تاكل بيهم عيش .. وتربى بيهم ابنك ..

وكان ابنى فعلا فى حاجة الى قرشين لأربيه .. فانقطعت عن الدنية .. وبدات ابحث لنفسى عن عمل ..

والآن .. انا الآن واحد من ملايين الأزواج الذين تمر بهم دون أن تنتبه لهم .. مجرد رقم من الأرقام .. وعندى اربعة اولاد .. وانا كاتب حسابات فى شركة المخابز الكبرى ..

والرسم .. ان سنية حرمت علىّ الرسم فى البيت .. انها لا تطيق ان اشغل الحجرات الضيقة باللوحات .. ثم من اين آتى بثمن الالوان والادوات .. ولكنى فى أوقات عملى ارسم بعض الرسوم بالقلم الرصاص .. انها رسوم تتكامل فيها كل الاصول الفنية ولا بريق ..

اتدرى .. ان ابنى حسين يهوى الرسم .. وهو الآن فى الثانية عشرة من عمره .. وسيكون فنانا كبيرا .. انى واثق انه سيكون فنانا كبيرا .. انه لا يتقيد بالأصول الفنية .. ان فى رسومه عشرات الأخطاء .. ولكن .. فيها بريق ..

شىء غـــير الحب

انا من « ابو كبير » .. شرقية .. وعندما جئت الى القاهرة لالتحق بالجامعة كان اهم ما يشغل بالى .. البنات !

كان بنات الجامعة يرتسمن فى خيالى كنوع غـــريب من المخلوقات .. ليس بناتا كبنات بلدنا .. وليس فيهن واحدة كأختى او كابنة عمى .. ولكنهن ـــ فى خيالى ـــ اقرب الى نجوم هوليوود .. يعشن فى عالم بعيد ، ويتكلمن لغة ليست لغتى ، ويتصرفن تصرفات مثيرة يقف لها شعر راسى .. ومنذ احسست بشبابى وانا طالب فى المدرسة الثانوية ، وانا أحلم بحب بنت من بنات الجامعة .. لا .. لم اكن احلم بالحب .. ولكنها كانت احلاما محمومة .. حمراء .. تضج بخيالات المراهقة ، وتنطلق فيها السنة الكبت العنيف الذى تفرضه على حياتى فى البلدة .

وقضيت الليالى التى سبقت ذهابى الى الجامعة ، وانا كالمجنون .. ارسم لنفسى صورا كثيرة وانا بين البنات .. وتنتابنى قشعريرة وانا اتصور نفسى اواجههن واتحدث اليهن .. وفى صباح يوم افتتاح الدراسة ، قضيت ساعات طويلة وانا حائر فى اختيار الصورة التى ابدو بها .. هل ابدو ضاحكا .. هل ابدو مبوزا .. وهل اذهب بالقميص والبنطلون كما يفعل اولاد القاهرة ، أم اذهب مرتديا حلة كاملة .. ؟

وذهبت مرتديا حلتى الكاملة .. حلتى الجديدة .. ووجهى حائر بين الابتسام والتبويز .. وسقطت عيناى على بنات الجامعة

لاول مرة .. بل لم ار سوى البنات .. كنت ارى اى فستان يمر على بعد ثلاثمائة متر ، ولا أرى زميلى الطالب الذى يقف على بعد شبرين ..

وعقلى وقلبى وراء عينى .. كل احساسى منجذب الى البنات .. ولكن كيف اتحدث اليهن او الى واحدة منهن .. ارتبكت .. خانتنى شجاعتى ..

لم استطع أن اقدم نفسى الى واحدة من البنات .. ومرت الأيام وكلما رأيت طالبا يحادث بنتا ، وقفت من بعيد ارقبهما واحسده عليها .. ثم اقول لنفسى : لابد انها اخته .. او ابنة عمه .. والا لما تجرا على ان يقف ويحادثها بهذه البساطة .. وكنت اخدع نفسى بهذا الكلام .. ولكنى كنت مضطرا الى خداع نفسى ، والا مت كمدا .. بل انى كنت متأكدا انه لو انقضى العام دون ان احادث بنتا من بنات الجامعة : فسانتحر !!

ومرت اسابيع .. وفى يوم كنت خارجا من المدرج ، عندما اقتربت منى سعاد ، وقالت فى بساطة :

— انت كتبت المحاضرة ؟

وارتبكت .. وارتعشت رموشى فوق عينى ، حتى لم اعد ارى من سعاد الا خيالا مهزوزا .. وقلت كأنى اصم :

— نعم ؟ !

قالت :

— باقولك تسمح تدينى كراستك انقل منها المحاضرة ..

وقلت وانا ازداد ارتباكا :

— اتفضلى يا افندم ..

وناولتها كراسة المحاضرات بيد مرتعشة ، واخذتها منى بيد ثابتة ، وهى تهمس :

— مرسى ..

وابتعدت ، وجاءت فى اليوم التالى لتعيد الىّ الكراسة ، وهى تقول :

— ده انت خطك حلو قوى ..

ووقفت تتحدث الىّ .. اصبحت تقف وتحادثنى كل يوم .. امام كل الطلبة .. وكنت اتعجب من جراتها فى مبدا الأمر .. ولكنى بعد قليل اقنعت نفسى ان الوسط الجامعى يقبل مثل هذه الجراة .. خصوصا بعد ان اطمأننت الى ان ليس لها اخ ولا قريب بين الطلبة .. ودابت افكر فى سعاد ليل نهار .. لابد انها تحبنى .. ! صحيح اننا لم نتحدث فى الحب .. ولم نتبادل لمسات الحب .. ولكن ماذا يدفعها الى التحدث الىّ الا اذا كان الدافع هو الحب .. او الصداقة !! .

لا .. ليس هناك صداقة يمكن ان تقوم بين فتى وفتاة .. اما حب او لا شىء ..

ولكن لماذا لم تبدأ سعاد فى مطارحتى الحب ؟

لا ادرى .. لعل للجامعة تقاليد فى الحب لم اعرفها بعد ..

وفى يوم سرت مع سعاد نتحدث حتى وصلنا الى باب الجامعة .. ووقفت منتظرا ان تستأذننى فى الانصراف .. فلا شك انها لا تريد ان نظل سائرين معا خارج الجامعة .. فى الشارع ..

ولكنها نظرت الىّ فى دهشة ، وسألتنى :

— انت مش مروح ؟

قلت وانا انظر الى وجهها حائرا :

— ايوه ..

قالت :

— انت ساكن فين ؟

قلت :

— فى الجيزة ..

قالت وهى تبتسم :
ــ طيب تعال امش معايا لغاية الكوبرى ..
وارتعشت كلى .. كيف اسير معها فى الشارع .. لعل احدا من عائلتها يرانا .. لعل الناس يتجمعون حولنا ويضربوننا ..
ولم افصح لها عما يخالجنى من خوف .. استعنت بالله وسرت معها ، وانا أتلفت حولى فى كل خطوة منتظرا ان يهاجمنى احد اقاربها ويمسك بتلابيبى .. وهى تسألنى :
ــ مالك .. بتبص على ايه ؟
واجبتها وابتسامتى ترتعش :
ــ ولا حاجه .. اصلى بادور على واحد صاحبى ..
وظللت سائرا معها .. انه شعور عجيب عندما تسير فى الشارع لأول مرة مع فتاة .. شعور فيه خوف .. وفيه زهو .. وفيه ارتباك .. وفيه احساس بالرجولة والثقة .. شعور لم اكن قد عرفته .. ان الأنثى الوحيدة التى كنت اسير معها فى شوارع بلدتنا ، هى الجاموسة .. !
ووصلنا الكوبرى .. واستأذنت .. انا الذى استأذنت ..
وعدت الى بيتى وانا اكاد اطير من الزهو ، كأنى عدت من مغامرة عنيفة جريئة .. وتعودت بعد ذلك ان اسير مع سعاد فى الشارع .. ليس دائما .. ولكن فى أيام متباعدة كانت تسمح لى خلالها بمصاحبتها ..
ثم .. كانت قد اقترضت منى كراسة المحاضرات .. وفى اليوم التالى خرجنا سويا وسرنا حتى تعدينا الكوبرى ، ثم سرنا حتى وصلنا الى المنيل ، وقالت لى فجاة :
ــ تعال معايا البيت علشان تاخد الكراسه بتاعتك ..
ونظرت اليها متعجبا .. ولكنى سكت ..
ووصلنا الى الشارع الصغير الذى يقع فيه بيتها .. وتوقفت عند اول الشارع ..

وقالت لى فى دهشة :
ــ وقفت ليه ؟
قلت :
ــ حاستناكى هنا ..
قالت :
ــ لا .. تعال معايا البيت !
قلت :
ــ آجى معاكى ازاى .. مش ممكن ؟
قالت :
ــ مش ممكن ليه .. اخويا زمانه جه وتقعد معاه !
قلت :
ــ بس هو ما يعرفنيش !
قالت :
ــ وماله .. يعرفك ..
قلت :
ــ يعرفنى ازاى .. حاتقولى له ايه ؟
قالت :
ــ حاقول له ان اسمك عباس عبد البارى ، وانك زميلى فى الكلية ..
قلت :
ــ بأه ده اسمه كلام يا اخواتى ..
قالت وهى تشدنى من يدى ، وتكاد تضحك :
ــ تعال بس ..
وسرت معها .. وقلبى يدق .. وكلى ارتعش .. ودخلنا البيت ، وصعدنا فى السلم .. ومناقشة حادة تدور فى راسى .. لقد سمحت بأن اقف واحادثها فى الجامعة .. معقول .. وسمحت

أن أسير معها فى الشارع .. معقول برضه .. اما ان تسمح لى بأن ادخل بيتها .. فهذا ليس معقولا ..

وما كدنا نصل الى باب الشقة ، والمحها وهى تمد يدها لتضغط الجرس ، حتى قفز الى ذهنى خاطر غريب .. ربما كانت تدبر لى مؤامرة .. ربما اذا دخلت فوجئت بأهلها يتكالبون علىّ ويتهموننى بالاعتداء على شرفها ثم يستدعون المأذون ليعقد قرانى عليها .. ربما .. ربما اى شىء !

وبلا وعى منى .. وجدتنى استدير لها ، ثم اهبط السلم قفزا .. ثم اخرج الى الشارع ، واجرى .. واظل أجرى حتى وصلت الى كوبرى عباس ..

★★★

حدث لى هذا فى العام الدراسى الأول من التحاقى بالجامعة .. ثم بدات اكتشف شيئا لم يكن يخطر ببالى .. اكتشفت الصداقة .. صداقة بين الطلبة والطالبات .. شىء لا نعترف به فى بلدنا ابو كبير ..

وبين أصدقائى الآن كثير من الزميلات ، اتردد على بيوتهن واعرف عائلاتهن ..

ولكن .. ليس فى بلدنا ابو كبير ..

لن أتزوج زميلى

شىء غريب ، هذا الذى حدث لى ..

لقد تخرجت فى كلية التجارة ، والتحقت بالعمل فى احدى المؤسسات .. قسم الحسابات .. ووجدت نفسى اجلس على مكتب فى غرفة تجمعنى مع أربعة زملاء .. شبان .. وشعرت برهبة غريبة فى الأيام الأولى من التحاقى بالعمل .. رهبة الجلوس بين اربعة شبان ، ثمانى ساعات فى اليوم .. فى غرفة واحدة !

ولم ادر سر هذه الرهبة .. فقد كنت اقضى ايامى فى الجامعة بين عشرات الشبان .. وكنت اعتقد أن رهبة الاختلاط بالشبان قد زايلتنى خلال هذه السنوات .. ولكن يبدو أن الاختلاط بعشرات الشبان ، اقل خطورة من الاختلاط بأربعة فقط .. والاختلاط فى مكان فسيح مزدحم كقاعات الجامعة ، اقل خطورة من الاختلاط فى غرفة ضيقة ..

ومرت أيام كثيرة وانا لا أستطيع أن اركز عينى فى واحد من زملائى .. وصوتى لا يستطيع ان ينطلق كعادته ، ولكنه يخرج من بين شفتى خافتا ، خجولا ، مهذبا ، كأنى لست من بنات الجامعة .. وحركاتى كلها بحساب يشوبه ارتباك .. وانتقى ثوبى وحذائى وحقيبة يدى ، كل صباح ، كأنى ذاهبة الى حفل زفافى ! ولا انكر انى قبل ان اتسلم عملى فى المؤسسة كان يراودنى حلم ، بأن التقى بواحد من الزملاء ، احبه .. واتزوجه !

وظل هذا الحلم يراودنى بعد ان جلست فى الغرفة الضيقة بين

الزملاء الاربعة .. وبسرعة .. ومن خـــلال كلمات عابرة .. استطعت ان أعرف الأربعة .. عزاب .. وبدات فى فترات العمل ، اختلس النظر الى كل منهم ، واسأل نفسى ، من منهم احبه .. واتزوجه !

عادل .. الشاب الضاحك ، الذى يبدو مستهترا فى حياته الخاصة .. والذى يستطيع دائما ان يجذب الابتسامة من بين شفتيك ، ويحولها الى ضحكة كبيرة ..

او محمود .. السمين ، الذى يبدو عليه انه « بيتى » ويبدأ حديثه كل صباح بوصف ما اعدته له امه من طعام الغداء ..

او رفيق .. الشاب العاطفى ، الذى ينظر الى ويتنهد ، ثم يرفع برأسه ويهيم بعينيه فى الفضاء .. ثم يحدثنا عن آخر قصة قراها ، وآخر قصة يحاول ان يكتبها ..

او ابراهيم .. انه رفيع اكثر من اللازم .. طويل .. كعود القصب .. وصامت دائما .. جاد دائما .. يقبل على عمله كانه يقرا فى كتاب فلسفة .. يعقد حاجبيه ، وتكفهر عيناه الجميلتان ثم لا يتكلم .. يقضى اليوم كله .. وقد لا أسمع منه سوى كلمتين !

ايام كثيرة قضيتها وانا انقل خاطرى بين هؤلاء الاربعة .. شيئا فشيئا بدا صوتى ينطلق كعادته .. ملعلعا .. وبدات اتحرك بحرية .. واسند ركبتى على حافة المكتب ، واطلب من البوفيه واحد ساندويتش فو ل .. ثم بدات الاحاديث بيننا تشمل كل شىء .. كل اسرارنا .. الأسرار المهذبة .. عرفت ان كلا منهم يحب ، وكلا منهم لا يفكر فى الزواج .. عدا ابراهيم .. فلم أعرف عنه شيئا .. ولم يكن يتكلم ..

ومع الايام ايضا .. بدأ الحلم الذى كان يراودنى يتبخر .. بدا شعور يجمعنى بهؤلاء الزملاء .. شعور أقرب الى شعورى نحو اخى .. وليس معنى هذا انى لم اعد افكر فى الحب او الزواج ..

ولكنى ابتعدت بتفكيرى عن زملائى .. انهم اخوانى ! ما الذى يخلق شعور الأخوة ؟ انه التعود .. التعود على شخص ما مدة طويلة ، كافية ، لتجعل منه اخا لك .. ان هذا التعود يقضى على الاحساس بالجنس بين الأخ والأخت .. وهذا ما حدث لى ..

لقد تعودت على زملائى .. انى اراهم واتحدث اليهم ، أكثر مما ارى اخى ، واكثر مما اتحدث اليه .. ثم انى اراهم فى العمل على حقيقتهم ، كانى أرى أخى فى البيجاما ، او وهو نائم فى سريره ، انى اراهم ، وسيدنا رئيس الحسابات يشخط فيهم ، ويبهدلهم امامى ، واراهم وهم فى ضيقهم ، وفى مرحهم .. واراهم وعامل البوفيه يحاسبهم كل شهر .. واراهم وهم يعملون ..

ان هذا الاختلاط الطويل ، لا يترك مجالا للخيال .. لا يترك مجالا لأن اتخيل الشخص كما احب أن أراه ، لا كما هو على حقيقته .

والحب فى حاجة دائما الى الخيـــال .. الحب يبدأ باثارة الخيال .. الحب لا ينشأ بين رجل وامرأة ، الا نتيجة صورة ارتسمت لكل منهما فى خيال الآخر ..

واكثر ما يثير حب المرأة هى تخيلها للرجل فى مكان عمله .. انها تتصوره جادا ، حازما ، متعبا ، يرهبه زملاؤه ، ويحترمه رئيسه ، ويقف له وهو يصافحه ، هذه الصورة تكون جزءا كبيرا من خيال المرأة عن الرجل الذى تحبه ..

ولكنى لا أستطيع ان اتخيل شيئا عن هؤلاء الزملاء .. لانى اراهم بعينى .. وارى انهم ليسوا جادين فى عملهم ، ولا حازمين ، ولا محترمين .. انهم مهرجون .. يتحايلون على التهرب من العمل .. وسيدنا رئيس القســم يشخط فيهــم وفىّ .. حتى ابراهيم الصامت .. مهرج ، واخبثنا فى التحايل على الهرب من العمل .. وسيدنا يشخط فيه ! وهكذا وجدت نفسى اختـــا للأربعـــة .. واصبحت اعاملهم كأخوة .. ولم اعد اهتم كثيرا بأناقتى ، وانا

ذاهبة اليهم .. وعندما يصافحني واحد منهم ، احس بيد اخي في يدي .. لا تثيرني اللمسة .. ولا تربكني النظرة .. وفي الوقت نفسه كنت احس باحساسهم نحوي ، احساس الأخوة والاصدقاء ، لا احساس الرجال نحو فتاة بينهم .. جميلة .. وكل منهم يحتاج الى كأخت اكثر مما يحتاج الى كفتاة يريدها .. ان كلا منهم يروي لي اسراره .. ادق اسراره .. وكلا منهم يأتمنني على سره .. ويطلب مني حلا لمشكلته .. ويثق بي .. والأحاديث بيننا تزداد صراحة على مر الأيام .. لم اعد اخجل من نوع معين من المعاني والكلمات ، كنت اعتقد انى لا استطيع ان اتبادلها الا مع اخي .. كأننا كلنا اصبحنا رجالا ! وأحيانا تمر كلمة غزل ..

محمود قال لي مرة :

— اسمعي .. انا سبت البنت بتاعتي .. ايه رايك .. نحب بعض ؟

ورفيق قال مرة :

— اسمعي .. انا سبت البنت بتاعتي .. ايه رأيك .. نيجي نكتب قصة سوا !

هذا الغزل كان يتكرر كثيرا .. وكنت أسمعه ، واضحك .. وهم يضحكون .. كنا نضحك كثيرا أ ودائما ، واختلطت حياتنا الى حد كبير .. كنت ادعوهم الى بيتي .. ويدعونني الى بيوتهم وسط عائلاتهم .. ونذهب احيانا الى السينما .. واحيانا نقوم برحلات خارج القاهرة .. ونضحك !

ومر عامان .. وفي يوم خرجت مع ابراهيم بعد انتهاء العمل .. وكنت قد تعودت على صمته ، وكنت استطيع دائما أن اخرجه عن هذا الصمت ليروي لي اسراره ، وليحدثني طويلا عن نفسه وحياته ..

وقال لي ابراهيم ، ونظراته جادة كأنه مكب على دوسيه :

— تيجي نتمشى شويه على الكورنيش ؟

وقبلت .. وسرنا طويلا على كورنيش النيل ، وهو صامت ، وانا احاول ان اخرجه من صمته فلا استطيع .. احسست ساعتها انه يعاني أزمة .. ويتردد في البوح بها .. ربما كانت ازمة جديدة مع ابيه .. انه يختلف دائما مع ابيه .. و .. واحسست بيده تلمس يدي أثناء سيرنا ..

لا شيء .. يد اخي لمست يدي ..

ثم قبض على يدي في كفه ، وضغط عليها ..

لا شيء .. يدي في يد أخي ..

ولو انه قبلني على خدي في تلك اللحظة ، لما احسست باكثر من قبلة أخي التي يطبعها على خدي كل صباح .. صدقوني .. ان شيئا منه لم يكن يثيرني ، أو يفتح خيالي .. ولكن ابراهيم لم يقبلني .. لقد وقف فجأة واستدار اليّ ، وقال في حدة :

— اسمعي .. ايه رأيك نتجوز ؟

قالها بشكل رسمي !

ونظرت في عينيه ، لعله يمزح .. ولكن عينيه جادتان ! ولا ادري لماذا ابتعدت عنه في حركة سريعة .. وشعرت بالضيق ضيق شديد .. شعرت كأنه يعرض عليّ شيئا شاقا ، لا يصح أن يحدث بين الأخ واخته .. ولم اجب ..

وعاد ابراهيم يتكلم في صوت جاد :

— انا فكرت كثير .. بقى لي اكثر من سنه وانا بافكر .. وما اقدرش افكر اكتر من كده ..

وحاولت ان اتكلم .. ولكنه عاد يقول وهو يمسك بيدى ويضغط عليها :

— انا باحبك يا امال .. باحبك من زمان ! ..

واحسست كأن شيئا جميلا قد تحطم .. ونظرت اليه وعيناى تزفران ضيقى .. انه هو الذى يحطم هذا الشيء الجميل .. هو الذى يحاول ان يفسد ما بيننا من صداقة واخوة .. وسحبت يدى من يده ، وقلت فى حزم :

— انت زى اخويا يا ابراهيم .. وانا محتاجه لك كأخ .. والأفضل اننا نفضل اخوات ..

ونظر الىّ ابراهيم كانه صدم ، وقال وحاجباه يتعقـدان وعيناه تكفهران :

— قصدك ايه ؟

قلت وانا استدير لنستمر فى سيرنا :

— قصدى بلاش الموضوع ده !

ورد فى حدة :

— اوريفوار ..

وتركنى على الرصيف ، وعبر الشارع فى خطوات سريعة واختفى ..

ونظرت وراءه فى اشمئزاز .. هكذا افسد كل شيء ..

هكذا افسد صداقتنا الحلوة ، ولن تعود ثانية ..

ونسيت سريعا هذا الحادث .. عدت الى البيت ، وانشغلت فى الحديث مع امى وبنات خالتى اللاتى كن فى زيارتنا ..

وفى الصباح .. وانا استعد للذهاب الى العمل .. تذكرت ابراهيم .. واخذت افكر فى مواجهتى له .. وقررت ان اواجهه مبتسمة ، واحاول ان اعيده الى الصداقة والأخوة .. ان امسح من راسه فكرة الزواج ..

ولكن ابراهيم ليس على مكتبه .. وانقضى نصف اليوم ولم يأت ..

ثم سال عنه الزملاء ، فعرفوا انه اخذ اجازة مرضية ..

شعرت بالضيق .. اخذت طـول الوقت انظر الى مكتب ابراهيم الخالى .. ثم أعود الى عملى .. ولا البث ان اجد عينى فوق المكتب الخالى ..

واحسست احساسا عجيبا .. لقد اوحشنى ابراهيم ..

نوع عجيب من الوحشة لا اشعر به نحو اخى .. ان اخى مسافر كثيرا ولا اشعر بنفس الوحشة له .. ربما لأنى لم اتعود على غيبة ابراهيم .. انى اراه كل يوم ، ومنذ عامين ، على هذا المكتب .. نعم ، انه مجرد التعود .. لا اكثر .. ولكن .. مع الأيام ازدادت وحشتى له ، ازددت شوقا اليه .. انى مشتاقة فعلا اليه .. وفى شوقى اصبحت اراه فى خيالى .. ان وجهه اكثر وسامة مما كنت اعتقد .. وعينيه اكثر جمالا .. عميقتان نافذتان .. وصمته مريح ، وكلامه القليل كأنه قطرات الندى .. ثم .. فوجئت ، وفوجىء زملائى .. بأن ابراهيم قدم استقالته ، والتحق بمؤسسة اخرى ..

و .. وجاء يودعنا .. جاء فجأة ايضا .. وطاف علينا يصافحنا واحدا .. واحدا .. والزملاء يتصايحون :

« يعنى حاتلاقى احسن منا يا ابراهيم .. » .

« اللى تعرفه احسن من اللى ما تعرفوش .. » .

« لازم لاقيت حاجة هناك يا عم .. » .

و .. ومد يده يصافحنى .. وكنت انتظر أن تبقى يده فى يدى مدة اطول .. كنت انتظر أن يطل فى عينى ويتنهد .. انه يحبنى ويريد ان يتزوجنى ! ..

ولكنه صافحنى مصافحة سريعة ، كبقية الزملاء ، ثم خرج وهو يصيح :

— خلينا نشوفكم يا جماعه ..

وخرج قلبى وراءه .. وانفتح خيالى كله يتصوره طول اليوم .. انى أتصوره فى عمله الجديد ، بصورة أخرى غير التى كنت أراه فيها وهو جالس بيننا .. اتصوره جادا ، مهيبا ، محترما .. اتصوره رئيسا لكل الموظفين هناك . اتصوره شخصية قوية عارمة ، لا يمكن ان تكون الا شخصية رئيس ..

وبدات أعرف من خيالى ، انى احبه .. ربما كنت احبه طول الوقت ، ولم اكن اشعر بهذا الحب لانى كنت متعودة على رؤيته كل يوم .. كان حبى مختفيا تحت روتين العادة .. نعم .. احبه ..

وبدا حبى يتجسم فى مشكلة تزعج نهارى وليلى .. كيف استطيع ان اصل اليه .. الى ابراهيم .. انه لا يحاول ان يتصل بى .. وانا لا استطيع ان اتصل به ، انه لم يعد اخى ولا صديقى حتى اتصل به ، هكذا ببساطة .. انه حبيبى .. وللحب كرامة خاصة .. اشبه بالعناد ، لا استطيع ان اتنازل عنها ..

وفى يوم .. جاء محمود يصيح :

— اسكتوا . . امبارح قابلت ابراهيم .. ده بقى حاجه كبيره .. خد الشهر اللى فات علاوتين مره واحده .. وعزمته يتغدى معانا كلنا فى مطعم « الأونيون » بكره ..

وصرخ قلبى .. سأرى ابراهيم غدا ..

وبت ليلتى وخيالى يتفجر .. والعلاوتان اللتان نالهما ابراهيم يبدوان فى خيالى كأنهما معركتان انتصر فيهما ..

وفى الصباح .. قضيت ساعات طويلة أمام المرآة .. انى لست ذاهبة الى اخوتى ، ولكنى ذاهبة الى حبيبى .. والتقينا فى مطعم « الأونيون » ..

واحسست بيده فى يدى ، وهو يصافحنى كما لم أحس بها من قبل .. شعرت بهذه الضغطة الخفيفة التى ضغط بها على كفى .. وربما ضغط على كفى عشرات المرات وهو زميلى ، ولكنى لم اشعر بها الا اليوم .. وارتاح قلبى لهذه الضغطة .. تنهدت !! ولم استطع ان آكل .. ولم استطع ان اشارك الزملاء ضحكهم .. كنت طول الوقت « مبلمة » وعيناى معلقتان بالوجه الوسيم .. وانتهى الطعام ..

وارتجفت .. هل ساراه مرة ثانية ؟ متى ؟ ..

★★★

وخرجنا من المطعم .. ومال علىّ ابراهيم وهمس وهو جاد ، وعيناه مكفهرتان ، كأنه مكب على الدوسيه :

— اقدر اشوفك النهارده بعد الشغل .. نتمشى على الكورنيش ؟

وذهبت اليه .. ذهبت اليه بكل خيالى .. اننا سنتزوج فى الاسبوع القادم ..

اصبع الـزواج

واخيرا .. تقرر أن أسافر الى أوروبا .. والى استكهولم بالذات ..

هل تعرف ما اعرفه عن استكهولم .. ليس مهما ان تعرف أنها عاصمة السويد .. لتكن عاصمة اى بلد من بلاد العالم .. هـذا لا يهم .. انما المهم هو ما ينتظرنى هناك .. وانا اعرف ما ينتظرنى هناك .. بنات كالقشطة المغموسة فى مربة الورد .. وحرية .. حرية لا نهاية لها .. انهم هناك ناس مثقفون .. لا يعقدون حياتهم بعقد الجنس .. كل شىء مباح .. والشرط الوحيد هو اتفاق بين الطرفين .. وأنا مستعد أن أتفق ، بلا تردد ، وبلا شروط .. واعلم ان أى بنت هناك مستعدة ان تتفق معى ، لأن لونى اسمر ، وشعرى مكركت .. وبنات السويد يتلهفن على اللون الأسمر والشعر المكركت .. لسن كبناتنا اللاتى لا يقدرن النعمة التى تجرى خلفهن فى شارع سليمان !!

وقضيت أياما أستعد للسفر ، واللهفة تكاد تطير بى قبل ان تطير بى الطائرة ، ولم احاول ان اراجع مواضيع المؤتمر الذى اسافر للاشتراك فيه .. ليس المؤتمر هى الذى اسافر من اجله .. وليس هناك واحد من زملائى مسافرا من اجل المؤتمر .. كلنا مسافرون وفى رؤوسنا حلم واحد .. وبين أعيننا صورة متشابهة صورة بنت كالقشطة المغموسة فى مربة الورد .. ووقفت اودع زوجتى ..

وأجدت تمثيل موقف الوداع .. كدت ابكى من شدة اندماجى فى التمثيل ، وقد رايت ساعتها من خلال دموع زوجتى ، نظرة

غريبة فى عينيها .. انى اعرف هذه النظرة .. انها نفس النظرة التى تستقبلنى بها ، كلما تأخرت فى عودتى لتشم ثيابى بحثا عن رائحة امراة اخرى ، وتدقق فى قميصى بحثا عن آثار شفاه ، نظرة الاتهام .. انها تتهمنى وهى تودعنى .. تتهمنى بخيانة لم تقع بعد .. ليكن .. ماذا يهم .. انها لن تلحق بى الى هناك .. انى هناك رجل حر .. انا وبنات استكهولم .. حر فى أن اخون .. وربما كانت زوجتى تعلم هذا ، فان نظرتها التى تحمل الاتهام ، تحمل ايضا نوعا من الاستسلام .. استسلام لا حيلة لها فيه .. وهمست زوجتى وهى تبصم على خدى بشفتيها ، كأنها توقع على امضائها حتى لا اضيع منها :

ــ خليك عاقل يا محمد .. اوع تخوننى !

قلت وانا اشد نفسى منها :

ــ ياشيخه حرام عليكى .. انا رايح اشتغل واللا رايح العب .

وما كدت أجتاز باب الجمرك ، وادخل الى مهبط الطائرات .. حتى تنهدت فى راحة ، وحرية .. شعرت بحريتى كلها تهجم علىّ ، وتملأ قلبى .. الحرية .. الحرية .. ما احلاها عيشة الحرية .. وبحركة سريعة مددت يدى وخلعت دبلة الزواج من اصبعى ، كأنى أنزع آخر قيد من قيود الحرية ..

انى الآن لست متزوجا .. ليس فى اصبعى دبلة زواج ..

ان بنات السويد سيطمئنن الى ، وسيزداد تهافتهن علىّ ، وكل منهن تحلم بأن تتزوج من الشاب الأسمر ، ذى الشعر المكركت .. وصعدت الطائرة ، واصبعى حر طليق من دبلة الزواج .. ورأسى حر طليق من ذكرى زوجتى .. نسيتها .. انى ابدأ فى هـذه الساعة حياة جديدة .. حياة لم تسبقها ذكريات ، ولم يخدشها الزواج ! .. وما كادت المضيفة تدلنى على مقعدى .. حتى كدت اصرخ من الفرحة .. ان المقعد الذى بجانبى تحتله فتاة .. يا الله

.. ما اجملها .. انها اجمل من النقشطة المغموسة فى مربة الورد .. كأن بنات السويد لم يطقن انتظارى حتى أصل اليهن ، فارسلن مندوبة عنهن ..

واستجمعت كل مواهبى ، واشعلت كل ذكائى ، وحركت كل خفة دمى ، والتفت اليها وعيناى تبرقان كأنهما مرآتان ازغللها بهما ، وقلت لها بفرنسيتى الأنيقة :

— الآنسة من السويد ؟

وضحكت ضحكة صغيرة رنانة ، واجابت :

— لا .. من الدانمرك ، من كوبنهاجن !

قلت :

— هل كنت فى القاهرة ؟

قالت :

— نعم .. قضيت فيها اسبوعا ممتعا ..

وقلت وانا انظر الى جدائلها الذهبية :

— عجيبة !

قالت :

— ما هو العجيب ؟

قلت :

— ان تقضى فى القاهرة اسبوعا ولا اراك ..

قالت وهى تبتسم :

— لو كنت حمّارا لرايتنى .. فقد كنت كل يوم اركب الحمار فى صحراء الهرم !

وابتسمت .. انها لا تقصد أهانتى .. وهى لا تعرف أن كلمة « حمار » بتشديد الميم — لها معنى الاهانة .. ان الحمّار فى الدانمرك لا يقل احتراما عن رئيس مجلس الوزراء .. انهم هناك شعب مثقف ، ليسوا مثلنا .. واستطرد بيننا الحديث .. وانا طول

الوقت افكر كيف أصل اليها .. وكان يجب ان افكر بسرعة .. وكان يجب أن اكون جريئا .. فان هذه المغامرات التى تتم اثناء الرحلات تتطلب ذكاء وجراة .. وسرعة قبل أن يفوت الوقت .. قبل أن تهبط بنا الطائرة ، وتختفى عن عينى ..

وبدأت بالحديث عن نفسى .. قلت لها انى شاب غنى .. مليونير .. وانى املك خمسمائة فدان .. وحمدت الله لأنها لم تكن تعلم أن عندنا قانونا يحدد الملكية الزراعية .. واخذت اغالى فى وصف ثروتى ونفوذى ، وفى وصف ليالى الشرق التى اعيش فيها .. جعلت من نفسى بطلا لحياة مثيرة رائعة ، واقتبست صورها من قصة « ابن الشيخ » التى مثلها رودلف فالنتينو .. ثم حدثتها عن وحدتى .. ان كل هذا الثراء لا يساوى شيئا ، لانى وحيد .. لم اجد الحب .. ولم اجد المرأة التى تملأ حياتى ..

وكانت تستمع الىّ وهى مبهورة الأنفاس ، وقالت وهى تكاد تهمس :

— ليتنى قابلتك فى القاهرة ..

قلت :

— ان الفرصة لم تضع .. ستأتين معى الى استكهولم ، وتبقى هناك الى أن انتهى من المؤتمر ثم نعود سويا الى القاهرة ..

قالت :

— يا ريت .. لا استطيع ! .

ولم أكن استطيع ان ايأس .. انها جميلة .. اجمل من كل ما تخيلته عن بنات استكهولم ، ثم انى أومن بأن عصفورا فى الطائرة خير من عشرة فى استكهولم .. ولن ادع هذا العصفور يفلت من يدى .. وعدت ألح ، وقلت لها :

— ان كوبنهاجن لا تبعد عن استكهولم الا مسافة نصف ساعة ، ستأتين معى ، ثم نعود سويا الى كوبنهاجن لزيارة اهلك . ومن هناك نطير الى القاهرة ..

وعادت تقول :

ـ يا ريت .. لا استطيع !

وعدت الح .. وقلت :

ـ انك لن تتكلفى شيئا .. ستكونين فى ضيافتى ..

قالت :

ـ يا ريت .. لا استطيع !

وعدت الح ..

ولم اكن أدرى بالضبط ماذا سأفعل اذا افلح الحاحى .. فأنا لا استطيع ان ادعوها للاقامة فى استكهولم .. ليس معى نقود تكفينى وتكفيها .. وليس معى ما يكفى لاشترى لها تذكرة الطائرة . بل انى لا استطيع ان اربط نفسى بها أثناء انعقاد المؤتمر .. ولكن كل هذا لم يكن يهمنى .. كل ما كان يهمنى هو ان اكون معها على ارض .. فى غرفة تجمعنا .. أن اشعر بلذة المغامرة ..

وتماديت فى الحاحى ، وقلت لها فجأة ، وكانت الطائرة تحلق فوق سماء الدانمرك :

ـ اسمعى .. انى احبك .. انى احبك .. احببتك من اول نظرة .. الم تسمعى عن الحب من اول نظرة .. لقد حدث .. وانى مستعد لكل شىء ، الا ان تتركينى وتختفى من حياتى ..

ونظرت الى فى دهشة ، وقالت :

ـ هل تتكلم جد ؟

قلت :

ـ جد جدا ..

وقالت فجأة كأنها تسكب على رأسى جردلا من الماء البارد :

ـ ولكنك متزوج ..

وارتبكت .. وربما احمر وجهى .. وقلت ولسانى يلتوى بين شفتى :

ـ متزوج .. متزوج . من قال لك انى متزوج ؟

قالت :

ـ لم يقل لى احد .. ولكن انظر الى اصبعك ، ان الدبلة مرسومة فوق جلدك الأسمر .. لابد انك خلعتها قبل ان تركب الطائرة ؟

ونظرت الى اصبعى .. ان الدبلة مرسومة فوقه .. واضحة .. تشق جلدى .. كأنى لم اخلعها ابدا ..

وتجمدت .. واحنيت رأسى ، ولم استطع ان استطرد فى الكلام .. وخيل الى ان الفتاة تبتسم ساخرة منى .. ثم خيل الى كأنى اسمع صوت زوجتى وهى تضحك .. تضحك بصوت عال .. ثم تخرج لى لسانها تؤكد لى اننى لن استطيع أبدا ان اكون حرا .. ان القيد مرسوم على جلدى .. انى موصوم بوصمة العبد .. وصمة فوق أصبعى ..

ونزلت الفتاة من الطائرة فى كوبنهاجن ، وقالت وهى تصافحنى :

ـ ارجو أن اراك فى المرة القادمة عندما ازور القاهرة .. تحياتى الى زوجتك !

ورددت تحيتها فى برود ..

ثم اخذت أبحلق فى أصبعى .. أبحلق فى علامة الدبلة .. ثم افرك فوقها بيدى لعلها تزول .. ولكن مستحيل .. انها علامة ستبقى معى دائما .. ستبقى معى فى استكهولم .. ووصلت الى استكهولم وأنا مصاب بانهيار نفسى ..

اتدرى ؟ ..

لقد قضيت هناك خمسة عشر يوما لم اتعرف خلالها بفتاة .. ولم تكن لى اية مغامرة .. وانهمكت فى اعمال المؤتمر .. ودبلة زوجتى فى أصبعى ..

الـكبرياء والـزوج

أخى يكبرنى بثلاث سنوات ..

انك لا تدرى كم أحب اخى .. أو كم اثق به .. انه اجمل الفتيان .. اقوى الفتيان .. اعقل الفتيان .. لم يكن لى ــ حتى سن السادسة عشرة ــ احد غيره افخر به .. واغار عليـه .. واقول له أسرارى ، ويقول لى أسراره .. انه اخى ، وصديقى ، ورجلى .

وصديقاتى البنات يحسدننى عليه .. بعضهن يتمنينه اخا لهن .. واغلبهن يقعن فى حبه ..

وهو متعال .. ينظر اليهن من فوق انفه .. كأنه اله صغير .. انه دائما « تقيل » وانا فرحة فخورة بأنه « تقيل » ..

ثم اكتشفت ان اعز صديقاتى قد وقعت ..

وقعت فى حبه .. انها تحبه حقا ..

ولكنه متعال .. تقيل !!

وكانت تأتى الىّ وتجلس معى فى حجرتى .. وأحس بحبها يفيض من قلبها ويملأ علىّ الحجرة ، ثم تبكى .. تبكى حبها المحروم .. ودمعها يمزق قلبى .. انها لا تريد منه شيئا .. كل ما تريده ان يبتسم لها .. أن يقول لها كلمة حلوة .. ان يرعى حبها .. لعله يحبها ..

ولكنه .. تقيل ! ..

وذهبت اليه غاضبة ، وقلت له :

ــ حرام عليك .. دى بتحبك .. بتحبك بصحيح !

وهز كتفيه بلا مبالاة ، وقال ساخرا :

ــ ما تصدقيش .. مافيش بنات بتحب ، كلهم عايزين يتجوزوا .. بيبتدوا الأول بحكاية الحب ، لغاية الشاب ما يصدق .. وبعدين بيجى يكلمها فى التليفون تقول له .. لا .. ماما تموتنى .. بيجى يمسك ايديها .. تقول له .. لا .. ضميرى يعذبنى .. وتفضل تشاغله ، وتتمنع ، لغاية ما يتجنن ويتجوزها .. وانا مش ناوى اتجنن ، ولا ناوى اتجوز ..

ونظرت اليه فى دهشة .. ربما فى غباء .. كانت هذه هى المرة الأولى التى اسمع فيها هذا المنطق .. هذه النظرية .. ولم افهمها .. لم افهم ماذا يقصد اخى .. ولكنى احسست انه يعنى ان الزواج ليس سوى جريمة ترتكبها الفتاة فى حق الشاب .. جريمة نصب .. وخداع .. واحتيال ..

وسألته وانا الهث :

ــ يعنى ما فيش حاجه اسمها حب ؟

قال ببساطة :

ــ ما اعرفش .. اللى اعرفه ان كل بنت مش عايزه حاجه الا الجواز .. وانا مش عايز اتجوز ..

وعدت الى صديقتى مبلمة ، قلبى مقبوض ..

و .. ودعك من اخى الآن ..

لقد بدأت من يومها اتباعد ــ دون ارادة منى ــ عن الشبان .. كل الشبان الذين تعودت ان احادثهم فى براءة ، وابتسم لهم بلا قصد ، والتقى بهم فى مجموعة الأصدقاء .. اصبحت لا احادث أحدا منهم .. واضم شفتى حتى لا تنطلق من بينهما ابتسامة لأحدهم .. واهرب بنظراتى حتى لا تقع على وجه من وجوههم .. اصبحت اخشى اذا نظرت لأحد او ابتسمت له ، او حادثته ، فربما ظن انى اتملقه لأنى اريد منه شيئا .. لأنى اريد أن أتزوجه .. وتثور كرامتى .. انى لا اريد شيئا من كل شبان الدنيا .. انى اكبر وأسمى من ان اريد شيئا .. ويجب ان يفهموا ذلك .. يجب ان

يفهموا ذلك .. يجب ان يفهموا انى لست كبقية البنات اللاتى يضعن الخطط ليصطدن زوجا ! ..

واصبحت كأخى .. ثقيلة !!

وقيل عنى انى باردة .. متكبرة .. معقدة .. وانى لست ثقيلة .. ولكن دمى هو الثقيل !!

وابتعد عنى الشبان ..

كنت اراهم مع البنات ، يضحكون .. وليس معى احد !

ولكن ، لا يهم ..

لا يهمنى احد منهم ، كل ما يهمنى ان يفهم كل منهم انى لا اريد منه شيئا .. لا اريد ان اخدعه بابتسامة ، او بكلمة ، حتى يتزوجنى ..

ثم .. قابلت حبيبى ..

لقد رايت فى عينيه ما لم اره فى اى عين ، واحسست فى لمسة يده وهو يصافحنى ، ما لم احسه فى اى يد ..

وقد قابلته فى احد مجتمعاتنا العائلية .. وحاولت ان التقى بعينيه مرة اخرى ، ولكنى لم استطع .. صدقنى لم استطع .. تحكمت فى كبريائى .. كبريائى الكاذبة .. وغلبنى خوفى من ان اشعره باهتمامى ، فيظن انى اريد ان اخدعه .. كما يحاول البنات خداع اخى ليتزوج ..

وعدت الى البيت مشغولة به ..

ليالى طويلة شغلت به ..

ثم وجدت نفسى أسعى لالقاه فى محيط المجتمع العائلى وما كدت القاه حتى غلبتنى كبريائى مرة ثانية .. وادرت له كتفى .. وكأنه ليس هنا .. كأنه ليس بجانبى .. حبيبى ! .. واعود الى البيت مشغولة به ..

ولقيته اكثر من مرة .. واعود دائما مشغولة به !

ثم لم اعد استطيع ان اكذب على نفسى ..

انى احبه ..

وعندما اعترفت بهذه الحقيقة ، فكأننى فتحت سداد قمقم فى صدرى ، انطلقت منه ابخرة الحب قوية ، عطرة ، تملؤنى .. تملأ عينى .. وتملأ وجنتى .. وتملأ عقلى .. وتملأ قلبى ..

كيف أبوح له بهذا الحب .. بكل هذا الحب الكبير ؟ لا أدرى .

انى اخشى ان اضع عينى فى عينيه .. اخشى ان ابتسم له .. اخشى أن أزيد حديثى كلمة .. اخشى كبريائى الكاذبة .. اخشى ان يظن انى اريد منه شيئا .. اخشى لو قلت له .. احبك .. فلن يصدقنى .. سيظن انى انصب عليه حتى يتزوجنى .. اخى لم يصدق البنت التى احبته !!

ولكن .. هل يحبنى كما احبه ؟ ربما ..

انى اجده دائما فى طريقى .. كأنه يعرف مواعيد ذهابى الى النادى .. كأنه يعرف مواعيد ذهابى الى السينما .. كأنه يعرف متى أذهب الى المجتمع العائلى الذى يضمنا .. ودائما ارى — فى لمحة سريعة — نفس النظرة التى رايتها فى عينيه اول مرة .. ونفس الابتسامة التى التقيت بها أول مرة .. ودائما ادير عنه عينى سريعا .. وادير وجهى .. وادير كتفى .. ثم أبقى شاردة الذهن .. اخوض معركة عنيفة بينى وبين كبريائى الكاذبة .. احاول أن اغلب هذه الكبرياء فتغلبنى .. احاول ان التفت اليه لعله يرى حبى فى عينى ، فلا استطيع ..

انه يحبنى .. قطعا ، يحبنى .. ولكن .. الى متى يستطيع ان يحمل حبى ..

لعله ييأس ، كما يئس الذين قبله ، والذين اتهمونى بأنى باردة ، متكبرة ، معقدة ..

وعشت فى خوف من يأسه ..

عشت وانا ادعو كل مساء . وكل صباح ، الا ييأس من حبى ، الى ان يهدينى الله اليه ، ويهديه الىّ . .
ولم ييأس . . انه ليس كالآخرين . . لا ييأس . .

★★★

وخطا نحوى الخطوة الاولى . . خطاها بعد سبعة شهور !
وكنت جالسة فى النادى ، مع صديقتى . . اعز صديقاتى . .
وكنت أعلم انه بجانبى ، على مائدة اخرى . . وراسى منكس بين يدى . . ولقد ادرت كتفى اليه . . ثم فجاة رايت ساقين يقفان امامى . . انهما ساقاه . . انى اعرف انهما ساقاه . . ورفعت راسى . . والتقيت بعينيه ، وابتسامته . . وارتعشت . . ارتعش كل ما بداخلى . .
وصافحنى . . وسرت لمسته حتى طرف اصبع قدمى . .
ولم يتكلم . . وضع فى يدى رسالة . . وابتعد !
وطويت كفى على الرسالة ، وكل ما بداخلى لا يزال يرتعش . . والدماء الساخنة تملأ وجنتى . . وتملأ راسى . .
وقمت من جلستى ، وانا لا أحس بنفسى . . وقامت معى صديقتى ، وهى تهمس :
— رايحه فين . . ما تفتحى الجواب . .
ولم ارد عليها . .
سرت كالمذهولة . . والدماء الساخنة تملؤنى . . وركبنا سيارة اجرة عدنا بها الى البيت . . وطوال الطريق وانا لا زلت مذهولة . . لا أتكلم . . ارتعش . . ساخنة . . لابد أن درجة حرارتى اربعون !
ودخلت حجرتى ومعى صديقتى ، واغلقت الباب ورائى . . بالمفتاح ! . .
وانتظرت برهة لاسترد انفاسى اللاهثة . . لافيق من ذهولى . .
وقرات . . انه يحبنى . . يحبنى جدا . . انه لم ييأس . .

ولكنه لم يعد يستطيع الانتظار . . وهو يريد منى ان اقول له : هل اقبل ان اتزوجه . . كلمة واحدة ، ويذهب الى ابى ليخطبنى منه . .
وصرخت من الفرحة . . وقمت انطط فى حجرتى . . واقفز فوق السرير كالأطفال الصغار . .
وصديقتى تهلل معى . . وتصرخ معى . .

★★★

ثم فجأة . . انتابنى الصمت . .
فكرت قليلا . . لا لم افكر . . ولكن شيئا فى داخلى انتصر علىّ . . انتصر على حبى . . وهزمنى !
واذا بى أمزق الرسالة . . وأمزقها فى غيظ . . وبين شفتى ابتسامة مجنونة !
وصرخت صديقتى .
— بتعملى ايه يا مجنونه !
قلت . . انا المجنونة :
— انتى عارفة هو بعت لى الجواب ده ليه . . علشان يتأكد اذا كنت انا باحبه ، والا اذا كنت عايزه اتجوزه . . لو جاوبت عليه وقلت له انى موافقه على الجواز . . حايضحك . . حايعرف انى زى بقية البنات . . بتاعة جواز . .
ثم صرخت : لازم يعرف انى باحبه من غير غرض . . لازم يعرف انى باحبه صحيح . . باحبه للحب . . مش للجواز . . واذا ما عرفش كده عنه ما عرف . . كفايه علىّ انه يحترمنى . . وانه يعرف انى مش زى بقية البنات . . أجرى ورا الشبان علشان خاطر الجواز ! . .
ويئست صديقتى من اقناعى . .
ويئست من اقناع نفسى . . ولم أرد عليه . .
اتدرى كم مر من الزمن بعد ذلك . . ثلاث سنوات . . ثلاث

سنوات وانا احبه .. واتعذب .. اتعذب بحبه وبحيرتي .. وبغبائي .. لم استطع خلال هذه السنوات ان افهم معنى الحب والزواج .. لم استطع ان افهم ان الحب هو الزواج .. وكبريائي الكاذبة العنيدة ، تصور لي ان الحب شيء لا يقترن بشيء حتى بالزواج .. والا اصبح نوعا من الخداع والضحك على عقول الشبان ، وفخا للزواج ..

ثم لا اجد الحل .. لا اجد الحل لحبي .. واتعذب ..

واراه .. وارى نظرته وابتسامته .. واحترامه .. فأتعذب .. واتعذب اكثر باحترامه .. ثم .. تزوجت ..

★★★

جاءني ابي بعريس .. ليس فيه عيب .. وليس فيه حب .. وقبلته ..

واعلنت خطوبتنا .. وبعد اعلان خطوبتنا .. خطر على ذهني خاطر غريب .. حاولت أن ابعده .. ولكني لم استطع .. ان الخاطر يكبر .. حتى يصبح الخاطر املا .. ويكبر اكثر حتى يصبح حقيقة مجسمة في خيالي ..

وانتظرت عن عمد الى ان عقد قراني ..

تزوجت .. وبمجرد أن تزوجت ، تنهدت في راحة ..

الآن لن يستطيع حبيبي ان يشك في حبي .. لعله الآن يصدق اني احبه بلا غرض .. بلا خديعة .. بلا زواج ..

وفي « الصبحية » .. صبحية زفافي .. أمسكت بالتليفون وحادثته ..

حادثته طويلا .. قلت له كل شيء .. قلت له كم احببته .. كم تعذبت في حبه .. وكم قاومت حتى يؤمن اني احبه بلا غرض .. واني لست كبقية البنات .. بتاعة جواز .. قلت له كل شيء .. وكرامتي لا تثور .. ولا تصدني .. كرامتي نامت .. ارتاحت .. اني الآن مطمئنة عندما اقول له احبك .. فلا اعني الا الحب ..

و .. وذهبت اليه .. وذهبت .. وذهبت .. واعطيته .. كل ما يريد .. كل ما اريد .. واكثر مما يريد .. واكثر مما اريد .. بلا ثمن .. بلا زواج .. للحب فقط !!

ولا زلت اذهب اليه .. ولا زلت اعطيه .. بلا ثمن ..

هل انا سعيدة .. ؟

لا .. انا شقية .. انا معذبة .. انا مسكينة ..

اتدرى لماذا ؟ لانه لم يعد يحدثني عن الزواج ..

لم يعد يريد أن يتزوجني ..

انه الآن مكتف بالحب ..

وانا .. انا لم اعد اكتفي بالحب .. ان الحب لا يمكن ان يجعل مني زوجة خائنة .. الحب يجب أن يجعل مني زوجة مخلصة .. ولن اكون مخلصة الا اذا تزوجت حبيبي .. وهو لا يتحدث عن الزواج ..

وكبريائي الكاذبة لا تزال تمنعني من ان اتحدث عن الزواج .. اخاف على حبي من حديث الزواج !

اخي قال لي .. ان الحب مصيدة الزواج !

أخـــتى

عينت بعد أن نلت ليسانس الحقوق فى وظيفة معاون نيابة بمركز « ... » واعفونى من ذكر اسم المركز ، فان قصتى هناك لا تزال معروفة ، ولا يزال الأهالى يتندرون بهـــا .. ولعلهم يضحكون .. رغم انى تركت المركز منذ عشر سنوات !

وقد أقبلت على وظيفتى بعد أن رسمت لنفسى صورة معينة ابدو بها امام اهالى المركز .. صورة تحمل كل هيبة رجال النيابة ، ووقارهم .. ولم تكن الهيبة ولا الوقار من طبيعتى .. فأنا انسان بسيط احب المرح ، وأقبل على الحياة ، واضحك كثيرا .. ولكن كان يجب أن أضع لنفسى هذه الصورة .. صورة الهيبة والوقار .. رغم انها تناقض طبيعتى ، حتى استطيع ان أملأ بشخصيتى المقعد الذى أجلس عليه .. مقعد البيه وكيل النيابة !

ومرت الأيام .. وبدأت صورة الهيبة والوقار تهتز ، وتتساقط خطوطها .. بدأت اشعر بالملل .. والفراغ والحرمان .. الحرمان وانا فى الخامسة والعشرين من عمرى ..

وكنت أقضى أوقات فراغى فى نادى المـــركز ، مع المـــأمور ، ومهندس الرى ، وناظر المدرسة .. وبقية كبار الموظفين المحترمين الوقورين .. ونمزق الساعات فى حديث ممل تافه .. ونكات قديمة .. ولعب الكونكان .. وفى الساعة العاشرة ينصرف الجميع الى بيوتهم .. وكل منهم له زوجة يتدفأ بها ، واولاد يشغلون قلبه .. يشغلونه بالحب والمتاعب .. وانا .. انا اعود وحيـــدا .. لا زوجة اتدفأ بها .. ولا حب .. ولا متاعب .. فراغ .. ملل

.. تكاد روحى تزهق وأنام نوما أرقا فى انتظار ان يطـــل وجه الشاويش عوضين ليبلغنى عن حادث قتل أو سرقة ، انتقل لمعاينته .. وفكرت أن أتزوج .

ان الزواج لموظفى المراكز يصبح ضرورة اضطرارية ، لا رغبة .. يصبح شيئا كحاجته الى الأكل والشرب .. لا حاجتـــه الى الحب ..

ولكنى لا استطيع أن أتزوج .. ان الزوجة التى اقبلها ، لا يمكن أن تعيش معى فى هذا المركز .. ثم انى أكره الزواج .. وحرام أن اربط نفسى بامرأة طول العمر ، لمجرد انى زهقان .. والأيام تمر ..

ولم أستطع أن أحتفظ أكثر من ذلك بهيبتى ووقارى .. والملل .. والفراغ .. والحرمان .. الحرمان القاسى .. وفكرت بعقل محموم مشوش .. وفجأة ، وفى خلال ليلة حرمان قاسية ، اتخذت قرارى ..

سافرت الى الاسكندرية .. وكنت أعرف هناك فتاة .. ليست فتاة .. انها امرأة .. وقد ربطتنى بها منذ سنوات علاقة قوية .. كانت تحبنى ، وكنت أحبها .. وكنا متفقين على نوع هذا الحب .. حب لا يتعدى متعتنا بليلة نقضيها سويا .. وربما كان فى حياتها كثير من الرجال ، ولكنها كانت تفضل دائما ليـــلتى على باقى الليالى ..

واتفقت مع سعدية .. ستأتى لتعيش معى فى المركز ، وسأقول لزملائى ، والموظفين ، وللأهالى ، انها .. أختى ! وقبلت ..

وكنت مطمئنا الى مظهرها .. فهى تبدو دائما سيدة أنيقة محترمة رغم نظراتها الجريئة .. وكنت مطمئنا أيضا الى اخلاصها ، فقد كنت واثقا انها تفضل ليلتى ، على باقى الليالى .. والا لما قبلت أن تأتى معى ..

وعدت بها الى المركز .. واعلنت هناك أن أختى قد جاءت لتعيش معى ..

وتبدد الملل .. والفراغ .. والحرمان .. واستطعت ان استرد الصورة التى رسمتها لنفسى ، لابدو بها أمام الاهالى .. صورة الهيبة والوقار ..

وهنأت نفسى على ذكائى ..

ومرت الأيام .. شهر .. شهران ولم اعد اتصور انى استطيع ان أعيش فى المركز بلا « اختى » !! انها الشىء الوحيد فى المركز الذى يعيننى على الحياة ..

ثم حدث ان تشاجر خادمى مع بقال المركز ، واذا بالبقال يصرخ فى وجهه :

— ما تروح تلم اخت البيه بتاعك اللى دايره من راجل لراجل .. دى ما خلتش راجل ما تمسخرتش معاه !

وثار خادمى ، وهدد البقال بأن يبلغنى ما قاله عن « اختى » حتى أخرب بيته .. وجاء الخادم وأبلغنى ..

وثرت .. ولكنى قبل ان اطلق ثورتى فى وجه البقال ، بدات افكر ..

هل يمكن ان تكون سعدية قد فعلت هذا .. انى اعرف ان فى اعماقها امراة لعوبا ، ولكنى كنت دائما استطيع ان ارضى هذه اللعوب .. وكنت واثقا انها تفضل ليلتى على باقى الليالى .. وأنا اقضى معها كل ليلة .. فما حاجتها الى ليالى اخرى .. الى رجال آخرين !

وبدات اتذكر اشياء لم تكن تستوقف تفكيرى .. نظرات المأمور الىّ ، وابتسامته المخبأة تحت شفتيه .. ابتسامة الاستهانة .. وتودد ضابط المباحث الىّ اكثر من اللازم .. والنظرات الشذرة التى يطلقها علىّ ناظر المدرسة .. ثم اهتمام الجميع بزيارتى فى بيتى .. و « اختى » تجلس معنا .. واليوم الذى عدت فيه من عملى والتقيت بضابط المباحث خارجا من الشارع الذى يقع فيه بيتى .. لقد استغربت يومها ، ولكنى لم اشك .. و .. و ..

وتبينت فجأة انى كنت أعيش وسط سيل من الهمسات .. همسات مسمومة .. لم تتفتح لها أذناى الا الآن ، عندما فتح البقال عينى على دنيا الشكوك ..

واحسست بشعور غريب ..

لم اشعر بالغيرة على سعدية ..

ولكنى شعرت بالغيرة على اختى ..

ان اختى لا يمكن ان تفعل هـذا .. اختى ليست مومسا .. اختى ليست سعدية !!

وكتمت ثورتى .. وغيرتى .. والنار المندلعة فى رأسى .. يجب أن اتصرف فى هدوء ..

انى لا أستطيع ان اخرج الى الناس واقول لهم ان سعدية ليست اختى .. وانها مجرد مومس اتيت بها لتؤنسنى فى وحدتى وتخفف عنى الحرمان .. لا استطيع .. والا تعرضت لمحاكمة تأديبية ، وطردت من سلك النيابة ..

ان كل ما استطيع ان افعله هو ان اتخلص من سعدية .. فى هدوء ! ..

ولم اترك لها فرصة للدفاع عن نفسها ، انما تسللت بها ذات صباح ، واعدتها الى الاسكندرية ..

ثم عدت الى المركز وانا احاول ان اتظاهر بأن شيئا لم يحدث ولكن اختفاء سعدية المفاجىء اطلق الهمسات اكثر حدة ، وأعلى ضجيجا .. ان البيه وكيل النيابة قد اكتشف سوء سلوك اخته . فأعادها الى الاسكندرية ..

انها ليست اختى ..

يجب أن تفهموا انها ليست اختى ..

انها امرأة اتيت بها لتؤنسنى فى وحدتى ..

ولكن الهمسات تشتد .. أكاد أسمعها بأذنى .. اسمعها من عيون الناس ، وفوق السنتهم ..

وخرج خادمى ولم يعد .. انه لا يطيق مواجهة اهل البلدة وهم يتحدثون عن أختى ..

— انها ليست اختى ..

يجب أن تفهموا انها ليست اختى ..

ولم اعد استطيع ان احتمل هذه الطعنات التى توجه الى اختى .. الى شرفى .. الى كيانى .. وانحنيت على صديقى المأمور وهمست فى اذنه وانا احاول ان اقنعه بأنى شاب له مغامرات :

— تعرف ان سعدية دى مش أختى .. دى واحده كنت اعرفها فى اسكندريه ، وجبتها تعيش معايا هنا .. اصل بينى وبينك انا مش واخد على انى اعيش وحدى ..

ونظر الى المأمور وهو يخفى ابتسامته تحت لسانه ، وقال :

— ما تقولش كده يا محمود بيه .. مالها سعديه هانم ؟ دى ست كويسه ، بس مش واخده على عيشة المركز ..

انه لا يريد ان يصدق أن سعدية ليست اختى ..

وانتقلت لأهمس فى أذن ضابط المباحث .. وناظر المدرسة .. ومهندس الزراعة .. ولكن لا احد منهم يريد ان يصدق .. كلهم مصرون على أن سعدية اختى .. وهم يجـاملوننى احيانا ، ويتظاهرون بالتصديق .. ولكنى ألمح السخرية فى عيونهم ..

يا أولاد الكلب .. قلت لكم انها ليست اختى ..

وصياحى يرن فى المركز كله .. فيضحك الأهالى .. ويتندرون بحكاية أختى ..

ولم أعد أطيق ..

وجلست وكتبت مذكرة بالقصة كلها .. بكل تفاصيلها .. اعترفت بكل شىء .. ثم قدمت المذكرة الى رئيس النيابة ، طالبا

نقلى من المركز ، أو فصلى من النيابة .. واستدعانى رئيس النيابة ..

وذهبت اليه وانا ارتعش من هول الموقف .. ولكنه استقبلنى بابتسامة كبيرة ، وقال لى فى لهجة حنان ثقيل مفتعل :

— ايه الكلام اللى إنت كاتبه ده يا أستاذ محمود .. انا بلغتنى الحكايه كلها .. وافرض يا سيدى ان اختك غلطت .. وماله .. كل البنات بيغلطوا . .هو حد اليومين دول عارف يربى بنته والا أخته .. انا حا اقطع المذكرة بتاعتك .. وعايزك ترجع المركز وتنسى الحكاية خالص ..

انه ايضا لا يصدق ..

لا يصدق انها ليست اختى ..

★★★

وخرجت من مكتبه دون ن أجيبه .. خرجت كالزوبعة .. وكتبت استقالتى .. استقالتى من النيابة ..

وانا اليوم أشتغل بالمحاماة ..

وأرفض كل قضية تأتينى من هذا المركز ..

وشىء آخر ..

انى الى اليوم .. لا أستطيع أن ارفع عينى الى وجه اختى ..

مـكان لشـــاعر

البنات فى دمشق يقران الشعر .. تصوروا !

والشاعر هناك وحده الذى يستطيع ان يلهب عواطف البنات ، ويثير خيالهن ، وينتزع الآهات من قلوبهن .. ربما لانه ليس فى دمشق نجوم سينما .. ليس فيها عمر الشريف ، وشكرى سرحان ، ورشدى اباظة .. ليس فيها الا الشعر .. والنجوم هم الشعراء !

وانا شاعر ..

ولكنى من سوء حظى شاعر أعيش فى القاهرة ..

وبنات القاهرة لا يقران الشعر ..

وسماء القاهرة ليس فيها مكان لنجم من الشعراء ..

وقد ذهبت الى دمشق وانا اجهل قيمة الشعراء هناك .. ذهبت لاعمل مدرسا فى احدى المدارس الابتدائية .. وتعرفت بكثير من الأصدقاء . وبدات اترنم أمامهم بأشعارى .. فاذا بهم يصفقون ويتمايلون .. ويستعيدون كل بيت عدة مرات .. واعتقدت انهم مجاملون وانهم يبالغون فى مجاملتهم لى لانى ضـيف عليهم من القاهرة .. وحمدت لهم فضيلة المجاملة .. انهم خير من اصدقائى فى القاهرة الذين لا يكادون يسمعون شعرى حتى يصرخون .. كفايه فقهنه يا أخينا .. ثم يديرون اسطوانة : « يا امه القمر ع الباب » ..

ولكنى اكتشفت مع الأيام أن اصدقائى فى دمشق لا يجاملوننى .. انهم مغرمون بشعرى فعلا . ويسعون ورائى ليستمعوا الى مزيد منه .

شكرا يا رب .. لابد أنى وقعت على هؤلاء الأصدقاء بالصدفة .. الصدفة الجميلة ، التى جعلتنى انفس عن اشعارى المكبوتة فى صدرى منذ عشرات السنين .. قصائد كالأولاد اليتامى احملها فى ملجأ من جـرانحى ، ولا أجد احـدا يرعاها أو يشـفق عليها أو يحتضنها فى أذنيه ..

شكرا يا رب ..

وكان ربى اكرم مما أعتقدت ..

فقد اتسعت دائرة اصدقائى .. وكلهم يقبلون علىّ كشاعر لا كمدرس .. كلهم ينظرون الىّ كفنان ملهم .. كانسان متمـيز وليس مجرد مدرس فى مدرسة ابتدائية .. و .. وحدث شىء اكبر من خيالى ..

لقد جاء الى مندوب احدى الصحف وطلب منى احدى قصائدى لينشرها .

مستحيل .. ان الجرائد لا تنشر عندنا القصائد الا اذا لحنها عبد الوهاب .. تنشرها اكراما لعبد الوهاب لا للشـاعر .. وعبد الوهاب لم يلحن قصيدتى .. فلماذا يريدون نشرها ؟ !

ونظرت الى الاستاذ الصحفى فى بلاهة ، كأنى لا أصدقه .. بل انى فعلا لم أكن اصدقه ..

ولكنه ألح ، ودلائل الاهتمام تملأ وجهه ..

وأعطيته قصيدتى ، وانا لا زلت لا اصدق ..

ووجدتها فى اليوم التالى ..

وجدتها منشورة ..

لا فى مجلة أسبوعية .. لكن فى جريدة يومية .. وفى صفحة كاملة .. ومعها صورتى ! واحسست بنفسى انسانا آخر ..

احسست كأن قامتى قد طالت .. وأن خطواتى اصبحت اقوى

.. بدات اعترف لنفسى بما كنت أنكره عليها .. أعترف بأنى عبقرى .. وانى نجم ..

ثم ..

دعيت لالقاء قصائدى فى نادى الأدب العربى ..

وذهبت ..

يا الله .. كل هؤلاء جاءوا من اجلى ! انهم اكثر من الف .. كأنها حفلة اضواء المدينة .. كأن شادية ستغنى : حبيبى اهه .. !

ونظرت الى الناس نظرات مرتبكة ، والرهبة تملأ صدرى .

ان بينهن بنات ..

لماذا جاءت البنات .. هل جئن لسماع الشعر ؟ ان البنات عندنا فى القاهرة لا يسمعن الشعر .. ولا يفهمنه ..

لماذا جئن ؟ .. لا ادرى .. لا ادرى ..

وبدات القى قصيدتى وصوتى يرتعش .. كلى أرتعش .. ودوى التصفيق وانا لم اصل الى البيت الخامس .. واستعادونى واستمر التصفيق ، والاستعادة .. ان البنات أيضا يصفقن ! .

وبعد أن انتهيت من القاء القصيدة تقدمت منى فتاة ، ومدت لى يدها بورقة وقلم تطلب توقيعى .. توقيعى أنا .. انا .. انا لا اذكر أنى وقعت الا على كراريس الطلبة .. وآخر مرة وقعت فيها قبل ان احضر الى دمشق كانت على ايصال برهن ساعتى الذهبية .. ولكن هذه الفتاة تطلب توقيعى لتحتفظ به اعجابا بفنى .. كأنى عمر الشريف ، أو احمد رمزى .. او رشدى أباظة !

ووقعت لها بيد مرتعشة ، وأنا أسمعها تقول لى :

ــ بديع يا أستاذ .. رائع .. ملتهب ..

ونظرت الى نظرة سريعة .. انها جميلة .. صغيرة .. والعينان خضراوان .. و .. ولم أستطع أن أنظر اكثر من ذلك ،

غلبنى ارتباكى وحيائى .. ولكنها عندما استدارت لى ، بدأت أنظر اليها من جديد .. وقلبى ينخلع ..

وعدت الى بيتى ، وأنا اكاد أطير .. انى لا اصدق انى هذا الرجل الذى يلتف حوله الف من البشر ليستمعوا الى شعره .. وتطلب فتاة توقيعه ..

ولم استطع النوم ..

ان الدنيا أحلى من ان ننام فيها ..

وبعد أيام ذهبت الى جامعة دمشق فى زيارة صديق لى .. ورأيتها .. نفس الفتاة .. ورأتنى .. وجاءت الىّ تصافحنى وهى تصيح مهللة :

ــ اهلا يا أستاذ ..

يا روح الأستاذ ، يا عقل الأستاذ ، يا ليل الأستاذ ، يا نهار الأستاذ .. آه لو تعلمين ماذا فعلت بالأستاذ .. و .

ولكنى تذكرت انى عبقرى .. وانى نجم .. فكتمت كل هذه المناجاة فى صدرى ، وصافحتها فى وقار .. وقار العباقرة !

وقالت لى انها قرأت كل ما عثرت عليه من شعرى .. وبدأت تناقشنى فيه .. لا .. لم تكن تناقشنى .. كانت تذوب فى كل بيت قرأته لى .. وتحترق مع كل آهة أصورها شعرا .. ان الفتاة الوحيدة التى تناقشنى فى شعرى وانا فى القاهرة كانت طالبة فى القسم العربى بكلية الآداب .. فوق عينيها نظارات سميكة .. وكانت تناقشنى كأنها تنازلت وتعطفت واضاعت وقتها فى قراءة شعرى .. ثم كانت تهدم بلسانها كل بيت تكتبه ، انها لا تفهم فى الشعر ، انها فقط تراجع دروس النقد التى تلقتها فى الكلية .. ولكن هذه الفتــاة ، فتاة دمشق .. انها تفهم الشــعر .. تفهمه بعواطفها وتذوب فيه ..

واتفقنا على ان نلتقى ..

وصدقنى .. انها المرة الأولى التى التقى فيها بفتاة ..

ولقاؤنا كله شعر .. انها تردد اشعارى .. وتتغزل فيها .. وتجلس بجانبى كأنها تجلس بجانب العبقرى .. الفنان .. الشاعر الخالد ..

واصبحت لا أعيش الا لألقاها ..

انى احبها .. احبها ..

انها وحى شعرى .. ووقود فنى .. وشارة عبقريتى !

انها ثقتى بنفسى ..

وقد زادت ثقتى بنفسى .. أصبحت لا اجلس الا وساق فوق ساق .. وأصبحت احتقر مهنتى كمدرس .. واحتقر تلاميذى ، وأتصرف تصرفات الفنانين .. انكش شعرى .. واسرح بعينى ، واعطى لنفسى الحق فى أن اكون قليل الأدب !

واعلنت ليلى بحبى .. واعلنتنى بحبها ..

وبدأنا نرسم معا صورا جميلة لمستقبل جميل ..

وليلى تفخر بى .. وتفخر بحبى .. وتذيعه بين صديقاتها .. وتتحدث به فى الجامعة ..

والجرائد تنشر صورى ..

واسير فى الشارع فيشير الىّ الناس ويسيرون ورائى ..

ودق جرس التليفون فى بيتى .. انها فتاة تردد اشعارى ، وتتمنى أن ترانى .. فتاة اخرى .. ليست ليلى وحدها اذن !

والتقيت بالفتاة الأخرى ..

ثم اذا بى اكتشف عالما كاملا من البنات .. جميلات .. اجمل من ليلى بكثير ، وكلهن يرددن اشعارى .. كلهن يلتقطن كل كلمة أنطق كأنهن يشربنها .. وكلهن يهبننى قلوبهن .. يعبدننى .. يحترقن فى معبد فنى وعبقريتى ..!

وبدا حبى لليلى ينكمش ..

ربما لم أحبها ابدا ..

ربما لم يكن من حق الفنان ان يقصر عواطفه على بنت واحدة ، حتى لا يخيب أمل بقية البنات ..

وبدأت اهرب من ليلى .. وأخذت ليلى تطاردنى .. تبكى وتتوسل الىّ ، بحق امسياتنا معا .. بحق الشعر الذى قلته غزلا فى عينيها ..

ولكن لا .. لا يا صغيرتى .. انى لا استطيع ان أخيب امل بقية البنات ..

وبدأت أردد قول عبد الحليم حافظ : « انا لا أحب احدا بالذات .. ولكنى احب فنى » !!

انى عبقرى .. وليس بينى وبين عبد الحليم حافظ فرق ، واظنه لا يغضب اذا اقتبست كلمة من كلماته الخالدة !

وعشت فى عالم البنات .. وأنا أكبر حتى اكاد افرقع !

ثم .. كان يجب أن أعود الى القاهرة .. لقد انتهى عملى فى دمشق ..

وعدت .. وعدت فنانا كبيرا مشهورا ، تحبه البنات ، ويلهب عواطفهن بأشعاره ، ويثير خيالهن ، وينتزع الآهات من قلوبهن ..

واعتكفت فى بيتى وكتبت قصيدة جديدة .. ثم خرجت الى أصدقائى لأقرأها لهم .. وما كدت أصل الى البيت الثانى حتى صاح واحد منهم .. بلاش فقهنه يا أخينا .. ثم أدار اسطوانة « يا امه القمر ع الباب » !

لابد انى ظلمت بهؤلاء الأصدقاء ..

ولكننى لا اجد اصدقاء غيرهم .. وامشى فى الشارع ولا احد يعرفنى ..

وارسل قصيدتى الى الصحف فلا تنشر .. ومجلة روز اليوسف نشرت بيتين منها فى صفحة همسات القراء ..

والبنات .. اين البنات ؟

ووقفت فى نافذتى ، وأشرت الى جارتى ، وبدأت انشـــد لها قصيدتى فاذا بها تصرخ :

ــ يا اخينا ما تتكلم عدل .. ايه التخريف اللى بتقوله ده !

لا .. لا .. ليس فى القاهرة مكان لشاعر .. ليس فى سمائها الا نجوم السينما .. اريد ان اعود الى دمشق .. بلد الفنانين .. بلد الشعراء .. ولكننى لا استطيع ان اعود .. ظروف حياتى تمنعنى من العودة ..

وارسلت الى ليلى خطابا أؤكد لها حبى .. انى احبك .. احبك .. تعالى نحقق حلمنا .. تعالى نتزوج واصنعى لى من حبك مكانا استطيع أن اعيش فيه فى القاهرة .. مكانا لشاعر ..

ولم ترد ليلى ..

المقـــامر

أنا مقامر .. مقامر محترف ..

وقد بدأت اقامر وانا فى السادسة عشرة من عمرى .. وكنت أيامها اقيم مع امى واخوتى ، فى الدقى ، والتف حولى بعض الشبان من سكان العمارة ، وعلمونى لعبة « السبعه ونص » ثم لعبة « ٣١ » .. وكنا نلعب بقروش قليلة .. وربحت .. لا ادرى كيف ربحت ؟ ولكنى كنت اربح باستمرار .. وشجعنى الربح على ان العب بمبالغ اكبر .. وانتقلت من على المائدة التى يلتف حولها سكان العمارة .. الى موائد اكبر ، تعقد فى بيوت اولاد الذوات ، واصبحت وانا فى الثامنة عشرة من عمرى العب البوكر ، والبكاراه ، و « البرغوت » واكسب او اخسر خمسين جنيها فى دقيقة واحدة دون ان تهتز شعرة من راسى .. وكنت اربح .. اربح باستمرار .. واكتشفت فى نفسى مواهب المقامر .. فأنا قوى الأعصاب ، بحيث لا يهزنى مكسب او خسارة .. وانا ذكى قوى الملاحظة .. والقمار ليس كله مجرد حظ ، انه اولا ذكاء وقوة ملاحظة .. ثم انى محبوب من اصدقائى .. وأصدقائى هم كل لاعب قمار ، حتى لو لم اكن اعرف اسمه .. فكنت استطيع ان اكسب قلوبهم واخفف من حدة ورهبة الجو الذى يجثم فوق المائدة ، وكنت استطيع فى اى وقت ان اجمع اى عدد من اللاعبين .. بل انى اصبحت اتدلل على اللاعبين ، واختار منهم من اقضى معه ليلتى ، كالفتاة الغندورة عندما تختار بين عشاقها ..

ولكن .. ربما كان اكبر من مؤهلاتى كمقامر ، انى لم اكن املك شيئا اخاف عليه .. لم يكن عندى مال يأخذه منى غيرى .. لقد بدات العب عندما كنت صغيرا ، بخمسة قروش اقترضتها من الصديق الذى يجلس بجانبى .. وتعودت بعد ذلك ان ابدأ اللعب وانا مفلس ، اقترض من اى واحد من اللاعبين أو من المتفرجين . اما الربح الذى اجنيه فى آخر الليل ، فلم يكن يبقى فى يدى الا ريثما تبدأ الليلة التالية .. كنت ابعثر كل ما اربحه بجنون .. كنت كريما متعما .. وكان كل اللاعبين يعرفون عنى هذا .. كانوا يعلمون انى العب للذة اللعب نفسه ، لا لأدخر الارباح واكون منها ثروة .. وهذه هى أول شروط المقامر الأصيل ..

ومرت الأيام وانا العب كل ليلة ، وفى الصباح اعمل صحفيا فى احدى الصحف .. ثم هجرت الصحافة ، وتفرغت للقمار .. فلم اكن صحفيا لامعا ، ولكنى كنت مقامرا لامعا ..

ومع مرور الأيام احترفت القمار ..

واصبحت اعقد الموائد لحسابى ، واحصل لنفسى على قيمة « الجانيوتا » .. وكانت الموائد التى اعقدها هى اغنى الموائد وارقاها .. وزادت ارباحى ، وزاد بذخى .. لو قلت لك انى كنت اكسب فى الشهر الواحد اكثر من الف جنيه ، فانى لا ابالغ ، ورغم ذلك كنت دائما مفلسا .. اصبح عندى سيارة ، وشقة انيقة ، واصبحت ارتدى افخر الثياب ، ولكنى دائما مفلس .. ابدا ليلتى ــ وكل ليلة ــ بالاقتراض من احد اللاعبين او من احد المتفرجين ..

وكنت سعيدا بحياتى .. لم يكن فيها شىء يقلقنى .. حتى بوليس الآداب الذى يتبع المقامرين لم يكن يقلقنى او يخيفنى .. ولم يكن التهرب من البوليس امرا يقتضى منى ادنى تفكير ، فقد كنت اعلم انه بوليس اعجز من ان يصل الى موائد القمار .. مستحيل عليه ان يصل اليها .. فهى تعقد فى بيوت لا يمكن ان

تثير شبهة البوليس ، او يخطر على باله مهاجمتها .. ولو ذكرت لك أسماء العائلات التى كنت اعقد فى بيوتها الموائد الخضراء ، لذعرت .. ورغم ذلك فلم يكن كل اصحاب هذه البيوت من المقامرين .. انما كانوا يؤجرون بيوتهم للقمار .. كنت اتفق مع صاحبة البيت على ان تستضيفنى انا واصدقائى ، نظير عشرة جنيهات ، وأحيانا يرتفع الايجار الى خمسين جنيها ، حسب قيمة العائلة ، وقيمة اللاعبين ، ولم تكن سيدة البيت ترى فى استضافتنا مظهرا يجرحها او يثير حولها الأقاويل ، فهى تستضيف أشخاصا محترمين مهذبين ، رجالا ونساء ، وكل ما هنالك انهم يلعبون فى بيتها « كونشينة » للتسلية .. مجرد التسلية ! .

وهكذا عشت .. مطمئنا .. بعيدا عن البوليس .. سعيدا ..

ولكنى وان كنت سعيدا بحياتى ، فانى لم اكن فخورا بها .. كان هناك دائما شىء ينقصنى .. صفة أستطيع ان اواجه بها الناس .. وكانت هذه الصفة التى اتمنى ان اواجههم بها هى صفة : الأديب ! ..

من صغرى ، وانا اتمنى ان اكون اديبا .. له كتب ، وله مقالات ، وله اسم على السنة الناس .. وقد اشتغلت فى الصحافة لأكون اديبا .. وفشلت فى الصحافة .. ولكن حلمى ظل يراودنى .. ويلح علىّ .. يجب ان اكون اديبا !

وكنت اقرأ كثيرا .. وكانت اغلب قراءاتى فى الأدب الفرنسى ، وقرأت مرة قصة لمورياك .. قصة شائقة رائعة .. ماذا لو ترجمت هذه القصة ، ونشرتها فى كتاب باسمى ، وسجلت نفسى فى قائمة الأدباء ..

وحاولت أن اتخلص من هذا الحلم ..

اهملت قصة مورياك شهورا عديدة .. وانا اصر على ان اتفرغ

لاحتراف القمار ، ولحياتى السعيدة .. ولكن القصة كانت تتبعنى .. وتلح علىّ .. وتؤرقنى ..

ثم فجأة ، فى يوم من الأيام ، وجدت نفسى جالسا الى مكتبى اترجم القصة .. وتحمست فى ترجمتها .. الى حد انى اصبحت أغيب ليالى كثيرة عن موائد القمار .. وخسرت أرباحى فى تلك الليالى ، ولكن لا يهم ، سأعوض الربح ، بعد ان أطبع الكتاب وأبيعه .. وسيكون ربحا لذيذا .. الذ من ربح القمار ..

وانتهيت من اعداد القصــة ، وكتبت المقــدمة والاهداء .. أهديته الى روح أبى ..

كيف اطبعه ؟ ..

لقد كنت اعرف انه من المستحيل علىّ ان اجد ناشرا يتولى طبع كتابى ، فانى لا زلت مجهولا فى عالم الأدب ، والناشرون لا يطبعون الا كتب الأدباء المشهورين .. والكتب المضمونة الربح ، والوسيلة الوحيدة امامى لنشر كتابى ، هى أن اطبعه على حسابى .

واقدمت على طبعه بروح المقامر .. قررت أن اطبعه على ورق فاخر .. وأن اصنع له غلافا من ورق البريستول الثمين ، مطبوعا بخمسة الوان .. وان اطبع منه خمسة عشر الف نسخة ، ان موريال وانا ، نستطيع ان نبيع اكثر من ذلك ..

كم يتكلف المشروع ؟ ! ستة آلاف جنيه .. ولو ..

صحيح انى مفلس .. وقد كنت مفلسا دائما .. ولكن الافلاس ليس معناه الا نجد نقودا ..

وقررت أن أستدين .. ان أصدقائى كثيرون ، وكلهم يرحبون باقراضى .. ولكن الاقراض للعب القمار ، غير الاقتراض لمشروع أدبى ضخم .. ان دين القمار دين شرف ، والمقرض يفترض فيك الشرف .. ولكن الاقتراض لطبع كتاب دين تجارى .. والتجار لا يفترضون الشرف فى احد !!

وعلى غير عادتى .. اقترضت ، وكتبت شيكا رابعا لصاحب المطبعة ..

وتم طبع الكتاب ..

خرج انيقا لامعا . .رائعا .. يحمل اسمى !

واعلنت عنه فى الصحف ..

وطرحته فى السوق ..

وانا ادور على الباعة والمكتبات ، وانظر الى الكتاب الذى يحمل اسمى ، وأبتسم فخورا بنفسى .. لقد أصبح لى اخيرا صفة استطيع ان اواجه بها الناس .

ومرت الأيام ..

شهر .. شهران .. ثلاثة ..

اتدرى كم نسخة بيعت من الكتاب ؟ ! . .اربعمائة نسخة .. اربعمائة نسخة من خمسة عشر الف نسخة ..

وبدأ أصحاب الديون يجرون ورائى ..

وعدت الى موائد القمار ، لعلى استطيع أن اسدد ديونى من ارباحى .. ولكن يبــدو ان الحزازة التى تركها فشل الكتاب ، ومشاكل الديون التى تلاحقنى .. كل ذلك قد اثر فى صفاء ذهنى ، وقوة ملاحظتى ، فأصبحت اخسر على موائد القمار .. واخسر .. واخسر .. ثم اصبحت افقد اعصابى ، وأصبح اللاعبون يضيقون بى ، ويهربون منى ..

ويئس الدائنون منى .. ولم يرحمونى ..

باعوا سيارتى ، واثاث بيتى ، وثيابى .. ثم ..

قدموا الشيكات التى فى ايديهم الى النيابة .. شيكات بلا رصيد .. وقدمت للمحاكمة .. وحكم علىّ بالحبس ثلاثة شهور .

واكثر ما يضايقنى ان الناس تعتقد انى سجنت كمقامر ، لا كأديب !!

الشخصـــية الجـــديدة

انا طالب فى كلية الحقوق ..

ولعلى واحد ممن يحملون لقب « ابن ذوات » فعائلتى لها اسم كبير قديم ، وأبى غنى ، وعندى سيارة .. سيارة لى وحدى .. ومنذ ولدت وانا أركب سيارة .. انى لم اركب الأوتوبيس أو الترام فى حياتى ..

ورغم ذلك فانى لا اشعر بأنى « ابن ذوات » ولا بأنى املك سيارة .. كل ما اشعر به هو انى ضائع بين أصدقائى .. انى موضع سخريتهم دائما .. انى ضعيف ..

وطول حياتى وانا احاول ان اتغلب على هذا الضعف . احاول ان ابدو قويا مثل اصدقائى .. ان امنعهم من السخرية بى .. ان اتفوق عليهم فى شىء ..

حاولت ان أكون بطلا رياضيا .. لعبت التنس ، والاسكواش ، والفولى بول .. ولكن لا امل .. لا استطيع أن اتفوق .. وجسدى لا يريد أن يشتد ، وعضلاتى لا تزال مختفية تحت جلدى ، وعظامى لا تزال طرية ..

وحاولت أن اتفوق فى الدراسة .. ان انجح بدرجة ممتاز .. ولكن لا امل .. انى كلما جلست للاستذكار تاه عقلى ، وحملنى خيالى بعيدا عن الكتاب .. ورسبت آخر العام ..

وحاولت أن أمثل دور الشاب صاحب الشخصية القوية .. فكنت أضع على وجهى تعبيرا جادا .. ولا ابتسم الا قليلا ..

واتكلم بصوت غليظ .. واتعالى على النـــاس .. ولكن هـــذه الشخصية المزيفة كانت لا تلبث ان تذوب اذا حدثت مناقشة بينى وبين اصدقائى .. وابدو امامهم على حقيقتى .. ضعيفا .. ضائعا ، غبيا .. واحيانا ابكى ..

والبنات .. حاولت ان يكون لى بنت .. ان كل صديق من أصدقائى له بنت ، وبعضهم له أكثر من بنت .. وشكلى ليس منفرا .. ان وجهى وسيم رقيق ، يفضح ضعفى .. ثم انى من عائلة كبيرة .. وأبى غنى .. ان صفات فىّ كثيرة تغرى البنات .. وربما كنت خجولا منطويا لا اجرؤ على التقرب الى فتـــاة ودعوتها الى سيارتى .. ولكنى كنت اقاوم هذا الخجل والانطواء ، واختار بنتا أتقدم اليها ، ثم لا اكاد اعرفها ونلتقىَ مرة او مرتين حتى « يلطشها » منى احد أصدقائى .. ويسخر الباقون منى !

واتعذب ..

واتعذب بشخصيتى الضعيفة المنهارة ..

لماذا انا ضعيف ؟

ربما انى وحيد والدىّ .. امى وابى يدللانى كثـــيرا .. ويعاملانى حتى اليوم كأنى طفل صغير .. وأمى لا تكف عن تقبيلى .. وابى لا يرفض لى طلبا .. ويكفى ان اغضب غضبة صغيرة حتى يهتز البيت كله ..

وربما كانت هناك أسباب اخرى ..

لا ادرى .. ولكنى اتعذب ..

وكان اصدقائى كلهم يترددون على بيت واحد منهم ، ويجتمعون لاستذكار دروسهم .. وكنت اذهب معهم .. ولم نكن نذاكر .. كنا نلعب اغلب الوقت ونتحدث ! ..

ولاحظت ان هؤلاء الأصدقاء مهتمون بالتطلع الى البيت المقابل .. ان فى البيت المقابل بنات ..

واستنتجت أن لأصدقائى علاقة بهؤلاء البنات .. كل منهم قد اختار بنتا .. تخرج اليه فى الشرفة لتبادله الاشارات .. وتحادثه فى التليفون حديثا يستغرق ساعات ..

ولكن اصدقائى لا يطلعوننى على سرهم ..

انهم يتبادلون الهمسات امامى ، دون أن يشركونى فيها ..

انى بينهم كأنى لست موجودا! ..

وثرت عليهم ..

ثورة كثورة الأطفال الصغار ..

ان من حقى أن اشاركهم اسرارهم .. انى واحد منهم ..

واستقبلوا ثورتى ساخرين كعادتهم .. ولم استسلم لسخريتهم .. بدأت اضايقهم فى علاقاتهم ببنات الجيران .. كنت اخرج الى الشرفة كلما خرجت بنت الى الشرفة المقابلة .. واشير لها اشارات صبيانية ، وارفض أن اترك مكانى لصديقى الذى اختارته لنفسها ، وكلما دق التليفون وقفت بجانب الصديق الذى يتحدث ، واخذت اضايقه .. اصرخ .. واغنى .. واقطع المحادثة .

ثم .. ثم قال لى أصدقائى ان ميمى ، ابنة عم بنات الجيران ، كانت فى زيارتهم ، ورأتنى فى الشرفة ، وأعجبت بى ، وسألت بنات عمها عن نمرة تليفونى .. وبنات عمها سألوا اصدقائى .. فأعطوهن النمرة ..

وعدت الى البيت ، ورابطت بجانب التليفون ..

يومان ..

ثم تحدثت ميمى ..

بقينا نتحادث نصف ساعة ..

وجريت الى اصدقائى ابلغهم بنبأ المحادثة ، فنظروا بعضهم الى بعض ساخرين .. وانطلق واحد منهم يضحك بصوت عال .. لعلهم لا يصدقون !

وتحدثت ميمى مرة ثانية فى المساء ..

حدثتنى ساعة ..

وأصبحت ميمى تحادثنى كل يوم مرتين .. واحيانا ثلاث مرات .. وكان حديثها فى الأيام الأولى يبدو مفتعلا ، ويميل الى المزاح .. ولكن حديثها بدأ يهدأ .. ووجدت نفسى اتحدث اليها كما لم اتحدث الى احد من قبل .. انى انطلق فى الحديث .. لا اتردد .. ولا ارتبك ، ولا اخجل .. اما هى فلم يكن حديثها كحديث بقية البنات .. لم تكن تتحدث عن آخر الأسطوانات التى سمعتها .. ولا عن الأفلام .. ولا عن نادى الجزيرة .. كانت تتحدث قليلا ، وتبدو دائما حزينة منكسرة ، كأنها تخفى فى صدرها عذابا ..

واذهب الى اصدقائى ، واحدثهم عن ميمى .. فيتبادلون هذه النظرات الساخرة ، وبعضهم يضحك بصوت عال .. انهم لا يصدقون ! ..

وأخيرا استطعت أن اقنع ميمى بأن نلتقى .. وقد ترددت كثيرا قبل أن توافق على اللقاء ، بل انها حذرتنى بأنى لن اجدها جميلة .. ولكننى صممت .. ولا ادرى من اين اتيت بقوة التصميم .. ربما جئت بهذه القوة من تصميمى على تحدى أصدقائى ، وربما كانت ميمى تثير فى قوة جديدة لم اشعر بها من قبل .. قوة الرجل .. قوة السيد ..

ولقيتها ..

انها جميلة .. وغريبة ..

سمراء .. فى الثامنة عشرة .. وجهها مستدير ، كوجه فلاحة حلوة .. وربما لاحظت انها لا تجيد عقص شعرها ، ولا تجيد وضع « الروج » على شفتيها ، وثوبها يبدو واسعا عليها .. ولكن هذا لا ينفى انها جميلة ..

وهى غريبة .. انها تجلس بجانبى فى السيارة منطوية .. ثم

فجأة تأتى بحركة خليعة كأنها تذكرت دورا يجب أن تقوم به .. ثم تعود مرة ثانية وتنكمش فى ركن السيارة منطوية ..

وأنا سعيد بها ..

انى اشعر بجانبها انى قوى .. أقوى منها ..

ـ انى رجل .. انى سيد ..

وتركتها .. وجريت الى اصدقائى لأروى لهم ما حدث بينى وبين ميمى .. ونظر بعضهم الى بعض ساخرين ، وانطلق احدهم يضحك بصوت عال .. انهم لا يصدقون .. وقد بدات اكره هؤلاء الأصدقاء ! .

وعدت اقابل ميمى ..

كم مرة قابلتها .. ثمانى مرات .. لا .. تسعا .. وقد استغنيت بها عن كل أصدقائى .. لم اعـد اتردد على هـؤلاء الاصدقاء . لم اعد اطيق سخريتهم وضحكاتهم .. ولم يعد فى حياتى الا ميمى .. اعيش بجانب التليفون لأحادثها .. الى ان القاها ..

وقد قبلتها ..

ربما كانت ميمى هى اول فتاة اقبلها ، واشعر بطعم القبلة فوق شفتى .. وقد قبلت قبلها بنات .. ولكنى كنت أقبلهن كطفل .. قبلة يشوهها حيائى وضعف شخصيتى .. كانت البنات هن اللاتى يقبلننى لا انا .. اما ميمى .. فأنا الذى اقبلها .. قبلة رجل .. قبلة تنبض بشخصية كاملة ..

الى ان كان يوم .. وانتهى لقاؤنا .. وقبل ان تترك مكانها بجانبى فى السيارة قلت لها وأنا اضغط على يدها بيدى :

ـ حدثينى اليوم فى التليفون ..

ونظرت الى طويلا .. نظرة غريبة .. ثم سحبت يدها من يدى وقالت لى وهى تدير وجهها عنى :

ـ لا .. لن احادثك ..

قلت فى دهشة :

ـ لماذا .. ؟ ماذا جرى .. ؟ !

قالت وهى تنظر امامها :

ـ لن احادثك .. ولن القاك ..

قلت وانا اشد دهشة ، وقلبى ينقبض :

ـ ماذا جرى ؟

قالت :

ـ انك لا تعرفنى ..

قلت وانا أقترب منها وانظر فى وجهها احاول ان اقرأه :

ـ انى أعرفك .. وأحبك .

والتفتت الىّ بعينين ثائرتين وقالت فى حدة :

ـ انك لا تعرفنى .. لا تعرفنى .. لا تعرف حتى اسمى .. ان اسمى ليس ميمى .. وليس مرفت .. وانا لست ابنة عم احد .. انا .. انا ..

وخفت صوتها .. ونكست رأسها ، وقالت كأنها تهم بالبكاء :

ـ لقد خدعوك فىّ .. انى مقلب اوقعوك فيه .. فقد اتفق اصدقاؤك مع البنات على أن يطلبوا منى ان احادثك فى التليفون ليضحكوا عليك .. فحادثتك .. ولم أكن ادرى ان كل ذلك سيحدث .. لم اكن أدرى انى سأحبك ..

قلت وأنا لا افهم :

ـ ولكننى أحببتك و ..

ـ انك لا يمكن أن تحب خادمة .. انا خادمة .. خادمة .. انا نعيمة الخادمة !

وسكتت .. وسكت .. احسست انى اغرق فى ضباب كثيف . احسست أن شخصيتى الجديدة التى اكتسبتها ـ شخصية الرجل ـ بدات تذوب .. لقد سخر منى أصدقائى مرة اخرى .

وسمعتها تقول ودموعها تنحدر على وجنتيها :

ـ ان هذا الثوب هو ثوب ستى هدى .. لقد اقرضته لى فقط لامثل الدور عليك .. لقد كانت تقرضنى ثوبا كلما جئت للقائك .. وعندما اعود اخلع الثوب واعيده لها ، واروى لها كل ما حدث بيننا لترويه بدورها الى اصدقائك .

وسكتت .. وفتحت باب السيارة ونزلت منها دون ان تنظر الى ..

وسكاكين حادة تمزق فى قلبى ..

وعدت الى بيتى .. وكانت هناك فكرة واحدة تسيطر على تفكيرى .. ان اقتل اصدقائى .. ان اقتلهم جميعا ..

نعم .. سأقتلهم .. وجريت الى مكتب ابى واخذت المسدس ، واطمأننت الى انه محشو بالرصاص .. ثم ركبت سيارتى واتجهت الى البيت الذى تعود أصدقائى أن يجتمعوا فيه .. وقبل ان ادخل .. ترددت قليلا .. ثم وجدت نفسى اتجه الى بيت الجيران .. وصعدت السلم وثبا .. ثم وقفت ادق الباب بكلتا يدى .

وفتحت لى هدى ، وصرخت فيها :

ـ فين نعيمه .. فين نعيمه الخدامه ..

وربما كان الجنون يبدو فى عينى .. فقد تراجعت هدى من امامى ، وانا اسمعها تصرخ :

ـ نعيمه .. نعيمه .

ورايت نعيمه امامى .. ودون ان اتكلم .. جذبتها من يدها .. وسحبتها ورائى على السلم .. ثم أركبتها بجانبى فى السيارة .. وانطلقت .. بسرعة مجنونة .. و .. ووقفت بها فى المكان الذى تعودنا ان نقف فيه كلما التقينا ..

★★★

اتدرى .. لقد نجحت هذا العام فى الامتحان .. نجحت بتفوق .. بدرجة ممتاز !

الزوجة الثانية

هجر ابى امى .. لم يطلقها .. ولكنه هجرها ..

وقد بدأ هجره بليلة يغيبها عن البيت كل اسبوع .. ثم اصبحت الليلة ، ليلتين .. ثم اصبح يغيب ثلاث ليال .. ثم يغيب الأسبوع كله .. ثم عرفت امى انه تزوج امراة اخرى .. مطلقة .. ولم تعترض امى .. ولم تثر ..

ولم تطالب بالطلاق .. كل ما فعلته انها حرمته من نفسها .. لم يعد له عليها حقوق الأزواج .. وقد عاد بعد شهر يطالب بحقه .. ان ينام فى البيت ولو ليلة واحدة .. ولكنها رفضت .. وثار ابى وهدد .. واصرت على الرفض ..

وقررت امى بينها وبين نفسها أن تهب عمرها لأولادها .. انا .. وكنا خمسة .. ولدين وثلاث بنات .. وانا اكبرهم ..

وقد عشت طول عمرى اتساءل .. لماذا لم تطلب امى الطلاق .. لا يمكن أن يكون السبب هو ما يدفعه ابى لها للانفاق علينا .. فهى لو طلقت لاستطاعت ان تقاضيه وتستصدر حكما بالانفاق علينا ، يوازى ضعف ما ينفقه .. ولم اعلم الا اخيرا ان امى ظلت محتفظة بنفسها زوجة له ، حتى تحمى نفسها من الزواج من غيره .. حتى لا تضعف أمام رجل آخر يتقدم اليها ، وحتى لا تخضع لضغط أهلها عليها لتتزوج مرة اخرى .. فلا تهبنا كل عمرها .. لقد سجنت نفسها فى ورقة الزواج .. زواج بلا رجل .. من اجل اولادها .. من اجلنا ..

وكان ابى صاحب ورشة .. كان يكسب كثيرا ، وكان بعد ان هجرنا يرسل الينا ما يكفينا لنعيش فى ستر .. كنا نسكن شقة من اربع غرف فى حى السيالة وكنت واخوتى نذهب جميعا الى المدرسة .. ولكن ابى بدا ينشغل بزوجته الجديدة عن عمله .. وعنا .. ثم لم يكتف بالزوجة الجديدة .. تزوج مرة ثالثة .. واصبح له ثلاث زوجات وثلاثة بيوت ينفق عليها ..

ورغم أنه لم ينجب من زوجتيه .. الثانية والثالثة .. الا انه كان ينفق عليهما اكثر مما ينفق علينا .. وكانت يده تزداد ضنا علينا شهرا بعد آخر .. حتى اضطرت امى ان تنتقل بنا من الشقة التى كنا نسكنها الى شقة مكونة من حجرتين ، فى شارع السد .. ثم .. وابى يزداد ضنا علينا .. اضطررنا ان ننتقل الى حجرة واحدة نقيم فيها كلنا ، ايجارها خمسة وعشرون قرشا فى الشهر .

واخرجتنا امى من المدارس ..

كان يجب ان نعمل ، وان نكسب لقمة العيش ..

وارسلتنى امى لاشتغل صبى حلاق حتى اتعلم الحلاقة .. وارسلت اخى الى ورشة صغيرة فى الحى يتعلم فيها تصليح السيارات .. وبدات تدرب الاختين على الخياطة .. وهى نفسها بدات تعمل خياطة ..

وكل ذلك وابى لا يرحمنا .. ويقيم مع زوجتيه .. وكل منهما فى شقة كبيرة فى حى الروضة ..

وامى صابرة ..

لا تطالبه بالطلاق .. ولا تطالبه بنفقة ، الا ما يعطيه لها تفضلا منه ..

وكبرت وانا اكره ابى ..

كنت اذهب اليه واقيم معه أياما .. سواء فى بيت الزوجة الثانية او الزوجة الثالثة .. وأحس انى أنتقم منه .. أنتقم منه

بزيارتى له .. وانتقم منه وانا آكل على مائدته ، وانتقم منه وأنا أضرب أولاد زوجته .. وكانت لاحداهما ابنة وللأخرى بنت وولد .

ثم بعد ان كبرت أصبحت انتقم منه بطريقة اخرى .. اصبحت كلما ذهبت لأقضى أياما عنده ، أغرى بنتى زوجتيه .. وانالهما .. اشبع شبابى منهما .. انه انتقام لذيذ .. ولكنه انتقام ..

وقد استطعت ان اصبح حلاقا .. حلاقا ناجحا .. وبدات اكسب كثيرا .. وكان كل همى ان أعوض امى عما قاسته فى سبيلنا .. وان ارحم اخوتى مما كتبه عليهم أبى .. فاستطعت بمكسبى ، ان استأجر لنا شقة حديثة واسعة .. فى حى المنيل .. وان أزوج اختى .. وان أساعد اخى ليشارك أحد زملائه فى افتتاح ورشة .. واذكر ان الشقة التى استأجرتها كان فى حمامها بانيو .. واكثر ما فرحت به هو هذا البانيو .. ان امى تستطيع اليوم ان تستحم فى بانيو .. وكنت ادخل بنفسى واملأ البانيو بالماء الساخن وادعو أمى الى الحمام .. لقد كنت أدللها كثيرا .. انى احبها .. بقدر ما احبتنى وتعبت من أجلى ..

ولكنى ظللت اواظب على زيارة ابى .. اواظب على الانتقام منه فى بنتى زوجتيه .. كان هناك شىء يجذبنى دائما الى بيتى أبى .. بيت زوجته الثانية ، وبيت زوجته الثالثة .. ربما كان المرح الذى يملأ البيتين .. وربما لأن زوجتيه ليستا جادتين حزينتين دائما كأمى .. واولادهما لا يحملون الهم كأخوتى ..

ورغم كل شىء .. فأنا لا استطيع أن انكر ان ابى كان سعيدا فى حياته ..

ثم كان يوم .. وسمعت زوجة ابى – الثانية – تطلب منه ان يزوجنى بابنتها .. ولم اسمع حديثهما صدفة .. بل سمعته استراقا .. فقد تعودت ان استرق السمع كلما ذهبت للاقامة فى بيت ابى ..

وخفت .. خفت ان تكون زوجة ابى قد نصبت لى شركا لاتزوج ابنتها .. انى اعرفها .. انها قادرة على نصب الشراك .. وانا لا اريد ان اتزوج هذه الفتاة .. كيف اتزوجها وقد اشبعت منها شبابى .. ثم كيف أتزوج ابنة ضرة أمى .. لو تزوجتها فستموت أمى كمدا ..

وجريت الى امى وطلبت منها أن تزوجنى .. قلت لها اريد فتاة مثلها فى أخلاقها ، وفى عفتها ، وفى قوة احتمالها ..

وزوجتنى امى .. زوجتنى من ابنة اختها ..

وكانت زوجتى كأمى فعلا .. قوية مثلها .. صابرة مثلها . جادة مثلها .. عفيفة مثلها .. بل تمتاز على امى بانها متعلمة .. تقرا وتكتب ..

وسعدت بزوجتى .. انها تحبنى .. انها خادمتى .. انهـا تكاد تفرش لى الأرض برموش عينيها ..

وكان يجب ن ابقى طول عمرى سعيدا ..

ولكن بعد ثلاث سنوات .. وبعد ان انجبت ولدين وبنتا .. قابلت زينب ..

وزينب سيدة مطلقة ، قابلتها عندما زرت زوجة ابى .. مرحة مثلها .. بيضاء مثلها .

وشغلتنى زينب .. وعرفت أن لا سبيل اليها الا اذا تزوجتها .

لا .. لا يمكن .. لن أتزوجها ..

لن أكرر مأساة أبى .. لن اعرّض أولادى لما عرضنا له ابى .

وزينب لا تزال تشغلنى ..

ولكن .. لماذا اسمى حياة ابى مأساة .. لقد عاش سعيدا ..

لا .. انها مأساة .. لقد تخلى عن اولاده .. عنا ..

لن افعل مثله .. ابدا .. لن افعل مثله ..

ولكن .. مأساة ابى انه تخلى عن أولاده ، لا لأنه تزوج امرأة أخرى ..

اى أنه لو لم يتخل عن أولاده ، لما كانت هناك مأساة ..

وطيف زينب يشاغلنى ..

انى استطيع ان اتزوجها .. لماذا لا اتزوجها ..

كل ما هنالك يجب أن احرص على الانفاق على اولادى .. حتى لا تتكرر مأساة ابى ..

وقررت بينى وبين نفسى أن أتزوج زينب ..

وبدا أمامى كل شىء سهلا .. واضحا .. سأتزوج زينب .. وستبقى زوجتى الأولى مع الأولاد ، وسأنفق عليهم .. وكان الله يحب المحسنين .. ان زوجتى لا يمكن أن تطلب الطلاق .. انها كأمى .. انى اعرفها ..

وفاتحت زينب فى الزواج ..

وسهرت عندها ليلتها حتى الواحدة صباحا .. ومعنا اهلها طبعا .. وعدت الى بيتى سعيدا .. نشوان .. والحياة سهلة .. جميلة ..

ووجدت زوجتى جالسة فوق الفراش ، ووجهها مكفهر .. وابتسمت لها .. ولكنها لم تبتسم .. وسألتنى فى وقاحة :

ــ كنت فين ؟

ودهشت للسؤال .. صحيح ان هذه هى المرة الأولى التى اسهر فيها خارج البيت حتى الساعة الواحدة صباحا .. ولكن امى لم تكن تسأل ابى : كنت فين .. فكيف تجرؤ زوجتى على سؤالى ؟ !

ورغم ذلك فلم اكن اريد أن أعكر سعادتى ونشوتى ، فكذبت على زوجتى وتقبلت كذبتى كأنها لا تصـــدقها .. وقالت فى حزم عجيب :

— تانى مره ما تتأخرش !!

وسهرت ليلة اخرى عند زينب .. وعدت فرحان نشوان ..

فاذا بى أجد زوجتى تبكى .. ثم لم تكد ترانى حتى انطلقت فى وجهى كالمدفع الرشاش .. كالصاروخ .. ولا تريد ان تهدأ .. لا تريد ان تكف عن الصراخ .. وتبددت فرحتى ونشوتى .. ولم أنم .. قضيت طول الليل استمع الى صراخها ..

ورغم ذلك .. عدت وسهرت عند زينب ..

واستقبلتنى زوجتى صارخة :

— طلقنى .. طلقنى ..

اطلقها .. كيف ؟

ان امى لم تطلب الطلاق من ابى حتى بعد ان هجرها .. فكيف تطلب زوجتى الطلاق ؟!

كيف تطلب الطلاق وهى كأمى .. والأولاد .. الم تفكر فى الأولاد ..

وسكت .. لابد انها جنت ..

وصرخت زوجتى كأنها سمعت ما يدور بينى وبين نفسى :

— طلقنى وخد ولادك .. خللى ست زينب بتاعتك تربيهم لك .. يا .. يا ..

وانهالت الشتائم .. كل ما همنى هم الأولاد ..

— ان زينب لا تستطيع ان تربيهم .. ان زوجة ابى لم تربنا .. ولم اكن اقبل ان تربينى او تربى اخوتى .. انها صنف من النساء لا يصلح لتربية الأولاد ..

وزوجتى لا تزال تصرخ .. ظلت تصرخ حتى الصباح ..

وذهبت الى عملى بلا نوم .. ولم اكد انحنى على اول زبون .. حتى وجدت خالى يدخل على ويجذبنى من ذراعى ، ويهمس فى اذنى :

— ايه اللى انت حاتعمله ده .. صحيح حا تتجوز زينب .. مش كفايه اللى عمله أبوك ..

ثم جاء زوج خالتى .. ثم جاءت أمى ..

واضطررت أن اترك عملى وأذهب الى البيت لأجادلهم ..

وتركتهم ساخطا ونزلت لأجلس فى المقهى المجاور للبيت ، فاذا بصاحب المقهى يصيح فى وجهى :

— ايه الحكايه يا اسطى محمد .. حد اليومين دول يتجوز على مراته .. ده انت مراتك ست اميره .. يا راجل اعقل .. بلاش دناوه ..

والأسطى حسنين الميكانيكى ..

وسى جوده افندى رئيس حسابات قلم القيودات بالمحافظة ..

ثم .. زبائنى ..

زبائنى الذين اعتز بهم .. كلهم عرفوا بالحكاية .. كلهم فوق راسى .. كلهم يهددوننى .

ان زوجتى لم تترك احدا من اصدقائى و من زبائنى ، الا وسلطته على ..

انها ليست كأمى ..

ليست كأمى أبدا ..

ولم أتزوج زينب ..

مقــاعد المتفــرجين

لم اكن ادرى أن كل ذلك سيحدث عندما التقيت بكمال . .

كان شابا منطلقا . . مرحا . . يضــج بالحياة . . لا تكف الابتسامة عن شفتيه . .

واعتقدت انى سالهو معه . . وكنت فى حاجة الى اللهو . . فى حاجة الى أن اهرب من مشاكل ابى وامى . . وان اثير الموج فى حياتى الراكدة . . وان اضحك . .

ولكن حياتى مع كمال لم تستمر لهوا . .

لقد وجدت نفسى اغوص فى ابتسامته المرحة . . ابتسامة الطفل الكبير . .

ووجدت نفسى أعيش حياته . . حياة لا تهدأ ابدا . . ولا تستقر . . جمالها فى ضجيجها وفى عدم استقرارها . . لم تكن حياة عربيدة . . لا . . ان كمال ليس عربيدا . . انه صاحب راى فى الحياة . . صاحب مبدا . . ان الحياة فى نظره يجب أن تكون هكذا . . ضحكة كبيرة . . ويوم بيوم . . بلا قيود ولا تقاليد ، ولا شىء مما اتفق عليه الناس . . ان الناس كلهم على خطأ ، فلماذا نشاركهم الخطأ . . ؟

والناس كلهم يعيشون محرومين من حقيقة الحياة ، فلماذا نشاركهم الحرمان . . الناس كلهم منــافقون جبناء . . فلماذا نشاركهم النفاق والجبن . . اننا نعيش الحياة كما ارادها الله . . والله لم يرد الحياة راكدة آسنة . . لا . . لقد خلق الله الحياة متغيرة فى كل ساعة من ساعاتها . . خلقها من ليل ونهار ، ومن صيف

وشتاء ، ومن نور وظلام ، ومن برد وحر . . فلماذا يصر الانسان على ان يعيش هذه الحياة على وتيرة واحدة . . لماذا يقيد خطواته ، ويقيد روحه فى داخل علبة ضيقة ، يسميها التقاليد .

واحببت هذه الحياة . . حياة كمال . .

واحببت كمال . . واحبنى كمال . .

وعشنا يوما بيوم . . وساعة بساعة . . كل يوم جديد . . وكل ساعة جديدة . . ولا مسئولية . . لا احساس بالمسئولية اطلاقا . . اننا لا نحس بشىء الا بحبنا . . لا احس الا به ، ولا يحس الا بى . .

ومضى عامان على حبنا . . ثم تعبت . .

لا أدرى مم تعبت ، فلم يكن فى هذه الحياة شىء يتعب . . ولكننى بدات احن الى الاستقرار . . بصراحة . . بدات افكر فى الزواج . . يبدو انه مهما اشتد الحب ، فهو لا يغنى ابدا عن الزواج . . وقد كنت احب كمال . . احبه بكل دقات قلبى . . بكل دقائق عمرى . . ولم يكن هناك شىء ينقص حبى . . ورغم ذلك لم استطع ان امنع نفسى من التفكير فى الزواج . .

هل أتزوج كمال ؟ !

لا . . لقد اشفقت عليه من مجرد الفكرة . .

ان الزواج نظام لا يعترف به كمال فى حياته . . لا يخطر على باله اطلاقا . . وسعادة كمال ، وهناؤه ، وعقليته ، لا يمكن ان تتفق مع الزواج . . ان الزواج يتعسه . . يشقيه . . انه لا يصلح اصلا للزواج . . فالزواج يتطلب حدا من المسئولية ، ومن الاستقرار ، وكما لا يستطيع أن يكون مسئولا ولا مستقرا . . هذه طبيعته . .

انى اذكر الأيام التى كنت اراه فيها وفى جيبه عشرة جنيهات . . يصرفها كلها فى ليلة واحدة . . يصرفها بلا ضابط وبلا تفكير . . قد يعطى نصفها لبائع الجرائد ، ويشرب بالنصف الآخر زجاجة شمبانيا . . ثم يصحو فى اليوم التالى مفلسا . . دون أن يدرى

أنه مفلس . ودون أن يذكر انه يملك بالامس عشرة جنيهات . . واذكر الليالى التى كان يقضيها جالسا على سور كورنيش النيل . . سعيدا . . مبتسما . . كأنه على موعد مع حبيبته . . ولم يكن على موعد الا مع شروق الشمس . . دون أن يحس ان له بيتا يجب أن يعود اليه ، ودون أن يحس ان له سريرا يحن اليه ، ويهدأ فوقه . .

لا . . لا يمكن أن اتزوج كمال . .

ولكنى احن الى الزواج . . اريد ان اتزوج . . اريد أن يكون لى بيت . . ومطبخ . . وصديقات يزرننى . .

وتقدم الىّ رجل ليتزوجنى . .

ليمنحنى البيت ، والمطبخ ، ومكانا استقبل فيه صديقاتى . .

وكان رجلا محترما . . كل ما شعرت به نحوه هو الاحترام . .

هل يكفى الاحترام سببا للزواج . . ربما . .

وقررت أن اتزوجه . . ثم كان يجب أن ابلغ كمال . . شعرت انى يجب أن استأذنه فى أن اتزوج غيره . . ولم يكن لكمال حق علىّ الا حق الحب . . ورغم ذلك كان لا يمكن ان اتزوج قبل ان استأذنه . .

وذهبت اليه ، وقلت وانا احاول أن ابدو بسيطة وطبيعية :

ــ سأتزوج !! .

وارتفعت فى عينى كمال دهشة كبيرة . . دهشة صادقة . . وقال كأنه يتهمنى بالجنون :

ــ لماذا ؟ !

وفوجئت بهذه الدهشة ، وبهذا السؤال . . نعم ، لماذا اتزوج ؟ !

واحسست ان ليس هناك سبب يدعونى للزواج . . احسست بالبلاهة . . بأنى عبيطة . . اننا ــ كمال وانا ــ نضحك ، ونمرح ، ويحب احدنا الآخر . . فماذا اريد اكثر من ذلك . . ولماذا اتزوج ؟ .

ورغم ذلك فقد اجبته وانا لا ازال اشعر بالبلاهة :

ــ لا ادرى . . ولكنى يجب أن اتزوج . .

وتعكرت عينا كمال . . وتجهم وجهه . . واحسست بقلبى يتمزق له . . انى اطيق ان اراه دائما كما احببته . . مرحا ، منطلقا ، وابتسامته فوق شفتيه . .

ونظر كمال الى الأرض . . ثم رفع رأسه حزينا . وقال كأنه يبيعنى آخر ما يملك :

ــ هل تتزوجيننى ؟ . .

وشعرت انى اهم بالبكاء . . لا فرحا . . ولكن لانى احسست بمدى عذاب كمال . . انه لم يكن يعرض علىّ الزواج . الا اذا كان عذابه كبيرا . . كبيرا الى حد أن يضحى بكل حياته من اجلى . .

وانهمرت دموعى . . وقلت وقلبى يكاد يخنقنى :

ــ دعنى افكر !

وحملت دموعى ، وتركته . . وقضيت أياما اتعذب بحيرتى . .

حيرتى بين رجل احبه ولا يصلح زوجا . . ورجل يصلح زوجا ، ولا حبه . .

حيرتى بين قلبى وعقلى . . قلبى فى ناحية . . وعقلى فى ناحية . .

وقال لى عقلى انى اذا أردت الزواج . . فانى اريد الهدوء والاستقرار . . وكمال لا يستطيع ان يمنحنى الهدوء والاستقرار . . بل ان الهدوء والاستقرار سيقضيان على كمال . . كأنى لو تزوجته ، فسأقضى على نفسى وعليه . .

ولكن قلبى . .

قلبى يا ربى . . !

وخنقت قلبى . . نعم خنقته . . وتزوجت الرجل المحترم . .

وحاولت أن اخفف عن كمال الصدمة . . حاولت ان القاه . وأن امنحه اكثر مما تعودت ان امنحه ، لعله يغفر لى ، ولعله ينسى عذابى . . ولكن كمال لم ينتظر أن أواسيه . . سافر . .

واصبح لى بيت .. ومطبخ .. وصديقاتى يزرننى .. ولكن ،
انى احس انى ابتعد عن الحياة .. لم اعد اعيش الحياة ..
ولكنى اتفرج عليها .. نعم .. لقد انتقلت بعد الزواج الى مقاعد المتفرجين .. ارقب المسرح من بعيد .. وارى الممثلين الذين يعيشون الرواية ، وينفعلون بها ، والناس تنظر اليهم ، وتصفق لهم .. وانا .. وانا .. لا اعيش الحياة .. ولا احد ينظر الى ويصفق لى .. انا الهدوء والاستقرار .. انا البلادة .. انا عقل بلا قلب .. انا واحدة قطعت تذكرة للتفرج على الحياة .. من بعيد ..

وأنا ابكى .. ابكى حياة لا استطيع ان اعود اليها ..

وابكى هدوءا واستقرارا لا استطيع ان افر منهما

وامسح بدموعى جدران البيت ، والمطبخ ، واداريها عن صديقاتي عندما يزرننى ..

العـــودة

انا مهندس .. فى الثالثة والعشرين من عمرى ..

وارسلتنى الشركة التى اعمل بها ، فى بعثة تدريبية ، الى السويد ، لمدة عام ..

والسويد هى جنة الشقراوات .. والبنات هناك يأخذن الحياة ببساطة .. لا عقد ، ولا تكلف ، ولا هروب من طبيعة الانسان .. انك تستطيع أن تبتسم لأى فتاة فى الشارع ، فترد ابتسامتك ، دون ان تحس ان فيها معنى يجرحها ، ودون أن تشعر بأن كل ما قد يربطك بها انك رجل وأنها امرأة .. والابتسامة قد يعقبها حديث ، وقد يعقبها لقاء ، وقد يعقبها حب .. وقد لا يعقبها شىء ابدا .. ولكنها أولا ترد ابتسامتك .. لانها ابتسامة .. لا لأنك رجل وهى امرأة ..

ولكنى لم ابتسم لبنت من بنات السويد ..

قضيت اثنى عشر شهرا وحيدا فى جنة الشقراوات .. وربما كانت هذه طبيعتى .. فأنا ضنين بجسدى .. انى الى الآن لم يكن لى فتاة ابدا .. ثم انى لا اتصور ان اربط نفسى بفتاة وانا اعلم أنى سأتركها بعد سنة .. وبعد شهر .. ان البنات لسن مجرد متعة .. ولسن مجرد حاجة للرجل ، يجرى وراءها .. انهن اكبر من ذلك بكثير .. وقد عشت طول عمرى انتظر هذا الشىء الكبير ..

وتركت السويد بعد ان انتهت مدة البعثة ، وانا سـعيد .. سعيد بالحياة التى عشتها .. وسعيد بدراستى .. وسعيد انى

استطعت ان أقاوم اصدقائى بأن ابحث عن فتاة اكسر قلبها ، او تكسر قلبى .. ثم نفترق ..

وكان امامى بعد ان تركت السويد ان ازور بعض المصانع فى المانيا والنمسا ، لبضعة اسابيع ثم اعود الى بلدى ..

و .. حدث الشىء الكبير ..

كنت اركب القطار من كوبنهاجن فى الدانمرك ، الى هانوفر فى المانيا .. والقطار يعبر بنا بحر الشمال محمولا على باخرة .. ومياه البحر هادئة .. زرقاء .. عميقة الزرقة .. والنسيم يطوف بى كأنه يغسل وجهى بماء مثلج .. ونفسى هادئة مستكينة .. ورفعت عينى بلا مبالاة .. فرأيتها .. والتقت عيناى بعينيها .. صدفة ..

واحسست كأن حجرا صغيرا القى فوق صفحة نفسى الهادئة المستكينة ، فامتلأت بأمواج تتسع وتتسع حتى تصل اليها .. الى الشقراء التى تقف بجانبى مستندة على سور الباخرة ..

انها جميلة .. ولكنها ليست كبنات السويد ..

ان فيها شيئا يختلف عن كل البنات .. فيها شىء لى وحدى .. شىء كأنى كنت فى انتظاره على موعد ..

وابتسمت .. وجدت نفسى ابتسم ..

ولمحت على شفتيها ابتسامة مترددة ، ما لبثت ان اتسعت واستقرت ..

واقتربت منها فى خطوات حذرة .. كأنى كنت خائفا ان اقتربت اكثر ان اتبين انى اقترب من سراب ..

ووصلت اليها .. وتحدثنا ..

ولا ادرى من اين اتينا بكل هذا الحديث ولم يمض على لقائنا سوى لحظات .. وانا بطبعى خجول منطو .. ولكنى وجدت نفسى اتكلم واتكلم .. آفاق واسعة تتفتح امامى وتمتلىء بالكلام ..

ودعوتها الى الغداء .. ودعتنى فى نفس اليوم الى العشاء ..

ونحن نتكلم .. انها تستطيع ان تتكلم فى كل شىء .. فى الأدب ، والفن ، والموسيقى ، وفى الهندسة والصناعة ايضا .. ان ما فى راسها اكبر من عمرها .. عمر السابعة عشرة .. وهى دائما رقيقة حتى لتبدو من فرط رقتها « هفتانة » مستسلمة .. انها ليست كبنات السويد الممتلئات صحة وعافية .. كأنها شرقية .. كأنها من بناتنا ..

وعرفت انها نمساوية .. ابنه احد رجال الصناعة هناك .. وانها فى طريقها الى فيينا .. وبد تردد غيرت طريقى الى فيينا ..

وعشت معها هناك شهرا .. عرفتنى بعائلتها .. وكانت معى دائما ، حتى وانا ازور المصانع .. ثم كنا نذهب لنجلس معا على شاطىء الدانوب .. ونتكلم ..

ولم يعد كل ما بيننا كلاما .. لقد اعطتنى كل ما اريده .. أعطتنى فى استسلام رقيق .. وتحملتنى فى خضوع .. كانت تشعرنى بأنى كل شىء .. بأنى اقوى رجل فى العالم .. بأنى اسعد رجل فى العالم .. بأنى خير رجل فى العالم .. ولكنه احساس بقوة عواطفى .. بقوة الحنان .. بقوة الحب ..

وقد احببتها ..

كانت حبى الأول ..

ثم .. كان يجب ان اعود الى بلدى .. وقبل ان اعود كنت قد قررت ان اتزوجها .. ولكنى لم افاتحها فى الزواج ، فلم يكن مرتبى يكفى لأن اصنع لها حياة فى بلدى توازى الحياة التى تعيشها فى بلدها .. كان يجب ان انتظر حتى يصل مرتبى الى ستين جنيها فى الشهر على الأقل ..

وكما التقيت بها فى قطار .. ودعتنى فى قطار .. ركبت معى حتى آخر حدود النمسا ، ثم نزلت ووقفت على الرصيف ، ويدها

فى يدى ، وعيناها الزرقاوان فى بحر من الدموع .. ثم تحرك القطار .. ويدها فى يدى .. ثم تركت يدى ، وأخذت تجرى وراء القطار كأنها تريد أن تمسك به حتى لا يبتعد بى ..

واختفت .. وبكيت ..

ووصلت الى القاهرة لاجد خطابا منها فى انتظارى .. وكتبت لها .. كنت اكتب لها كل يوم .. وتكتب لى كل يوم .. ونتحدث .. نتحدث عن كل شىء .. وعن بيتنا فى القاهرة ، واين سنضع البوتاجاز .. واين سنضع الفريجدير .. و .. ومتى سيرتفع مرتبى الى ستين جنيها ..

وأنا وحيد فى القاهرة .. وحيد مع حبى .. مع ذكرياتى .. مع عينيها الزرقاوين .. ومع شعرها الذهبى .. ومع خطاباتها .

وحيد .. الى ان التقيت ببثينة .. لم التق بها ..

انى اعرفها دائما .. انها شقيقة صديقى محمود .. وكنت التقى بها وأتحدث اليها كلما ذهبت لزيارة محمود .. ولكنى وجدت نفسى بعد أن عدت من أوروبا أتحدث اليها اكثر .. ثم أصبحنا نلتقى فى النادى صدفة .. ثم أصبحنا نلتقى على موعد .. ونتحدث .. وحدثتها عن حبيبتى فى فيينا .. حدثتها عنها طويلا وكثيرا .. وكنت انتهى من حديثى معها ، وأذهب الى بيتى وأرسل الى فيينا بخطاب .. ثم لم اعد احدث بثينة عن حبيبتى .. لقد وجدنا اكثر من موضوع آخر نتحدث فيه .. ولكنى كنت دائما أتركها لأرسل خطابا الى فيينا .. الى حبى الأول .. ومر عام .. وعام آخر ..

وأنا أعيش فى حبى الأول .. وفى لقاء يتجدد مع بثينة ..

وكانت بثينة هى سندى فى هذا الأمل .. هى الدواء الذى اتناوله حتى لا أفقد الأمل .. لا تسىء الظن .. لم يكن بينى وبين بثينة شىء .. لم نتصارح بأى معنى من معانى الحب .. كان كل ما بيننا هذه الاحاديث التى لا تنتهى ..

وارتفع مرتبى الى ستين جنيها .. الى سبعين ..

وقررت ان اذهب الى املى .. وذهبت طائرا ..

ولكنها لم تكن فى بيتها .. لقد سافرت الى المانيا وستعود بعد اسبوع .. واعطونى عنوانها .. وجلست لأكتب لها خطابا .. ووضعت الورقة أمامى .. وامسكت بالقلم .. وبدأت اكتب .. ووجدت نفسى اكتب من اليمين الى اليسار ..

واكتب باللغة العربية ..

واكتب : عزيزتى بثينة ..

كانت رغبة عارمة تدفعنى الى الكتابة الى بثينة .. رغبة لم استطع أن اقاومها .. فكتبت لها .. وفى الصباح التالى .. امسكت بالقلم لأكتب الى حبيبتى .. ولأول مرة اتردد .. ولأول مرة اجد الكلام ثقيلا فوق سن قلمى .. ولأول مرة أحس انى أبذل مجهودا كبيرا لأنتقى الكلمات ، وليطول الخطاب الى اكثر من نصف صفحة .. وبعد ثلاثة ايام كتبت خطابا آخر الى بثينة ، من خمس صفحات .. ثم عادت حبيبتى .. والتقينا ..

التقينا بعد عامين من الأمل .. وفرحت بى ..

وفرحت بها ..

فرحة حقيقية .. احسست أنى استرد نفسى وانا اضمها الى صدرى ..

ثم .. ثم ساد بيننا صمت عجيب .. ثقيل .. صمت فيه ارتباك ، وكان كل منا يبذل مجهودا ليحتفظ بابتسامته .. وكل منا ينظر فى وجه الآخر كأنه يبحث فيه عن حبه ، وعن ذكرياته ..

وقضينا اليوم معا نبحث عن ذكرياتنا وحبنـــا .. وما كدت اعود الى الفندق حتى جلست لاكتب خطابا الى بثينة ..

ومر أسبوع .. وكل يوم اقضيه مع حبيبتى ، ثم اعود الى الفندق لأكتب خطابا الى بثينة .. و .. وقلت لها وأنا مرتبك :

ـــ لقد اصبح مرتبى سبعين جنيها ..
قالت مبتسمة :
ـــ مبروك ..
قلت فى تردد :
ـــ اننى أستطيع الآن ان اتزوج ..
قالت وهى تحنو علىّ بابتسامتها :
ـــ هل وجدت من تتزوجها ؟
ورفعت اليها عينى فى دهشة ..
وأمسكت يدى وربتت فوقها وقالت فى صوتها الهادىء الرقيق :
ـــ لست انا .. يا محمد !!
قلت :
ـــ ولكن ..
وقاطعتنى وهى تضع اصابعها الرقيقة فوق شفتى :
ـــ لا تتكلم .. لا تفسد ذكرياتنا .. تعال .. اننا سنذهب الليلة الى الأوبرا ..

وقبل ان اذهب الى الأوبرا ، ذهبت الى مكتب التلغراف ، وارسلت برقية الى بثينة : « ساعود .. انتظرينى » !
وعدت .. وتزوجت بثينة ..

فهـــــرست

صفحة

صفحة

للمؤلف

عبد الحميد جوده السحار

روايات وقصص واقاصيص

الطبعة الأولى

احمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن ابى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة اقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء ابى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد فرج		ينايرسنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
اهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤

الطبعة الأولى

قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
ام العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
اذرع وسيقان	قصة	يونيو سنة ١٩٥٨
ارملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	اكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتى	(قصة حياة المؤلف)	فبراير سنة ١٩٧٤
ذكريات سينمائية		ابريل سنة ١٩٧٤

القصص الدينى

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ "
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ "

محمد رسول الله ﷺ
والذين معه

في عشرين جزءا

١ ـ ابراهيم أبو الأنبياء	اكتوبر ١٩٦٥
٢ ـ هاجر المصرية ام العرب	مارس ١٩٦٦
٣ ـ بنو اسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤ ـ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥ ـ قريش	مايو ١٩٦٧
٦ ـ مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧ ـ اليتيم	اكتوبر ١٩٦٧
٨ ـ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩ ـ دعوة ابراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠ ـ عام الحزن	مارس ١٩٦٨
١١ ـ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢ ـ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣ ـ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤ ـ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥ ـ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦ ـ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧ ـ غزوة تبوك	نوفمبر ١٩٧٠
١٨ ـ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩ ـ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠ ـ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

(١) لقيطة
(٢) بعد الغروب
(٣) شجرة اللبلاب
(٤) شمس الخريف
(٥) غصن الزيتون
(٦) من اجل ولدى
(٧) سكون العاصفة
(٨) الماضى لا يعود
(٩) الوان من السعادة
(١٠) اشياء للذكرى
(١١) النافذة الغربية
(١٢) الضفيرة السوداء
(١٣) حافة الجريمة
(١٤) الوشاح الأبيض
(١٥) الجنة العذراء
(١٦) خيوط النور
(١٧) الباحث عن الحقيقة
(١٨) البيت الصامت
(١٩) اسطورة من كتاب الحب
(٢٠) للزمن بقية
(٢١) جولييت فوق سطح القمر
(٢٢) قصة لم تتم
(٢٣) الدموع الخرساء